709

روايات عبير

WWW.REWITY.COM

مـــرمـــوريـــة

Barbara Evanovich

قلب حائر

الأصليَّة

روايات عبير

«قلبٌ حَائر»

غالبًا ما يعجبُ الإنسان من أحداث القدَر إذ تارة تُحوّلُ الحُزْنَ سرورًا، وتارة أخرى تجعلُ السرور حُزنًا. فـ «سارة» المكسورة القلب بعدما فقدتْ والديْها تصل إلى إحدى الجزر في «اسكتلندا» للعمل كسكرتيرة لدى رجل ثريّ، ثم تقع في حُبِّ هذا الرجل الثريّ السيد «هيو فريزر» حيث صارتْ تعمل عنده.. وأخيرًا تكتشف «سارة» أنّ لـ «هيو» صديقة ثرية وجميلة.. فتهربُ ولكنّ «هيو» يتعقبها، لكنْ إلى أين؟!

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.	قطر	10 ريال
سوريا	100 ل.	مسقط	1 ريال
الأردن	1.5 دينار	مصر	6 جنيه
السعودية	10 ريال	المغرب	30 درهم
الكويت	750 فلس	ليبيا	5 دينار
الإمارات	10 دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	1 دينار	اليمن	300 ريال

ISBN 995338044 -9

9 789953 380445

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Chasa The Dawn

تأليف
Barbara Evanovich

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مرمورية

قلب حائر

(709)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون : **666 212 9 961 00** – فاكس : **665 212 9 961 00**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org   www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

بعد أن اجتاز المركب صخرة «ليدي مارا» على بعد قليل من أسوار قلعة «ديوارت» ألقى مراسيه قرب رصيف مرفإ «كريغنيور».وتنهدت «سارة» بارتياح بعد أن وصلت أخيرًا، وراحت عيناها تبحثان في تشوق متفحصتين الحشد الصغير من الناس فوق الرصيف. لقد ذكر لها «جيمس» أن «هيو فريزر» سيكون هنا في انتظارها، ولكنها لم تتبيّن أيّ شخص يناسب الوصف الذي أعطاه لها قائلاً:

– إنه رجل في حوالى الثلاثين من عمره، طويل، وأسود الشعر. وداخل «سارة» الأمل في ألاّ يكون «هيوفريزر»، الذي قرر استخدامها في عجلة، دون أن يراها قد نسي فجأة كل ما يتعلق بها. واستدارت نحو أمتعتها لتجمعها بتقطيبة خفيفة تعلو جبهتها الملساء. ثم سارت بتثاقل فوق المعبر الخشبي الذي يصل المركب بالرصيف، واسترجعت في ذهنها استمتاعها برحلتها بالمركب على الرغم من اضطراب الأمواج، إلاّ أنها أحست بأن زمنًا طويلا قد انقضى منذ أن غادرت «لندن» من محطة «يوستن» البارحة. وعندما ودعتها صديقتها «جين»، السيدة التي كانت تقيم «سارة» في منزلها بـ «لندن»، على رصيف المحطة قالت لها بمرح:

– ستكون رحلتك ممتعة دون شك يا عزيزتي.

وذلك بعد أن ساعدتها على العثور على مقصورة خالية في القطار، وأغرقتها بسيل من المجلات. وسافرت «سارة» ليلا إلى «جلاسجو» في «اسكتلندا»، ثم غادرت قطارها إلى القطار المتوجه إلى «أوبان»، ومن هناك استقلت المركب. وقد تمتعت برحلة جيدة مع أنها كانت مرهقة قليلا. وبينما راحت تتساءل بصبر نافد عن طول المدة التي عليها أن تنتظرها، اعتراها شعور بأن غاية ما تصبو إليه الآن هو الوصول إلى نهاية مطافها. ابتعدت «سارة» عن المركب بضع خطوات ثم ألقت بحقائبها كيفما كان بجانبها، وراحت تحدّق بفضول عبر المرفإ إلى «كريغنيور» التي بدت لها بلدة صغيرة لا تحتوي إلاّ على بعض البيوت المتناثرة وعدّة فنادق متراصة على حافة المياه حول الخليج. وفي الخلفية لاحت لها سلسة من الجبال الوعرة. ولاحظت أن بعض السيارات التي كانت على ظهر المركب قد غادرته شارعة في رحلتها عبر

الطريق الضيق المتجه إلى «توبرمري»، أما فيما عدا ذلك فلم يكن هنالك من مظاهر الحياة إلا القليل: صبي صغير وجهه منير يكسوه النمش، يحاول اصطياد السمك، ومجموعة من طيور النورس تحلق بأمل قربه. وراحت «سارة» ترقب المنظر باهتمام مستغرق لم تقطعه إلاّ هبة ريح عصفت فجاة بإحدى حقائبها الصغيرة وأخذت تتلاعب بها. وقفزت «سارة» فزعة إلى الأمام، ولكن قبل أن تستطيع الوصول إلى حقيبتها سارع شخص وسبقها إليها مسترجعًا إياها، وعرفته «سارة» على الفور، وتبينت فيه الشخص الذي لاحظته على المركب؛ لأنه كان يصغر لحنًا معروفًا من أوبرا «ريغوليتو». وكان شابًا نحيلا ذا لحية، يرتدي بنطلونًا ضيقًا من المخمل الأسود وقميصًا أسود أيضًا. وطاف بذهنها أنّ ملابسه تليق بصالة قهوة في حي «تشلسي» الراقي في «لندن» لا بجزيرة اسكتلندية. وابتسم الشاب بمرح وهو يعيد إليها حقيبتها. وردّت «سارة» ابتسامته بسرعة وقالت له بحرارة:

– لقد سارعت في اللحظة المناسبة، ولو أنك تأخرت لحظة واحدة لانتهت حقيبتي إلى البحر. وأنا لا أعرف السباحة. قال لها بلهجة مازحة وهو يهدئ بضحكته كلماتها اللاهثة الشاكرة. وضاقت حدقتاه وهما تستقران على وجهها المضرج:

– هل تحبين أن أوصلك بسيارتي إلى أي مكان؟ أو لم تقرري بعد أين تريدين أن تذهبي؟ وشعرت «سارة» بالاضطراب وهي تشيح ببصرها جانبًا محاولة أن تتغلّب على شعور باهت بعدم الارتياح. وتمتمت:

– قد لايكون إتجاهنا واحدًا. وتمنت لو أنها ارتدت للسفر ثيابًا أكثر وقارًا من بنطلونها الجينز القديم، فلقد بدا واضحًا أنّ هذا الرجل ظنّها فتاة تهيم هنا وهناك بحثًا عن الصحبة. وسارعت إلى القول غير عابئة بنظراته الجريئة:

– في الحقيقة إنني في طريقي إلى «لوخ غويل» من أجل العمل عند «هيو فريزر». وقد اتفقنا على أن أنتظره هنا. ولهذا فأنا لست محتاجة إلى عرضك، ومع ذلك شكرًا. «هيو فريزر»! ولوهلة بدا لها وكأنه جفل عند ذكر هذا الاسم. ولكن هذا الانطباع سرعان ما تلاشى حتى إنها شكت في حقيقته. وقال هازًا كتفيه بعدم مبالاة:

– حسنًا من المحتمل أن ألتقي بك يومًا ما. ورفع يده بحركة عابرة ثم دار على عقبه، وقفز بخفة إلى مقعد سيارة قديمة مهملة وساقها مبتعدًا، و «سارة» ترقب

الموقف بصمت. واستدارت وهي تتنهد، ثم جلست على صندوق مقلوب لتخزين السمك، واستعدت للانتظار. وتنفست الهواء الذي كان يفوح برائحة السمك والملح وأعشاب البحر بعمق، وأحست بحدته المنعشة. إنها لم تقابل «هيو فريزر» بعد. ولم تكن تعرف أي شيء عن منظره إلاّ بضع كلمات تفوّه بها «جيمس». وبدا لها من الصعب التصديق أن تكون جالسة هنا بعيدًا عن بيتها تستعد لابتداء وظيفة جديدة على جزيرة تكاد لا تعرف عنها شيئًا. ففي السابق لم تكن هذه الجزيرة إلا اسمًا على الخريطة، ولو لم يقع حادث الطائرة الذي تسبب في مقتل والديها لكان من المحتمل ألا تبقى إلا مجرد اسم. في الحقيقة إن «جين» هي التي ساعدتها على العثور على هذه الوظيفة. و «جين مارلي» هي صديقة قديمة للأسرة عرفتها «سارة» منذ طفولتها. وبعد وقوع الحادث ذهبت «سارة» لتعيش معها؛ إذ كان من الضروري أن ينتقل طبيب آخر إلى البيت والعيادة حيث كان والدها يعمل، وحيث كانت «سارة» تساعده مستقبلة مرضاه، وعلى أي حال ما كانت «سارة» ترغب في الاستمرار في العيش في البيت بعد أن رحل والداها. وكانت «جين» تعمل سكرتيرة لأحد مؤسسي مكتب معروف للمحاماة في «الوست إند» في «لندن» وهي التي اقترحت أن تحاول «سارة» الابتعاد عن «لندن» لمدة، وذلك في أثناء مكالمة هاتفية إلى «سارة» من مكتبها؛ إذ قالت لـ «سارة»:

– «أعتقد أنك تحتاجين إلى الابتعاد يا حبيبتي. وعلى الرغم من أنني أكره أن نفترق إلا أنني أعتقد أنك تحتاجين إلى التغيير، ولم أستطع أن أفعل شيئًا في هذا الشأن في الماضي، ولكن يبدو الآن أن صلواتي قد استجيبت متجسمة في طلب من شخص يُدعى «هيو فريزر» يسكن في إحدى جزر «اسكتلندا». أنا لا أعرف «فريزر» شخصيًا يا «سارة»، ولكن «جيمس» يعرفه، وقد ورث «فريزر» بعض الأملاك والأراضي في جزيرة «مل» وهو يحتاج إلى سكرتيرة لمدة شهر تقريبًا تساعده على ترتيب أموره، وتكون على استعداد لمصاحبة أخته الصغرى– أخته غير الشقيقة على ما أعتقد. وهو بالتأكيد يستطيع أن يستعين بإحدى العاملات في مكتبه فهو يمثل بيت «فريزر» في شركة («فريزر» و «هاردينغ») للاستيراد. وأنت لاشك قد سمعت بها، ولكن يبدو أنه يفضل استخدام فتاة لا تعمل في مكتبه، وهذا ما دفعه إلى الاتصال بـ «جيمس»

www.rewity.com

هاتفيًا». وقاطعتها «سارة» قائلة وهي تتمسك بسماعة الهاتف في محاولة منها لتستوعب كلمات «جين»:

– ولكن لماذا اخترتني أنا؟ فأجابت «جين» بقلق:

– لأنك محتاجة إلى التغيير يا عزيزتي، وعندما سألني «جيمس» عمّا إذا كنت أعرف شخصًا مناسبًا فكرت فيك في الحال. إن كلاً منا يعرف كم كانت هذه الأسابيع الأخيرة مؤلمة بالنسبة إليك. وعمل كهذا هو أفضل في اعتقادي من إجازة في الوقت الحاضر. فهو سيشغلك ذهنيًا وجسديًا ويساعد على تحويل فكرك عن الحادث. على كل، فكّري في هذا الاقتراح وسنناقشه هذه الأمسية. وإذا نال رضاك فإن «جيمس» سيقابلك بشأنه غدًا صباحًا. ولكن «سارة» أهملت نصيحة «جين» ولم تعر الموضوع تفكيرًا عميقًا، فعلى الرغم من مضي شهر على حادث تحطم الطائرة بوالديها فإن ذهنها ما يزال يعاني حالة من الخدر دفعتها إلى القبول بدلاً من التفكير. وبما أن «جين» ترى أن هذا الرجل «فريزر»، إنسان معقول وأن التغيير سيفيدها فإنه لامانع لديها من التعاون. وفي اليوم التالي ذهبت «سارة» مع «جين» لمقابلة «جيمس كار» ووجدته رجلاً لطيفًا يقارب الخمسين. وكانت تعرف أنه يحب «جين» وأن هذا الحب استمر عدة سنوات. ولكن – لسوء الحظ– كانت «جين» التي انتهى زواجها بالطلاق، تاركًا ذكرى مريرة في نفسها، ولذا فهي على غير استعداد لتجرب الزواج ثانية. إلا أنها كانت تخرج معه بين الحين والآخر، وقد عرّفته منذ زمن طويل إلى والدي «سارة» اللذين كانا يكنان له مودة كبيرة. واستقبل «جيمس» «سارة» بابتسامة، وأشار إليها بلطف بالجلوس، ثم دقّ الجرس طالبًا بعض القهوة. وبعدئذٍ انتقل للحديث عن متطلبات الوظيفة المقترحة. وبدا قانعًا بمؤهلاتها وبقدرتها على إرضاء موكله جيدًا. فقال:

– أنا أعرف أنّ سيدة مسنة بعض الشئ كانت تعمل عند العم «هيو»، وهي طباخة ومدبرة منزل ماهرة. إن «جيل»، في اعتقادي، قد تكون متعبة إلى حد ما، ولكن هذا لا يعني أنني أشك في قدرتك على تسيير الأمور جيدًا. قال هذا وعيناه تبتسمان لها من فوق نظارته ذات الإطار الذهبي.

وفكرت «سارة» وهي تتململ بقلق فوق صندوق الخشب الذي كانت تجلس عليه، إن

«جيل» هي أخت «هيو فريزر» غير الشقيقة. وهي السبب – كما شرح لها «جيمس» – في عدم رغبة السيد «فريزر» في استخدام فتاة صغيرة السن، أو سيدة نموذجية في منتصف العمر. وخطر لـ «سارة» أن «فريزر» نفسه يبدو شخصًا نموذجيًا. وقد أملت وهي تلوي شفتيها الرقيقتين بأن يحوز عمرها 21 عامًا، على رضا «فريزر». وفي كل حال لا يبدو أن أخته اليافعة ستشكل مشكلة كبيرة. ومن المحتمل أن ما ينشده أخوها هو بعض المساعدة من فتاة عاقلة وخفيفة الحركة تستطيع أن تعاون «جيل» على ملء وقتها في جزيرة منعزلة كهذه. وعبست «سارة» وهي ترفع ناظريها عن ساعة يدها لتحدق إلى شمس الأصيل، ولكن صوت محرك سيارة جعلها تتحوّل بعينيها إلى رصيف البحر. وحادت السيارة التي كانت من نوع «لاند روفر» عن الطريق وسارعت إلى حيث رسا المركب. ثم توقفت فجأة بضغطة قوية على الفرامل، وقفز منها رجل طويل راح يحدّج جموع الناس بنظرات سريعة. وكان حسن الهندام على الرغم من أن ثيابه كانت عبارة عن بنطلون من المخمل المضلع، وسترة بيضاء ذات قبة عالية. وبدت ثيابه مناسبة لجسده القوي المتين العضلات. وأوحى لها وجهه المتدفق حيوية أنه رجل يقضي معظم أوقاته في الهواء الطلق يتعرض للريح والعواصف وأنه يميل إلى العيش في خطر. واستقرت نظراته عليها الآن تتفحصها بموضوعية محاولة تقييمها. وشملتها عيناه الرماديتان الفاترتان بنظراتهما من تحت حاجبيه الداكنين الكثيفين. ولاحظت «سارة» صرامة قوس الصدغين والفك وانسياب شعره الداكن، مدركة أنّ شدته وصرامته تحول دون نعته بالرجل الوسيم. وانتهت «سارة» إلى أنّ خلاصة ما يمكن وصفه به هو أنه رجل متين البنيان ومثير للاهتمام. وابتسمت له لا إراديًا؛ لأن عينيه استقرتا عليها أخيرًا. وضاقت حدقتاه. وتغيّر التعبير الذي كان يكسو وجهه. وارتفع حاجباه الثقيلان قليلا. ثم اختلج فمه الصارم بابتسامة جعلت الدم يتدفق في خدّي «سارة»؛ إذ إنها كانت ابتسامة متعالية هازئة قليلا، باعثة الاضطراب. وسار حتى وقف بجانبها مهيمنًا بقامته المديدة. وسألها بحدة:

–هل أنت «سارة دينتون» سكرتيرتي الجديدة؟ وعندما هزت «سارة» رأسها بالإيجاب مرتبكة مضطربة أضاف بكياسة:

– اسمي «هيو فريزر»، وأنا من «لوخ غويل». وسارعت «سارة» إلى الوقوف على قدميها؛ إذ إنها شعرت بفقدان التكافؤ وهو يطل عليها من فوق.وقالت وهي تحاول أن تلملم كل ما استطاعته من وقار:

– لقد غادرت القارب منذ لحظات – فقط .

– إذن دعينا نذهب. ودون أن يعيرها مزيدًا من الاهتمام حمل حقائبها بخفة ووضعها في مؤخرة السيارة. وبحركة عابرة من يده أشار إليها أن تجلس في مقعد السيارة المجاور له. وفكرت «سارة» مجفلة: «لافائدة من أن أتوقع منه أن يفتح لي باب السيارة. على كل حال هو رئيسي وأنا مرؤوسته». ولمحت «سارة» في عينيه بريق استمتاع بالموقف وهو واقف في انتظارها ويضع يده في جيبه. وفجأة أدركت أنه يستطيع قراءة أفكارها مما بعث الغيظ في نفسها. وانتقل تفكيرها إلى السيارة ووجدت أنها تعرف أن «اللاند روفر» هي أفضل سيارة من نوعها للانتقال في مناطق «الهايلاند» ولكن، ألم يكن في الإمكان ترتيبها قليلا؟ وأمعنت النظر بأمتعاض في مجموعة الأشياء المبعثرة في أرضية السيارة، كل ما يخطر على البال، من المعاول حتى المواسير. أما حقائبها فقد تربعت بكبرياء فوق حزمة من القش. وخلعت «سارة» وهي متعبة معطف المطر الذي كانت ترتديه وجلست بحذر شديد على حافة المقعد.

– كما ترين، إنها ليست سيارة وثيرة. واهتز المقعد عندما استقر في السيارة بجانبها قائلا:

– ارمي هذه الأوراق القديمة وراءك، واحترسي من صفيحة البنزين تلك. هل استمتعت برحلتك؟

– نعم.

ورأت «سارة» أن سؤاله المتأخر ما كان إلا سؤالاً أملته اللياقة؛ إذ إن صوته لم يعبر عن أي شعور بالأهتمام. وحاد بالسيارة باحتراس عن الرصيف سائقًا بسلاسة ومهارة معتادة، مخلفًا وراءه «كريغنيور»، سالكًا الطريق في اتجاه «سالن» في الشمال. وثارت الدهشة في نفس «سارة» ووجدت نفسها تقول قبل أن تستطيع إيقاف كلماتها:

– ولكنك قدمت من ناحية الجنوب. أجاب بتكاسل وبإيماءة طفيفة من حاجبيه

الداكنين:

– هذا صحيح. لقد ذهبت لأقابل شخصًا لشراء كلب. واحمر وجه «سارة» وندمت على كلماتها، فالأمر كما أوحى جوابه لا يخصها. وقال مبتسمًا وهو يرمق وجهها المكتئب بنظرة سريعة لاح فيها وميض من التسلية:

– إنني أبحث عن فصيلة خاصة وأجد من الصعب العثور عليها. هذا الطريق سيقودنا إلى مشارف «سالن» ومن هناك سنحيد إلى اليسار ونسلك الطريق في اتجاه «لوخ غويل».و «سالن» هي قرية صغيرة تقع على الساحل ولا تبعد إلا عدة كيلومترات من هنا. وقد أسّسها رجل كان يتقلّد منصب حاكم جنوب «ويلز» الجديدة، ويحمل اسم «لاخان بن كويري». وأجابت «سارة»:

– أعرف. ولم تكن متأكدة أنها فعلا تعرف. وعلقت:

– لاشك في أن «لاخان بن كويري» كان رجلا ذا شأن.

– وهل سبق لك أن كنت هنا ؟سألها بصوت تخالجه الحدة:

– لا. وشعرت «سارة» بأن ذهنها قادر فقط على صياغة الإجابات الوحيدة القاطع.

– لو حاولت الجلوس جيدًا في مقعدك لاستطعت الأسترخاء وخف توتر أعصابك. وخفف من سرعة السيارة بصبر لكي يتيح لبعض الخراف عبور الطريق الجديد. ولاح البحر على بعد عدّة أمتار فقط، لايفصله عن البر سوى شاطئ ضيق يكسوه الحصى وتتكسر عليه الأمواج برقة. واستجابت «سارة» مرة ثانية لتعليماته، وأحست، لدهشتها، بتحسن. وتناهت إليها كلماته:

– إننا نتعلّم كيف نأخذ الأمور ببساطة في هذه المنطقة من العالم. إلا أنني يجب أن أعترف بأن إتقان هذا يستغرق بعض الوقت. وعاد لمتابعة الطريق بعد أن مرت الخراف، في حين راحت «سارة» تراقب القطيع وهو يبتعد، وبللت شفتيهاقبل أن تتمتم برصانة:

– إنه لمن الواضح أن السيد «لاخان بن كويري»لم يتبع هذه النصيحة. فحدجها بنظرة طويلة، وقال وفي عينيه بريق:

– إنك تخلطين الأمور يا آنسة «دينتون»، فالاسترخاء لا علاقة له البتة بالكسل. فأدارت «سارة» رأسها المتألق في اتجاهه، وراحت تتفحص وجهه عابسة متحيرة،

www.rewity.com

وقد داخلها الشعور بأنه أذكى من أن تكون ندًّا له. وأدار هو رأسه بدوره بعد أن أحس بنظراتها المتفحصة الطويلة وقال:

– من كنت تتوقعين أن تقابلي؟ وتابع مبتسمًا:

– رجل جبلي أشعث يرتدي الكلت (تنورة يرتديها الرجال في «اسكتلندا»)والسيف الاسكتلندي ليكمل لك الصورة؟ تدفق الدم في وجنتي «سارة»، إذ قابلت عيناها عينيه الساخرتين.

– إنني لم أفكر في هذا مطلقًا.أجابته ذاكرة نصف الحقيقة فقط. وتركت عيناه عينيها لترمقا أرجوان وجهها الجميل.

– هل أتعدى الحدود إذا ما سألتك عمّا تفعل فتاة مثلك هنا؟ ولم تفهم «سارة» فحوى كلماته بالضبط؛ إذ لاحت لها في عينيه نظرة متألمة، فقالت موضحة:

– ولكنك أبديت رغبتك في استخدام سكرتيرة. ولامست عيناه جانب وجهها وكمال خطوطه. وقال:

– ما كنت لأظن أن فتاة لها جمالك ستبدي الرغبة في أن تجد عملا في جزيرة كهذه، حتى ولو لبضعة أسابيع. فاستدارت «سارة»نحوه مستاءة وحدّقت إليه بتحدٍّ. ماذا يحاول أن يقول؟

– لعلك تظن أنني أصغر مما يجب. وشعرت بنبضاتها تتسارع في خوف. لا يمكن أن يعني أنها غير مناسبة، ليس بعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة، فقال لها:

– لقد أسأت فهم مقصدي.وتركت نظراته وجهها لتعاود التركيز في الطريق وقال:

– لقد طلبت من «جيمس كار» بشكل خاص أن يبحث لي عن فتاة شابة. إنك تبدين صغيرة بلاشك لأنني أكبر منك. وتذكرت «سارة» بأن «جميس» ذكر لها أن «فريزر» يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر تقريبًا. إذن هو ليس بالرجل العمر وسارعت تقول:

– إنني أؤكد لك أن منظري لن يؤثر بأية طريقة في عملي مطلقًا. وأحست بكلماتها تطفو في الهواء جامدة، متزمتة، ممّا جعل خديها يشتعلان خجلا للمرة الثانية. توحي كلماتها بالامتعاض.وتناول علبة السجائر من جيبه وقدم لها واحدة. ولما هزت رأسها بخمول رافضة، تناول هو واحدة وأشعلها،ثم ألقى بعود الكبريت

المحترق خارج النافذة. قالت وهي ترنو بتعاسةإلى سحب الدخان التي خلفتها سيجارته خارج النافذة:

– ربما كان يجب أن تصر على اختيار فتاة خاليةمن الجمال عندما اتصلت بالسيد «كار». وأخذ الطريق يضيق، ودون إنذار اندفع «هيو فريزر» بسيارته نحو طريق جانبي وتوقف. ونظر إليها مرة أخرى بتمهل عابث من تحت حاجبين تقوسا في حركة طفيفة أثارت الغيظ في نفس «سارة» حينئذ، كما أثارته قبلا. وقال مجيبًا على ملاحظتها الأخيرة:

– أنا شخصيًّا لا اعتراض لدي على استخدام سكرتيرة جميلة. وابتسم مضيفًا:

– ولو أن توقفي هنا قد أثار في نفسك بعض التساؤلات فإن السبب هو أنني أريد أن أناقشك في بعض الأمور قبل أن نلتقي بالآخرين. وراح يتأمل نهاية سيجارته المشتعلة بإمعان مثير للجنون. وانتظرت «سارة»متململة محرجة، وأزاحت شعرها الطويل الأشقر إلى الوراء بأصابعها النحيلة بعصبية. إن هذا الرجل يثير نفورها وفضولها معًا، ويدفعها إلى الحيطة على الرغم من أنهما لم يلتقيا إلا قبل لحظات فقط. وقد أوحت لها شخصيته بأشياء لاتستطيع أن تتكهنها. وهو بلاشك يختلف عن أي رجل سبق لها أن قابلته. وسألته «سارة» بعناد محاولة أن تتفادى مجابهة الغموض والإبهام:

– ألا تظن أنّ سيدة أكبر سنًّا مني تناسبك أكثر؟ واستدار نحوها بصبر نافد متململا:

– ولكن السيدات الناضجات لا يتمتعن دائمًا بالكفاءة، ولا يمكنهن التكيف بسهولة، ويتطلبن غالبًا وقتًا طويلا للاستقرار. ظنت «سارة» أنها فهمت مقصده فقالت وهي تبتسم بأدب:

–أظنك تريد أن أنتهي من عملي هنا في أسرع وقت ممكن.

– ليس بالضرورة.وتركت عيناه شعرها لتستقرا على وجهها بإمعان متكاسل. كأنه يتفحص لوحة وقال:

– في تقديري؛ المدة اللازمة لإنجاز العمل هي ستة أسابيع، ولكن من المستحيل تحديد الوقت بالضبط. هذا يعني أننا قد ننتهي قبل المدة المقررة أو بعدها،وهذا

www.rewity.com

يتوقف على مدة بقائي هنا، فقد أضطر إلى قضاء بعض الوقت في «لندن». واستوعبت «سارة» فحوى كلماته بصمت. طبعًا لقد نسيت أن عمله الأساسي مقره «لندن»، وليس هنا. وجلست برهة تحدق إلى لوحة جهاز القياس أمامها، غير شاعرة بعينيه المتفحصتين، وأخيرًا تمتمت قائلة:

– لاشك في أنه من غير المريح أن يعيش المرء بعيدًا عن المدينة، ثم أضافت وقد أدركت أن ملاحظتها إنما هي حقيقة معروفة للطرفين:

– لقد أخبرتني «جين» بأنك تعمل في مجال الاستيراد.

– «جين»؟! وعلت نظراته الحدّة، إذ رمقتها عيناه بأحتراس. تمنت «سارة» لو أنها لم تنطق بكلمة. وسارعت إلى الإيضاح:

– «جين مارلي»، صديقتي، إنها سكرتيرة السيد «كار». والحقيقة أنها هي التي أخبرتني بهذه الوظيفة.

– آه فهمت. وتراخت أعصابه المشدودة بوضوح ودون سبب مفهوم لـ «سارة»، وأضاف:

– حسنًا، من أجل إيضاح الأمور يحسن بي أن أذكر أنّ الاستيراد كان مهنة والدي وليس مهنتي، وذلك حتى لحظة اختفائه من يخته قبل ستة شهور، أما أنا فقد عشت في الخارج معظم الوقت، أنا مهندس.

– أنا آسفة. أجابت «سارة» ببطء، وبدا لها غريبًا ألاّ يكون «جيمس» قد ذكر لها شيئًا عن هذا الحادث. ولو أنها كانت على علم مسبق بذلك لاستطاعت أن تتجنّب هذا الموقف المحرج. وضاقت عينا «هيو فريزر» ثم قال بلطف، ولكن بنبرة حازمة:

– إن هذا كله لا علاقة له بك. أما بالنسبة إلى تحديد المدة التي سيستغرقها عملك هنا فيمكننا التناقش في شأنها في المستقبل، إن صدمة موت والدي كانت أكثر مما استطاع أن يتحمله عمي الذي كان يكبره سنًّا والذي لم يكن يتمتع بصحة جيدة. وكان عمي متعلقًا بـ «لوخ غويل». ولكن لم أدرك إلى أي حدٍّ أهمل الأمور حتى أتيتُ إلى هنا من أجل أن أرتب وأنسق أعماله.

وتمهل لحظة، ولكن «سارة» تجنبت أن تعبر مرّة أخرى عن تعاطفها. فمن الواضح

أنه إنما يفضي إليها بهذه التفاصيل الآن، بسبب علاقتها بالعمل الذي جاءت من أجله، ثم قالت وهي تتذكّر بعض مرضى والدها المسنين:

– إن كبار السن يميلون دون استثناء إلى إهمال أعمالهم. وتجاهل «فريزر» كلماتها، وتابع قائلاً باستعلاء وتجهم:

– وعندما لاحظت الفوضى التي سادت مكتب عمي لجأت في الحال إلى طلب المعونة من «جيمس كار». إلاّ أنه لم يكن بالإمكان الخوض في التفاصيل قبل وصولك. فبالإضافة إلى واجباتك الوظيفية، هنالك أمر آخر أودّ أن أتحدّث إليك بشأنه قبل أن نصل إلى «لوخ غويل». فردّدت «سارة» وهي تحاول أن تخفي اضطرابها الفجائي وراء ابتسامة مشرقة:

– السكرتيرة الجيدة هي السكرتيرة المتعددة المهارات. فأطفأ «فريزر» سيجارته المحترقة قائلاً:

– إن السيدة «سكوت» مديرة منزلي، تحمل الرأي نفسه على الأكثر. وهي بلاشك ستعتبر إحدى مهماتها مراقبة تصرفاتك، ولهذا فأنا أحذرك. ابتسمت «سارة» على الرغم من التعب الذي كانت تشعر به فهي عادة تملك القدرة على مصاحبة من هم أكبر منها سنًّا. قالت وهي تقابل عينيه الداكنتين بثقة متجددة:

– هل هي كبيرة السن؟

– في الستينيات على ما أعتقد. وتجعّد جبينه وهو يقول مسلمًا:

– إن «بيدي» مؤسسة بكاملها أو تكاد. وأظن أنه يمكننا اعتبارها فردًا من العائلة، وتحب أن تتصرّف كما يحلو لها. قالت «سارة» بجرأة ممزوجة بالحذر:

– لقد تحدث السيد «كار» عن أختك غير الشقيقة كما ذكر أنك تحتاج إلى من يساعدك على رعايتها. و لاحظت «سارة» تجهمًا في وجهه وهي تتكلم، وكان التعبير المرتسم على ملامحه مزيجًا من نفاد الصبر والتسليم فقال:

– إن «جيل» تقارب العشرين. ووالدتها وهي أمريكية المولد، تقوم حاليًّا بزيارة طويلة لـ «أمريكا»، ولهذا فإنه من الناحية النظرية تقع مهمة رعاية «جيل» على عاتقي.

– ألا يوجد شخص آخر؟

– تعنين أفضل؟ ولمعت عيناه بسخرية، إذ توردّت وجنتاها وقال:

www.rewity.com

– لا، مع الأسف، لايوجد من يستطيع التأثير فيها. ورمته «سارة» بنظرة سريعة؛ إذ ضاقت شفتاه الصارمتان، وقالت:

– يبدو أنك تعاني مشكلة.

– قد أكون كذلك، وهي مشكلة كنت في غنًى عنها. يبدو أن «جيل» قد سمحت لنفسها بالاختلاط ببعض رفاق السوء بعد سفر والدتها. ويا لسوء الحظ! كنت أنا مشغولاً جدًّا، في حين لم يكن لدى «جيل» ما يشغلها بما فيه الكفاية وقالت:

– قد لا يتعدّى الأمر مجرد مرحلة تمر بها. وحولت نظراتها عن وجهه العابس إلى يديه المشدودتين على المقود. قال ووجهه ينطق سخرية:

– وفري عليّ الملاحظات التافهة، أنت لا تعرفين أختي، فهي لا تمر بمراحل، كما أنها تظن أنها تعرف كل الأجوبة، ولكنها لا تعرف معنى المسؤولية. و «جيل» في الوقت الحاضر تعتقد أنها تحب فنانًا فقيرًا، وتصمّم على الزواج به. وقفزت عينا «سارة» إلى وجهه ثانية. فمن الواضح، كما بدا من نبرات صوته، أنه لا يوافق. هل السبب هو كون الرجل فنانًا أو فقيرًا؟ وتمتمت بتردد:

– لو أنه رجل مناسب فقد لا يبقى فقيرًا دائمًا في غير هذه الظروف.

– قد تستطعين محاولة الإصغاء إليّ، يا آنسة «دينتون». قال مستديرًا في مقعده وعيناه الساخرتان تلتقيان بعينيها الواسعتين المكشوفتين:

– مما لاشك فيه أنك قطعت مسافة طويلة. ومن المحتمل أنّ التعب قد بلغ بك حدًّا يحول بينك وبين التفكير الصائب، ولهذا فأنا أرجوك أن تسمحي لنفسك بالاهتداء بآرائي. بالإضافة إلى أني أعرف المزيد عن هذا الشاب، وما سمعته عنه يجعله يحتاج إلى الكثير مما يزكيه. هذا لو توخيت في تقييمه جانب الاعتدال، سألته «سارة» بسرعة:

– ولكن، هل قابلته؟ وعلى الرغم من أنه كان على بعد عدة سنتيمترات منها، فقد أحست بأن المسافة الذهنية بينهما شاسعة. وفجأة ودون سبب تسارعت نبضاتها. وداخلها شعور بالتعاطف مع «جيل» المتمردة، واستطرد قائلا:

– إن ما يقلقني هو طبع «جيل» المندفع. وهي الآن تتماثل للشفاء إثر عملية جراحية، وستأتي إلى «لوخ غويل» لتقضي فترة نقاهتها. إن أحدًا هنا لا يعرف شيئًا عن

صديقها، ولهذا لا داعي إلى أن يذكره أحد إلاّ إذا أشارت إليه هي نفسها. من المحتمل أن تنساه إذا ما قضت فترةً دون أن تراه. وهنا أجد مساعدتك ضرورية، أنا لا أظن أنه سيتبعها إلى «لوخ غويل»، ولكنني أحتاج إلى من يراقبها ويخبرني إذا ما لاحظ شيئًا مريبًا. لا أعتقد أنك ستجدين هذه المهمة شاقة جدًّا. وعبست «سارة»، وهي غير مقتنعة بعد. واعتراها شعور مزعج بأنها لم تسمع القصة بكاملها بعد، وبأنه لم يذكر لها كل شيء. وفي قرارة نفسها أحست بأن الموضوع يغلفه شيء من الميلودراما، كقصة من العصور الوسطى. لاشك في أن أسلوبًا أكثر تفهمًا وتجاوبًا هو أفضل من هذا الموقف الأبوي الثقيل. لعل سفر والدة «جيل» قد أتاح لشعوره بالمسؤولية أن يفقد توازنه قليلاً. وسألته:

– أليس من المحتمل أن تكون مجحفًا في حقها بعض الشئ؟ فإنّ الحب بين أختك وبين هذا الرجل قد يكون حقيقيًّا.

– لقد سبق أن ذكرت لك أن هذا مستحيل. أجاب باقتضاب وبدا التصلّب جليًّا في موقفه:

– ألن تفعلي ما أطلبه منك؟ وتساءلت «سارة»: «ألم يقع هو في الحب شخصيًّا؟» ثم داخلها الشك. إن رجلاً مثله لابد أن يُخضع عواطفه لنظام صارم، ولاشك في أن قلبه لا يمكن أن يسمح له بأن يلين إلا إذا أمره عقله. ولما لم تجب أعاد سؤاله بصبر نافد وبصوت صارم، أجابت «سارة» بكا الحدة التي جرؤت عليها:

– أنا أرفض التجسس. وتقابلت نظراتهما فقال:

– أنا لا أطلب منك أن تتجسسي، لا تكوني بلهاء.وراحت أنامله تمر خلال شعره الكثيف الداكن بغيظ. وكان الموقف كله قد أثار في نفسه التبرم:

– لو أنك وجدت شيئًا فأنا أتوقع منك أن تخبريني. ولكن دون أن تبالغي في إبراز الحوادث الصغيرة بحيث تخرج عن سياقها.

– هل هذا أمر؟

– يمكنك اعتباره أمرًا.

– وإذا لم أوافق؟ واعتراها الخوف من الداخل، على الرغم من الغضب المشتعل في عينيها. وقال:

www.rewity.com

– لا أريد أن أجعل من الموضوع مشكلة، ولكن المرؤوسين عادة يكونون على استعداد لإطاعة الأوامر.

– ضمن حدود معينة... ارتجفت الكلمات على شفتيها ثائرة. وجاء جوابه بسرعة فبعث الرعدة في نفسها:

– كان يجب أن أراك بنفسي في «لندن». أدركت «سارة» بحدسها أن أحدًا لم يجرؤ من قبل على تحديه وسمعت صوتًا ... صوتها يجيب:

– حسنًا لقد فزت. بما أنني هنا فليس لي مجال كبير للاختيار. سأفعل ما بوسعي. كان استسلامها سريعًا، إلا أنه كان خاليًا من اللياقة والكياسة؛ إذ إنها ما تزال تعاني الثورة.

– حسنًا! وابتسم ابتسامة رجل تعوّد تحقيق ما يريده دائمًا.وبدا وكأنه على استعداد للتصرّف بأريحية، متناسيًا سلوكها الذي لا تفسير له.

– أظنك ستجدين أنّ الأمر لن يتعدّى محاولة إيقاف «جيل» عن الإسراع إلى «لندن» كلّما شعرت بالملل. والآن يحسن بنا أن نتابع طريقنا. وأدار محرك السيارة راجعًا بها إلى الوراء بقوة. ثم غير الموضوع قائلاً:

– أستنتج أنه لا مانع لديك من العمل في خدمتي. قالها بلطف وقد علا صوته على صوت المحرك. اشتعلت عينا «سارة» الزرقاوان غيظًا بينما كان يدير السيارة؛ إذ أحست بلذع كلماته وأسلوبه معًا. ولكنها قررت أن تتجاهل انتقامه الذكي اللبق. لاشك في أنه يحس بأنه لم يكن عادلاً تمامًا. ولكن كيف تستطيع أن تناقشه في النواحي الدقيقة لموقف يبدو ظاهريًا بسيطًا نسبيًا. فلو أن «جيل» وصديقها على علاقة حب فإنه ليس من المحتمل ألا يحاولا اللقاء. وإذا ما تم هذا اللقاء فليس من المعقول أن يعتبرها مسؤولة. سألت «سارة» بثبات وهي تتمسّك بحافة مقعدها من أجل أن تستعيد توازنها.

– متى تصل شقيقتك؟ فابتسم إبتسامة ساخرة ردًا على موقفها العدائي الملموس.

– بعد أسبوع أو أكثر كما أتوقع. إذ إنها ستبقى في «لندن» حتى تسمح لها حالتها الصحية بالسفر. وهذا سيتيح لنا الوقت الكافي لكي نسرع في العمل.

– طبعًا.

وضغطت «سارة» على نفسها حتى استطاعت أن تعود بذهنها إلى التركيز في المناظر أمامها ثانية. وأحست بدوار خفيف وهي تجر عينيها بعيدًا عنه وعن سيطرة رجولته الطاغية المبهمة وعينيه اللامعتين كبرق عواصف الشتاء،ثم أضافت بلهجة دفاعية:

– أنا معتادة العمل الشاق والساعات الطويلة.

– من المستحسن أن تكوني هكذا. واستعرضتها عيناه بحدة، مسجلتين تألق جلدها الناعم. وقال:

– لن يكون العمل هنا عطلة، أو ما شابه ذلك. إذ إن علينا أن ننجز ما يعادل خمس سنوات من العمل المتراكم. من الواضح أن تقدّم عمي في العمر قد حال بينه وبين أن يرعى أعماله كما يجب.

– ألست مجحفًا في حقه قليلاً؟ ألم يكن هناك من يساعده؟

– يبدو لي يا «سارة»، أنك تحبين الأسئلة. إن عمي لم يكن بالشخص المغرم بالمكاتب وأعمالها، وكان يفضل قضاء وقته في العراء. ندمت «سارة» على حمرة الخجل التي صبغت وجنتيها والتي لم تستطع أن تسيطر عليها لحظة أن صدمها سماع صوت اسمها على شفتيه. وراحت تحدّق إلى أناملها النحيلة محاولة أن تعطي نفسها مهلة صغيرة تستجمع في خلالها شتات فكرها. فقد لاحظت في طبع «فريزر» نزعة إلى القسوة لم تعرف كيف تتصرف حيالها. وهو بلاشك من النوع الذي اعتاد المشاركة في المشاريع الكبرى في الخارج، والذي ينتقي موظفيه بعد طول تدقيق، طالبًا منهم شدّة المراس وتنوع الكفاءات. وإذا ما أصر فإن أوامره لابد أن تنفّذ على أكمل وجه. وداخلها الشك في أنها تستطيع النهوض إلى مثل هذا المستوى. راقب «فريزر» وجهها الساكن دون أن يستدير،ثم قال بهزة لامبالاة من كتفيه القويتين:

– ما هي النتائج التي توصّلت إليها داخل هذا الرأس الجميل، يا آنسة «دينتون»؟

واندلع الغضب في نفسها كاللهب، إن هذا الرجل شيطان ساخر، يلعب دوره بسهولة وبراعة، وشعرت «سارة» بكل أعصابها تتوتر، ولكنها حاولت أن تتكلّم بثبات فقالت:

www.rewity.com

– لقد كنت آمل أن نستطيع العمل معًا بمودة يا سيد «فريزر». ولمعت عيناه باستمتاع وقال:

– أنا واثق بذلك يا آنسة «دينتون»، وإذا ما استطعت تلبية طلباتي، فإنني لن ألجأ إلى الشكوى.

– لاتخف، فسأفعل. لم تذكر «سارة» أنها في السابق قد شعرت بوجود رجل على هذه الصورة، فكل شيء حوله؛ انحناءة رأسه المتغطرسة، وقوة كتفيه العريضتين، وذقنه كلها توحي بشدة رجولته. إنه من النوع الذي لابد أن يثير عداء النساء، ولكنها لاستغرابها ودهشتها، وجدت عينيها تعودان إليه مرارًا والسيارة تندفع عبر طريق الجزيرة المنعزل. بعد «سالن»، مال الطريق في اتجاه الشاطئ الغربي. ووصلا «لوخ غويل» قرب نهاية العصر. ولم تنسَ «سارة» قط تلك المرة الأولى التي شاهدت فيها القلعة الرابضة على حافة البحر بحجارتها الضخمة التي بدت وكأنها استمرار للمناظر الطبيعية حولها. وتربعت القلعة التي بنيت من الجرانيت والحجر الرملي فوق الصخور العالية وصارت لعبة للريح، والشمس الغاربة تصبغ بالذهب أبراجها وسطوحها. ونظر إلى وجهها المجفل:

– هل يخيفك هذا المكان، يا آنسة؟ لعلّي كان من الواجب أن أحذرك مسبقًا. فأشاحت «سارة» بوجهها عنه فلم يعد يبدو لها منه إلا استدارة الخد الكاملة. أجابت متمتمة بهدوء:

– إنني لا أفزع بسرعة.

– هل تقولين الحقيقة؟ قال وفي صوته نبرة خفيفة من الوعيد بينما راحت عيناه تقيسانها ببرود وقد لاح فيهما واضحًا بارق من الغيظ المصطنع.

– هل تجدين أنه من الضروري دائمًا أن تهاجمي كالقنفذ. أظن أنك شائكة مثله.

– هذا يمليه مبدأ الدفاع عن النفس، ياسيد «فريزر»، ولكني أكره مقارنتك هذه.

– الدفاع عن النفس، أو ذكرى علاقة حب انتهت نهاية مريرة، يا آنسة «دينتون»؟ إن العلامات معروفة ويمكن تعرّفها ببساطة بما في ذلك آلية الدفاع عن النفس. أجابت «سارة» بعنف وبصوت منخفض:

– أنت مخطئ تمامًا. فرد عليها بجفاء متناهٍ:

– إن اليوم الذي أجد فيه نفسي على خطإٍ تامٍّ لم يولد بعد. وأحست بكلماته اللاذعة تلدغها فهبت قائلة:

– هذا لا علاقة له مطلقًا بما عنيته مسبقًا.

– لاشك في أن الشخص الذي خلف على وجهك مسحة الحزن الغامضة هذه قد نجح تمامًا في أداء مهمته. قفز قلب «سارة» بألم. إنها لا تستطيع التحدّث عن والديها دون أن تخاطر بقدرتها على ضبط نفسها، ليس بعد. ثم إنها لم تكن تريده أن يحزر الحقيقة، من الأفضل أن تدعه يصدق ظنونه إذ إنها لم تكن تريد عطفًا منه، ولاتنشد إلاّ النسيان. قال ناظرًا إليها، وشبح ابتسامة في عينيه:

– أقترح بأن نعلن هدنة بيننا يا آنسة «دينتون». فأنت تملكين لسانًا سليطًا إذا ما استثرت. وعبر بسيارته تحت قوس حجري ضخم بمرونة خلقتها العادة، في اتجاه الساحة المبلطة وبدا هادئًا، بينما أحست هي بأعصابها مشدودة كالوتر. تنفست «سارة» الصعداء. لعلها تستطيع الآن أن تتجنب «فريزر» حتى يتسنى لها جمع أفكارها المبعثرة. وتذكرت ما قاله لها في أثناء حديثهما عن شعوره بالندم لأنه لم يقابلها ويخترها بنفسه. إنها هي أيضًا نذرت واعدة نفسها بأنها لن تقبل في المستقبل مطلقًا أية وظيفة قبل أن تقابل شخصيًا رئيسها الموعود، هذا على الرغم من أن القليل من الرؤساء يمكن أن يكونوا على شاكلة «هيو فريزر». وقفز عرق صغير في أسفل عنقها لاحظته عينا «فريزر» قبل أن يوقف السيارة قائلاً:

– إذا كنت في حالة تسمح لك – وقد لمس ترددها وعصبيتها – فلعلك تحبين أن تقابلي «بيدي». من المحتمل أن تلقي لديك قبولا أكبرمما لقيته أنا.

– بالطبع.

وابتسمت محاولة أن تعكس تماسكًا لم تشعر به، محاولة، دون نجاح، أن تجابه سخريته اللاذعة بسخرية مماثلة. ولاحظت حاجبه الأيمن بحركته المعهودة يرتفع، فاشتعلت وجنتاها خجلاً، إذ شعرت بوطأة انتصاره النهائي، وهما يجتازان الساحة المبلطة متجهين إلى الداخل.

www.rewity.com مـــ ر مـــ وريات

- 2 -

تبعت «سارة» «هيو فريزر»بخطوات سريعة إلى مدخل القلعة، وقد صممت في نفسها ألا تتيح له فرصة إزعاجها أكثر مما فعل. وسارت وراءه عبر ممر أرضي طويل ذي سقف معقود، وخلال باب قادهما إلى قلعة كبيرة مربعة مبلطة كسيت أرضها بالسجاجيد، وزينت جدرانها بعدد من اللوحات الجدارية المنسوجة التي كانت تعلو مجموعة من الصناديق الخشبية المحفورة.وتربعت على أحد هذه الصناديق باقة من زهور التوليب الصفراء الطويلة التي راحت تتألق في النور الخافت المتسرب من النوافذ الضيقة. وفي إحدى نهايتي البهو رأت «سارة» درجًا لولبيًا صاعدًا احتضنته سماكة الجدران. وكانت تغطيه سجادة حمراء سميكة. تمتم «هيو فريزر» بكياسة من ورائها قائلا:

– أهلاً بك في «لوخ غويل».واستدارت لتنظر إليه دون أن تتكلم . فقال مبتسمًاوقد لاحظ الدهشة المرتسمة على وجهها:

– ستعتادين القلعة بسرعة. إنها تبدو كبيرة، ولكنك عندما تتعلمين كيف تجدين طريقك خلالها ستنسين ضخامة حجمها. وستجدين أننا هنا في الحقيقة نتمتع بقسط كبير من الراحة. أجابت بسرعة:

– طبعًا. قالت ذلك بينما أمسك ذراعها وقادها بحزم عبر القاعة المبلطة إلى الدرج الحجرى الصاعد إلى الطابق الأول، والذي انتهى بهما إلى قاعة أخرى. وشعرت «سارة» بتحسن في الحال. إذ إن النوافذ الطويلة الثلاث التي أطلت من كوّاتها المقوسة العميقة في الجدران كانت تتيح لكمية كافية من النور بالنفاذ خلالها مما محا الشعور بالكآبة الذي خلفته القاعة الأرضية في نفس «سارة». وتناهت إليها رائحة قطع الخشب العطرة التي كانت تحترق في مدفأة كبيرة واسعة زينت أعمدتها الجانبية بالنقوش المحفورة. وأحاطت بالقاعة مجموعة من الأبواب المصنوعة من خشب السنديان المحفور والتي تقود دون شك إلى الغرف الداخلية. وفي نهاية القاعة شاهدت «سارة» درجًا لولبيًا مماثلاً للدرج الذي صعدته منذ قليل قال لها:

– إننا نعيش في هذا الطابق والطابق الذي يعلوه. وأرخى قبضته على ذراعها

المشدودة رافعًا حاجبيه بحركته المعهودة. ولكن قبل أن تجد «سارة» فرصة للإجابة فتح أحد الأبواب الذي كان واضحًا أنه يقود إلى المطبخ، وهرعت منه امرأة صغيرة الحجم مهندمة الثياب، فقال لها بلهجة سجلت فيها «سارة» شعورًا بالخلاص:

– آه، هاهي «بيدي»! واستدارت لتواجه «بيدي» التي بدت صغيرة الحجم بالتأكيد. ولكن هالة من الوقار والرصانة النابعتين منها جعلتاها تبدو أطول مما هي عليه. وبدت كمن تعودت إعطاء الأوامر وتوقع الطاعة. إلا أن وجهها كان يشع طيبة واضحة، مما جعل «سارة»تميل إليها في الحال. ومدت «سارة» يدها إلى «بيدي»التي استجابت بحركة مماثلة بينما قام «هيو فريزر»بمهمة التعريف. قالت بأدب وعيناها تستقران على وجه «سارة» المحمر:

– أتمنى أن تعجبك القلعة، يا آنسة. سأدق الجرس لأطلب من «كاتي» أن ترشدك إلى غرفتك. فأنا أتوقع أن تكوني متعبة بعد رحلتك.وامتدت يدها إلى الجرس دون أن تنتظر جواب «سارة» أجابت «سارة» بهدوء:

– أنا لست على عجل. وقد اعتراها شعور غريب بأن تحاول إثبات وجودها. فقد أحست دون تفسير منطقي بأن كلا من «هيو» و «بيدي» قد سعيا إلى فرض إرادتهما عليها. وقابلتها عينا «هيو» اللامعتان وقال:

– يمكنك أن تتحدثي إلى «بيدي» فيما بعد، وتطلبي منها أن تريك المكان. أما الآن فأظن أنه من الحكمة أن تفعلي ما أقترحته عليك، فأنت بلاشك قد جابهت يومًا طويلاً. وأحست «سارة» بأنه اختار أن يسيء فهم مشاعرها عن قصد. قالت «بيدي» هازة رأسها الفضي الرمادي بالموافقة، مبتسمة برضا:

– إن السيد «هيو» على حق. ستشعرين بالتحسن غدًا بعد قضاء ليلة مريحة، وستجدين الكثير مما يشغلك. سأحاول أن أمد يد المساعدة بالتأكيد. وحادت «سارة» بنظراتها عن «هيو» بسرعة مخاطبة «بيدي»:

– هل هنالك ما يمكن أن أفعله الآن؟ وتلاشت كلماتها تحت وطأة التردد ولم تحاول أن تنظر إلى «هيو»، إذ تخيلت التعبير الساخر المرتسم على وجهه. وهب في نفسها شعور مزعج بالثورة بينما راحت يدها تمسح جبينها بتعب. لاشك في أن «بيدي» تنفذ كلماته بحذافيرها، ولكنه لا يجب أن يتوقع منها أن تفعل الشيء نفسه.

www.rewity.com

وأومأت «بيدي» برأسها بالموافقة ثانية، غير شاعرة بالتيارات الخفية السارية في الجو حولها. وقالت بلطف:

– ستحضر «كاتي» في الحال، يا آنسة «دينتون»، أحيانًا يخيل إليّ أنها قد أضاعت طريقها. أحست «سارة» بأنه من العبث أن تتابع الحديث، فابتسمت وراحت تنتظر قدوم «كاتي» بصمت. وعادت إلى التحديق إلى ما حولها باهتمام متجدد، بينما أخذت «بيدي» تناقش «فريزر»بشأن رجل جاء لزيارته في أثناء غيابه. لم يسبق لـ «سارة» أن عاشت في مثل هذا المكان العتيق من قبل. وتساءلت بشيء من التخوف عما إذا كانت ستألفه وتحبه. لاشك في أن عمر هذه القلعة هو المئات من السنين، من المحتمل أنها بنيت في القرن السابع عشر، ولابد من أن الأشباح تسكن ممراتها الدامسة. وبدا لها أن شخصًا ما في وقت ما قد قام بتجديد القلعة من الداخل، بحيث استطاع أن يجمع في أسلوب بنائها بين القديم والحديث. ففي هذا البهو الواسع الذي يعبر عن ذوق رفيع يستطيع المرء أن يجد كل مظاهر الراحة. وفكرت – وهي تصعد إلى غرفتها، بعد أن جاءت «كاتي» لتقودها إليها – في أن كل شئ داخل القلعة قد صمم بحيث يتيح لأصحابها فرصة العيش المتكامل. وجدت «سارة» أن غرفة النوم التي خصصت لها كانت داخل أحد أبراج القلعة المستديرة. ولم يكن فرشها حديثًا ولكنه كان جذابًا غير عادي. وغاصت قدماها في السجادة الوردية السميكة والتي كان يماثلها لونًا غطاء السرير المزركش وغطاء الكنبة المجاورة للسرير. وعلى طاولة صغيرة قرب الكنبة رأت مجموعة من الكتب والمجلات، بينما راحت مدفأة كهربائية تشع دفئًا مريحًا حولها. وذكرتها الغرفة، على الرغم من الاختلاف، بغرفة الضيوف في منزل والديها – أشارت «كاتي» إلى الطاولة الصغيرة، وكانت – مثل «بيدي» – قد تفحصت «سارة» ورمقتها بنظرات الاستحسان. قالت وهي تبتسم لـ «سارة» بمرح:

– قد تحبين أن تجلسي هنا في بعض الأحيان. ولهذا فقد تركت لك بعض المجلات.

وشكرتها «سارة» بسرعة معبرة عن امتنانها وهي تبتلع غصة من الحنين الفجائي. وخمنت بأن «كاتي»هي الخادمة. وأحست بميل إليها وهي ترمق وجهها المستدير المرح وعينيها الذكيتين اللامعتين، وابتسامتها الودية المبتهجة. واختفت «كاتي»

ليضع دقائق،ولكنها سرعان ما عادت تحمل صينية عليها إبريق من الشاي الحار وبعض شرائح الخبز بالزبد الساخن وقالت لها:

– هذه الصينية من «بيدي». وتابعت لاهثة:

– وقد أخبرتني بأن أذكر لك أن موعد العشاء هو السابعة.بعد أن أخذت «سارة» حمّامًا واستراحت قليلاً ارتدت ثوبًا ناعمًا وهبطت الدرج إلى الأسفل. ثم تناولت عشاءها في غرفة طعام صغيرة قرب قاعة الاستقبال. ولما وجدت نفسها وحدها في هذه الغرفة الفاخرة، إذ إنها لم تستطع أن ترى «هيو» في أي مكان حولها، تمنت، متأخرة، لو أنها طلبت تناول العشاء على صينية في غرفتها. بعد مضي بعض الوقت جاءت «بيدي» لتتأكد أن «كاتي» قد جلبت كل شئ تحتاج إليه «سارة»، وتلكأت حتى انتهت الضيفة من تناول قهوتها في قاعة الجلوس. قالت لـ «سارة» التي لم تشأ أن تسأل «كاتي» عن سبب تغيبه:

– إن السيد «هيو» قد ذهب لتناول العشاء مع بعض الأصدقاء. إنه يقضي في العادة وقتًا كبيرًا خارج المنزل. لا يوجد حاليًا من يوفر له الصحبة الكافية، ولكن الظروف ستتغير طبعًا عندما تصل الآنسة «جيل». آمل ألا يكون خروجه قد أزعجك ياآنسة.

– لا. لم تشعر «سارة» بأي إزعاج بل أحست بارتياح لم تستطع له تفسيرًا عندما وجدت نفسها بمفردها. ثم إنه ليس لها أن تعترض على الكيفية التي يقضي فيها رئيسها أوقاته. ولكن يبدو أن «بيدي» لا تدرك هذا، فهي على الأغلب لم تضطر إلى التعامل مع سكرتيرة من قبل. قالت «سارة»:

– أتوقع أن أتعود العيش هنا في وقت قصير، ثم أظن أنك عشت هنا مدة طويلة قالت «بيدي» بحدة:

– يبدو أن بعضنا لن يستمر في العيش هنا في المستقبل بعد أن آلت ملكية القلعة إلى السيد «هيو». بدا وكأن الكلمات قد أفلتت منها لا إراديًا بعد محاولة كتمان طويلة. وطبعًا، سارعت «بيدي» لإتمام الحديث:

– نحن نقدر بأنه قد يجبر على بيع «لوخ غويل»، أو يضطر إلى استخدام من هم أصغر سنًا. بعض مستخدميه يتقدمون في العمر، وواحد أو أثنان منهم – مثلي–

www.rewity.com

يعانيان الروماتيزم. وتنهدت وهي تضغط بيديها على وركيها النحيلتين، دون أن تنتبه، وكأنها تريد أن تعطي كلماتها مزيدًا من التأكيد. وضعت «سارة» قهوتها جانبًا، وحدقت إلى وجه «بيدي». لقد أملت أن تستطيع الابتعاد بالحديث عن «هيو فريزر»، ولكنها وجدت نفسها تعود إلى الموضوع كالكرة.

– من المؤكد أنه لن يحاول أن يحرم هؤلاء المستخدمين المسنين من بيوتهم، حتى ولو كان عمه هو المسؤول عن عدم تأمين مستقبلهم قبل وفاته. وراحت «سارة» تنظر إلى عظام «بيدي» الهشة وقد ضاعت الكلمات على شفتيها. وأخيرًا قالت، باذلة محاولة متخبِّطة لبعث الاطمئنان في نفس «بيدي»:

– لاشك في أن السيد «فريزر» يضطر إلى السفر مرارًا. ولهذا أظن يكون من الأفضل أن تبقي أنت هنا لتعتني بالبيت في أثناء غيابه؟أجابت «بيدي» رافضة أية مواساة:

– قد يتزوج تاركًا لزوجته مثل هذه المهمة، إن النساء يجدنه شديد الجاذبية. وهناك آنسة معينة تميل إليه جدًا – هضمت «سارة» هذه المعلومات بصمت دون أن تستطيع تفسيرًا للرجفة البسيطة التي أصابتها – قد تستطيع الآنسة «جيل» أن تساعد. ولكن «بيدي» بدت وكأنها ندمت على ملاحظتها المندفعة، إذ إنها التفتت بسرعة وغادرت القاعة حاملة معها فنجان القهوة الفارغ وهي تتمتم:

– أنا لا أرغب في إزعاج الآنسة «جيل» أنا واثقة بأن السيد «هيو» سيجد حلاً لكل مصاعبنا فيما لو أتيح له الوقت الكافي.

قالت هذا واختفت عبر الباب الأخضر الذي يقود إلى المطبخ، هاتفة لـ «سارة» بصوت مرتفع بأنها تستطيع أن تدق الجرس طالبة «كاتي» فيما لو احتاجت إلى أي شئ. لقد نسيت «بيدي»، كما بدا واضحًا، أنها وعدت بأن تريها القلعة. وفكرت وهي تنظر إلى الباب المتأرجح في أن هذا يعني أن عليها الانتظار حتى الغد لكي تتعرف المكان.

دُهشت «سارة» عندما وجدت أنها نامت نومًا عميقًا تلك الليلة في القلعة. وعندما استيقظت لم تستطع أن تفهم أين كانت للوهلة الأولى. ثم صدمتها المعرفة مع عودة وعيها. إنها في قلعة «لوخ غويل» بجدرانها السميكة المتجهمة، ولكن سريرها كان مريحًا. غمرتها أشعة الشمس المتسربة من النافذة الوارية، فرمت أغطيتها بعيدًا

وقفزت جارية إلى النافذة لتنظر من خلالها. كان المنظر رائعًا من برجها المستدير. وبدا البحر بلا نهاية من الزرقة المتألقة. وعندما نظرت إلى الأسفل رأت مجموعة من الخلجان والرؤوس الصغيرة بمحاذاة الشاطئ الذي أحست به يناديها. وغسلت وجهها بالماء البارد بسرعة وارتدت ثيابها على عجلة مختارة بنطلونها الجينز القديم وقميصًا مناسبًا ضيقًا. وكان «هيو فريزر» قد أرسل إليها رسالة مع «كاتي» في الأمسية الفائتة ليخبرها بأنه سيكون في انتظارها في غرفة المكتبة بعد الإفطار. ولما كان الوقت مبكرًا، حوالى السابعة فقط كما أكدت لها ساعتها، فقد قررت «سارة» أن تذهب للاستكشاف.

عندما وصلت «سارة» إلى الردهة، ارتدت صندلها الخفيف وقفزت هابطة الدرج اللولبي. لم تجد أي مخلوق في طريقها، وكان الصمت مخيمًا على القلعة الضخمة، مما جعلها تحس بأنه لو وقع دبوس على الأرض لسمعته. وحادت عن مدخل القلعة المهيب، متجهة نحو مؤخرة القاعة. ولم تجد صعوبة في العثور على الممر الطويل الذي سارت عبره البارحة مع «هيو فريزر» والذي قادها في النهاية إلى ساحة القلعة.

في الساحة أيضًا كان الصمت مخيفًا مما جعلها تشعر وهي تشق طريقها إلى قلب صباح ربيعي مثالي بأن العالم كله ملكها. ودارت حول القلعة في اتجاه حافة المنحدر ونظرت إلى الصخور الشاهقة والشاطئ تحتها. كانت حركة المدو الجزر قد عرّت جزءًا كبيرًا من الشاطئ، تاركة بركًا صغيرة عميقة خضراء بين عروق الصخور السوداء، ولكن الرمال لم تكن بالكثافة التي قدرتها عندما نظرت إلى الشاطئ من النافذة. وقررت وهي تحدّق عبر المياه الساطعة إلى منحدرات جبل «بن مور» الهابطة بلطف نحو الأرض المنبسطة على طول الشاطئ المقابل، بأن هذا المكان هو المكان المعروف بـ«لوخ ناكيل»، ولم يخطر ببالها وهي تطل على الشاطئ من فوق، بأن المنحدر الذي وقفت فوقه قد يكون شديد الميل. وظنت أنه لابد أن يكون هنالك طريق ينتهي بها إلى هذا الشاطئ المغري، الذي يمتد تحتها. وقعت «سارة» في إسار المنظر الجميل المحيط بها. ووجدت نفسها تستمر سائرة حتى وصلت إلى فوهة شق ضيق ينحدر بين الصخور، بدا لها وكأنه بقايا مسلك قديم يقود إلى الشاطئ، على الرغم

www.rewity.com

من أن الأعشاب قد كادت تكسوه بالخضرة مما يدل على أنه لم يستعمل لسنوات عديدة. ودون تفكير شقت «سارة» طريقها بتصميم خلال الأعشاب النامية مزيحة الأغصان البرية الميتة، محاولة أن تثبت قدميها على الأرض الزلقة التي بللتها الأمطار. وفجأة، ربما لشعورها بأن الوقت كان يمر، أحست بأنه من الضروري أن تصل إلى الشاطئ. واشتبك شعرها ببعض الأشواك التي انتزعت الشريط الذي ربطت به شعرها مما جعله يتناثر فوق وجهها حاجبًا عنها الطريق.

وانزلقت قدماها على الدرب فتزحلقت مسافة عدة أمتار، لكنها عندما نهضت وجدت نفسها، لاستيائها البالغ، واقفة على إفريز صخري لا منفذ له. ففوقها امتد الدرب عموديًا إلى الأعلى بينما انحدرت الصخور ملساء تحتها، هابطة عدة أمتار نحو الأسفل.

وبحركة مرتجفة من يدها أزاحت «سارة» شعرها المتمرد عن وجهها وقد عراها الاضطراب. إن خطتها لم تقدها إلى النتيجة التي نشدتها. فهي لن تستطيع الصعود سالكة الدرب نفسه الذي قادها إلى هنا، كما أنه ليس بالإمكان أن تستطيع الوصول إلى الشاطئ فوق الصخور الملساء المنحدرة دون أن تكسر قدمًا أو رجلاً. وفي مخيلتها رأت نفسها تعود إلى بيتها في «لندن» في سيارة إسعاف مما جعلها تبتلع ريقها بتشنج والرجفة تسري في أوصالها، ثم إنه لو تناهت إلى «هيو فريزر» قصة ما أقدمت عليه هذا الصباح لما قبل منها عذرًا. كان من المحتم أن يعتري «سارة» الفزع. فلقد كان الجرف الصخري الذي وجدت نفسها فوقه ضيقًا وغير مريح. ولم تجد فيه ملجأ يحميها من الرياح الباردة الهابة من البحر. ونفذ البرد خلال قميصها الرقيق إلى جلدها العاري فجثت خلف الصخور منطوية على نفسها محاولة أن تحتفظ بدفء جسدها. ورأت بعض الطيور البحرية التي تشبه البط قرب حافة المياه تحتها وبعض طيور (الفيلموت) تغوص بينها. ولكنها لم تجد أثرًا لأي إنسان. وجربت أن تنادي ولكن لم يسمع نداءها أحد. وأدركت «سارة» بأنه حتى لو وُجد شخص في مكان قريب فإنه من المستحيل أن يسمعها فوق زئير الأمواج.

تنفست «سارة» ثلاث مرات بعمق متذكرة نصيحة والديها لمعالجة الخوف. وحاولت أن تغير من جلستها غير المريحة ... همست «سارة» لنفسها بندم: «لابد أن يأتي

أحد». إنه من المضحك أن تشعر بمثل هذا الفزع، ولكن كل ما استطاعت أن تراه في ذهنها، كان وجه «هيو فريزر» الساخر. ماذا سيقول لو أنه سمع بمغامرتها هذه؟ وراحت تتخيل تعليقاته اللاذعة. ولكنها، يا للفزع! لم تضطر إلى الانتظار طويلاً، إذ تناهى إليها وقع حوافر حصان فوق الرمال قبل أن تلمح «هيو فريزر» نفسه قادمًا في اتجاهها. وقفزت على قدميها بجنون مما جعلها تكاد تفقد توازنها، وصرخت محاولة أن تجذب انتباهه. شد «هيو فريزر» لجام حصانه الكستنائي بحدة مديرًا رأسه. ثم رآها تلوح من فوق صخور فوقه. ورماها بنظرة طويلة ثاقبة سرعان ما تلاشت قبل أن يشد عنان الحصان ويعدو به إلى البقعة تحتها. صرخ قائلاً بجفاء:

– ماذا تفعلين هناك بحق السماء؟ لقد ظننت أنني استأجرت سكرتيرة لا بهلوانة.

وبدا في عينيه الاشمئزاز واضحًا. صاحت «سارة» مجيبة بغضب:

– آسفة! إنني لم أفعل أكثر من اتّباع الدرب. فصاح بها:

– ألم تري لافتة، أو تخمني مدى ارتفاع هذه الصخور؟ إن أحدًا لم يستعمل هذا الدرب منذ عدة سنين. والأعمى يستطيع إن يلاحظ هذا.

– أنا لم أدرك... وبذلت «سارة» جهدًا واضحًا لكي تمنع سيلاً من الكلمات المندفعة، وهذبت ألفاظها حتى بدت وكأنها مجرد التماس للمساعدة على كره. وراحت عيناها ترمقانه بغضب مكتوم بينما علا صوتها تطلب المساعدة بأدب قال لها:

– لو استطعت أن تستديري وتتعلقي بالحافة المتدلية بجسدك، فسيكون بوسعي أن أدركك. ولم تفت «سارة» لهجته الجافة، ولكنها وجدت أن من العبث المجادلة. وقررت أن محاولة التخلص من هذه الورطة بأسرع وقت ممكن هي الطريقة الوحيدة للتقليل والتخفيف من ملابساتها. فأخذت نفسًا عميقًا ثم فعلت ما طلبه منها مغمضة العينين. وشعرت بدقات قلبها تتسارع عندما راحت قدماها تتأرجحان في الفضاء، ولكن في اللحظة التي بدأت فيها أناملها تنزلق من على حافة الصخرة شعرت بقبضتيه الفولاذيتين تمسكان بها وتحطان بها على ظهر الحصان أمامه.

– أرجوك، دعني أهبط إلى الأرض يا سيد «فريزر». وأحست بأنفاسها تختنق في

www.rewity.com

حنجرتها بينما راحت أناملها المرتجفة تحاول أن تنفذ بلا وعي خلال خصلات شعرها المتشابكة. ولكن «فريزر» لم يكبح حصانه إلا بعد مرور عدة دقائق. وبدلاً من أن يطلق سراحها، شدد قبضته عليها وهو يشير بعيدا إلى بقعة بدا فيها مستوى البحر ومستوى الصخور أكثر تقاربًا وأسهل على التسلق. قال بصوت جاف:

– لو أنك تابعت المسير، لكان بوسعك أن تهبطي إلى الشاطئ بسهولة. وما كنت إنتهيت إلى ما إنتهيت إليه. أدارت «سارة» رأسها بحيث لم يعد ظاهرًا من وجهها إلا جانبه الذي راح يختلج بالتوسل. قالت:

– كيف كان من الممكن أن أتكهن؟ لقد وصلت البارحة فقط. وأحست بتفاهة ملاحظتها حتى قبل أن يسارع «فريزر» للإجابة بحدة:

– كان هذا أدعى إلى أن تطلبي النصيحة.كانت كلمات «فريزر» منطقية، ولكنها في حالتها الراهنة ما كانت قادرة على التفكير السليم وشعرت بقربه الشديد منها، حتى أنها أحست بضربات قلبه تنعكس على كتفها، وحاولت أن تبتعد عنه قليلاً، ولكنه لم يبدُ كمن يريد التخلص منها بسرعة. واستأنف «فريزر» محاضرته رافضًا أن يتيح لها فرصة الفكاك منه بسهولة وقال:

– يجب أن تحاولي التذكر في المستقبل بأن بعض نواحي هذ الشاطئ قد تكون كثيرة المخاطر. فالصخور تعلو جدًا في بعض الأماكن، وبعضها مقلقل غير ثابت. عندما جئت إلى هذا المكان من الشاطئ للمرة الأولى، وأنا ما أزال صبيًا، كان الدرب الذي عثرت أنت عليه ينحدر حتى مستوى الشاطئ. ولكن جدار الصخر الذي يعلوه سقط معظمه فوقه في السنوات التالية مما يجعل من تدفعهم الحماقة إلى استعمال الدرب يجدون أنفسهم قد وقعوا في فخ لامخرج منه.

– إذن، أنا لست الأولى؟

– ولست الأخيرة على ما أعتقد. الناس لا يكفون عن إثارة دهشتي. وانعقد حاجباه وهو يتابع:

– إن ساحل الجزيرة يجب ألا يقارن بشواطئ المصايف الإنجليزية. انتفضت «سارة» غضبًا. هل قرر أن يسلك سلوكًا مهينًا؟ لاشك في أنه من الذين يؤمنون بالتعبير عن آرائهم. طبعًا إنه على حق في أن يشعر بالغضب، فهي قد تصرفت في منتهى

الحماقة وتسببت في تضييع وقته الثمين. ولكن بما أنه لم يحاول أن يسألها عن مشاعرها فهو لن يستطيع أن يتهمها بتبذير عطفه. واعتراها شعور حاد بالشفقة على النفس وهي ترتكز بنظراتها على عرف الفرس البني الأحمر، وعيناها الزرقاوان تفيضان بالثورة.

– آمل ألا يكون التعرض للبرد قد سبب لك بعض المعاناة. وتصلب جسمها، إذ شعرت بعينيه تتفحصان بتعمد مظهرها الأشعث، ولما تأكد له أنها كانت نسبيًا في حالة جيدة سارع إلى متابعة كلامه دون أن يتيح لها الفرصة للاعتراض:

– هل تدركين أن عليك أن تبدئي العمل في أقل من ساعتين؟ أجابت مدافعة عن نفسها بصوت مختنق.

– لن أستطيع إذا لم تسمح لي بالنزول. ولكنه كالسابق لم يعرها انتباهًا، بل أخذ يحث حصانه الضخم على التسلق نحو قمة المنحدر الهابط إلى الشاطئ. عندما وصلا إلى قمة الصخور، وجدت «سارة» أن القلعة كانت أبعد مما توقعت. وأحست بنفاد صبره وهو يشير إلى القلعة قائلاً بجفاء :

– تستطعين أن تجدي طريقك الآن. وعندما يحلو لك الهبوط إلى الشاطئ في المستقبل حاولي أن تنتبهي لحركة البحر. فقد يفاجئك المد قاطعًا عليك طريق الرجعة. ومن المحتمل ألا تجديني بقربك؛ لكي تطلبي مني إنقاذك ثانية. وفجأة هبت الريح عابثة بشعرها الذي تطاير فوق وجهه فمد يده ليزيحه مما جعل أصابعه تلامس مؤخرة عنقها العاري.

– لن يكون هذا ضروريًا بالتأكيد. لعله من الأفضل ألا أغادر منطقة القلعة مطلقًا. ولأول مرة في حياتها وجدت نفسها تندفع إلى الكلام دون هدى.

وأنذرها بصيص من الحكمة في أعماقها بأنها قد تجاوزت حدود الأدب مع شخص هو رئيسها. ولكن «هيو فريزر» اختار أن يتجاهل انفجارها. ولم يفعل أكثر من أن يخزها بذراعه وهو يشد لجام الحصان مما جعلها غير قادرة على التأكد ما إذا كانت هذه الوخزة متعمدة أم لا. سألها بصوت مصقول وهو يساعدها على النزول:

– ما هي نوعية الناس الذين عملت في خدمتهم سابقًا؟ أجابت «سارة» باقتضاب، مستعيدة توازنها، ومادة قامتها باحتراس:

www.rewity.com

– والداي.

إن ذكرى والديها ما تزال تثير الألم في نفسها. ولو أن «جيمس» لم يشرح لـ «فريزر» حادث الطائرة لما كان هناك ما يدعو إلى الظن أنه فعل، فإنها شخصيًا لا تنوي أن تذكر له شيئًا. واكفهرت عيناها، إذ تناهت إليها ملاحظته الجافة بقوله:

– يا ترى، هل تصرفا بحكمة عندما أفلتا زمامك؟ حدقت «سارة» إلى عينيه مجابهة نظراته الساخرة، ووشت لها جلسته الواثقة بسيطرته التامة على الحصان الكستنائي الضخم. هل يتوقع أنه يستطيع السيطرة على النساء بالطريقة نفسها.؟ورفضت أن تجيب عن سؤاله الأخير. وحولت نظراتها عنه وهي تتنهد في صمت. ثم قالت لاشعوريًا بصوت يفعمه التوسل:

– إنني لا أملك أن أسألك أن تمنحني فرصة أخرى. ليس من العدل أن تطلب مني المغادرة بسبب هذه الحادثة فقط.

– ليست بداية عظيمة كما يجب أن تعترفي. سنرى كيف تسير الأمور. إن فرص العثور على شخص آخر في هذا الوقت المتأخر صعبة. وبالإضافة، أنا أريد الاعتماد عليك في رعاية أختي. وفجأة عرت الحدة نظراته وتابع:

– أما الآن فأنا أشير عليك بأن تسرعي لتناول بعض الفطور. وإلا فإنك لن تصلحي لأي شيء هذا الصباح. وارتفعت كتفاه تحت قميصه السميك بحركة آمرة بالانصراف. فجرت دون أن تلوي على شيء، ولم تتوقف حتى وصلت إلى غرفتها. في غرفة الطعام حيث وضع طعام الفطور على المائدة لم تتناول «سارة» سوى فنجان من القهوة وقطعة خبز. ثم سألت «كاتي» عن الطريق إلى قاعة المكتبة فقالت لها:

– سيري في هذا الممر يا آنسة. المكتبة هي الغرفة الأخيرة عن يمينك. وظهرت الخيبة على وجه «كاتي» عندما رفضت «سارة» أن تأكل المزيد.

إن الآنسة «جيل» عندما تأتي إلى هنا من عادتها أن تتناول فطورًا كبيرًا. وهي تقول بأن الهواء هنا يفتح شهيتها. أسرعت «سارة» عبر الممر وطرقت باب المكتبة باحتراس. وكما خشيت، وجدته في انتظارها. ولم تفتها نظراته الفاحصة وهي تعبر الحجرة. هل كان يتوقع أن يراها بالبنطلون الجينز؟ وسرها أن شعرها كان مرتبًا وأنها لم تستعمل إلا قدرًا طفيفًا من الماكياج. طرق «فريزر» لب الموضوع دون

مقدمات، ودون أن يذكر مقابلتهما على الشاطئ. وقال وهو يشير إلى مكتب صغير قرب النافذة:

– لقد طلبت وضعه هناك خصوصًا من أجلك. لا يوجد مكان كاف هنا. ونظر إلى المكتب الكبير الذي كان يجلس وراءه نظرة مفعمة بالعبوس. وتبعت «سارة» اتجاه نظراته بدهشة: أكوام من المراسلات متناثرة هنا وهناك، وحتى الأدراج بدت مكتظة. حسنًا لقد أنذرها! وعبرت الحجرة إلى مكتبها وهو ينتظرها بسلبية. ثم جلست. قال وهو يراقبها تزيح غطاء الآلة الكاتبة الجديدة:

– لقد اشتريت هذه من «لندن» قبل عدة أيام. إن عمي، كما هو واضح، ما كان يحبذ استعمال هذه الأشياء. ولكنني لا أعتقد أننا نستطيع التدبير دون واحدة. والتقط بعض الأوراق بينما ابتسمت «سارة» بأدب وراحت تتفحص الآلة باهتمام.

– في البداية أريد أن أملي عليك بعض الرسائل التي يمكنك أن تطبعيها عندما أخرج لتناول الغداء. تناولت «سارة» دفترها متأهبة ولكن لتجد أنه قد عاد فوضع الأوراق على المكتب وراح يفكر:

– لعله مما يسهل الأمور أن تفهمي، يا آنسة «دينتون»، أنني لا أملك وقتًا كبيرًا للعمل هنا. ومن المحتمل أن أتركك وحدك مرارًا لكي تصرفي الأمور بمفردك – كما أتوقع أن يكون «جيمس كار» قد أخبرك.

– لقد ذكر لي إنك إنسان مشغول.

– هذا تبسيط للحقيقة. وأخرج قداحته وأشعل سيجارة دافعًا كرسيه إلى الوراء. وعب نفسًا عميقًا وهو يحدق إليها من خلال الدخان. ثم تابع قائلاً:

– قد تمر بك أوقات في المستقبل تحسين خلالها بوطأة العمل الشديد، ولكن عندما أذهب إلى «لندن» يمكنك أن تنسي كل هذا وتلعبي مع «جيل»، لقد اكتشفنا الجزيرة معًا. «جيل» تعرفها جيدًا وسيسعدها أن تريك معالمها.

– أتوقع أن نجد ما نفعله.

– في الوقت الحاضر ستكون ساعات عملك غير منتظمة. أحيانًا أُضطر إلى العمل في المساء بعد تناول العشاء. آمل ألا يزعجك هذا.أحست «سارة» بأنها لا تستسيغ أسلوبه في إصدار الأوامر المغلفة بصيغة سؤال، ليس بوسعها الاعتراض عليه. لكن إذا

ما توخى المرء العدالة، تعترف «سارة» أنه لابد أن يكون مشغولاً جدًا بكل مشاريعه ومهامه المختلفة. لعل الوقت مناسب الآن لأن يحدث شيئ ما في صالح «بيدي» و«كاتي». ولكن كيف تستطيع أن تسأله عن مستقبلهما في أول يوم وتعمل فيه هنا؟ قد يفسر تدخلها بالوقاحة المطلقة، هذا إذا لم يجد تفسيرًا أسوأ. وعلى الرغم من شكوكها وجدت نفسها تسأل لاإراديًا:

– هل تنوي الإشراف على مزرعة «لوخ غويل» بنفسك؟ فقال:

– قد أفعل في النهاية. والتمعت عيناه قليلاً وكأنه قد خمن بعض ما كانت تفكر فيه، فقال:

– إلا أنني ما كنت أتوقع أن أضطر إلى تغيير مهنتي في هذه الفترة من عمري، فأنا مهندس كفء. لاشك في هذا! وشعرت بأعصابها تتوتر. إنه من النوع الذي لا يمكن أن يرضيه إلا منتهى الكفاءة في نفسه وفي الآخرين. ورن جرس الهاتف ممزقًا الصمت الذي ساد للحظة، وشعرت بنظراته لا تحيد عنها وهو يتناول سماعة الهاتف.

في أثناء المكالمة شردت نظرات «سارة» تاركة وجهه المتبرم لتحط على رفوف المكتب المحيطة بالحجرة، ثم لتستقر على قطعة الخشب الكبيرة التي راحت تحترق في المدفأة الحجرية الضخمة. ولاحظت «سارة» أن أرض القاعة المصنوعة من خشب السنديان كانت مكسوة بسجادة جميلة باهتة الألوان . وأحاطت بالمدفأة من جانبيها كنبتان جلديتان، وتخيلت «سارة» الراحة والدفء اللذين لابد أن يشعر بهما المرء في هذه الغرفة في فصل الشتاء، والستائر الثقيلة مسدلة لتخفف صقيع الرياح الأطلسية العنيفة.

لاشك في أن «لوخ غويل» تنطوي على كثير من الإغراءات التي من شأنها أن تجذب أي رجل. ما هو القرار الذي سيتخذه «هيو» بشأن هذا المكان يا ترى؟ وعادت «سارة» بنظراتها إلى وجهه الأسمر، وقد أدهشها اهتمامها الذي ما كان كله نابعًا من قلقها على «بيدي» و«كاتي». وأحست بفضولها يكاد يطفو إلى السطح، فوبخت نفسها بصرامة متذكرة أنها يجب ألا تسمح لأفكارها بالطواف حوله، وخصوصًا أن المعرفة بينهما لم تتعدَّ فترة وجيزة. قال واضعًا سماعة الهاتف بغتة قبل أن يعود إلى الأوراق:

– كان المتحدث هو الرجل الذي تعشيْتُ معه البارحة. ثم رفع نظراته عنها وقال عاقد الحاجبين بصوت حاد:

– يريد أن يراني بعد الغداء اليوم من أجل البحث في أمر طارئ. ولهذا فإنه من الأفضل أن نتابع العمل الآن متناسين كل ما عداه. شعرت «سارة» في الأيام التي تلت وكأنها قد لصقت بكرسيها في المكتب، وأن حياتها كلها كانت تدور حول الآلة الكاتبة. ولما لم تفلت من «هيو فريزر» بادرة تعبر عن رضاه بجهدها أو عدمه فقد واست نفسها بأنه، على الأقل، لم يلجأ إلى الشكوى. وكان يملي عليها مراسلاته في الصباح ثم يتركها بعد أن يصدر سيلاً من الإرشادات. وبعد الغداء كانت «سارة» تقوم بالترتيب والتنسيق حتى إذا ما حان موعد تناول الشاي يكون معظم العمل قد انتهى، ولم يتبقَّ إلا انتظار توقيعه على الرسائل التي طبعتها. أحيانًا، وهي في طريقها إلى غرفتها في الليل، كانت تجد النور ما يزال يتسرب من تحت باب المكتبة، ولكنه لم يلجأ إلى طلب مساعدتها في مثل هذه الأوقات المتأخرة. أما أمسياتها فكانت «سارة» تقضيها غالبًا في القراءة أو مساعدة «بيدي» التي كانت بين الحين والآخر تشكو من آلام الروماتيزم المبرحة. ووجدت «سارة» في الاستماع إلى «بيدي»، التي كانت تملك ذخيرة حية من القصص حول طفولتها والجزيرة، مكافأة على كل المساعدات التي كانت تقدمها لها. قالت «بيدي» بحدة وقد انتهت لتوها من سرد حكاية طويلة لاحظت خلالها اصفرار وجه «سارة» بشيء من القلق:

– يجب أن تحاولي الخروج أكثر. إن الأمسيات لطيفة في هذا الفصل. اذهبي للمشي أحيانًا بدلاً من أن تجلسي برفقة عجوز مثلي يا آنسة «سارة». إلا أن «سارة» لم تحاول أن تعود إلى البحر بعد مغامرتها الأخيرة. ولو سئلت عن السبب لما عرفت الجواب. واستعاضت عن البحر بمحاولة اكتشاف القلعة، ودراسة أسلوبها المعماري القديم باهتمام متزايد، على الرغم من جهلها بمثل هذا الموضوع. وأتاح لها تجوالها فرصة التعرف إلى بعض الأفراد الآخرين الذين يعملون في المزرعة. قالت وهي ترمق «بيدي» بنظرة مبتسمة:

– إنني أخرج أحيانًا. ولكن هناك الكثير مما يشغلني هنا.

– أنا أدرك ذلك! وازدادت تقطيبة «بيدي» وضوحًا بدلاً من أن تختفي كما أملت

«سارة»، وتابعت:

– إن السيد «هيو» يؤمن بالعمل الشاق دون شك، ولكن عمه كان يتهرب من الاهتمام بمراسلاته كلما أتيحت له الفرصة، ولهذا خلف وراءه الكثير من الفوضى. وقد عانى محاسبه مصاعب جمة في أثناء حياته، ولم تنفعه الشكوى ولا الوعود الكثيرة بتحسين الأمور. أما السيد «هيو» فهو على نقيض عمه تمامًا. ولاشك في أنه سيستطيع تنظيم الأمور قريبًا.

– إن المستقبل هو الذي يثير قلقي، كما سبق أن ذكرت لك، ففي عمري هذا لا يألف المرء التغيير إلا بصعوبة.

عندما نهضت «سارة» لتصعد إلى غرفتها لم يسعها إلا أن تتساءل عن سبب إصرار «بيدي» على وضع ثقتها فيها. ولم تجد تفسيرًا إلا في احتمال أن تكون «بيدي» تخشى التحدث إلى «هيو» في هذا الشأن شخصيًا مما يجعلها تأمل في أن تستطيع بضع كلمات منها – بوصفها سكرتيرته – أن تجد حلاً لمشاكلها. ولكن «بيدي» يجب أن تدرك أن نفوذ «سارة» لدى «هيو» قد لا يتعدى نفوذ أي شخص آخر يقيم هنا، هذا إذا لم يقل عنه. وشكت في أن يتجاوز شعور «هيو» بوجودها ساعات العمل اليومية في المكتب. بعد مرور عدة أيام طلب «هيو» من «سارة» في الصباح أن ترافقه إلى «توبر مري». وكانت عندما تتحدث من خلال زجاج النافذة بأسى، غير شاعرة بأنه كان يراقبها حتى قال بحيوية:

– سأذهب عصر اليوم إلى «توبرمري». وأود أن تأتي معي. هذا أمر. ولم ترغب «سارة» في المناقشة، خصوصًا أن شمس شهر آذار (مارس) الساطعة كانت تثير الإغراء في النفس. ورقص على وجهها الجميل بريق من الفرح غير المتوقع على الرغم من أن عينيها راحتا تنظران إلى أكوام المراسلات أمامها بشيء من الشعور بالذنب.

تبعت نظراته نظراتها بصبر نافد:

– لقد استطعت أن تنجزي كمية كبيرة من العمل منذ أن التحقت بخدمتي، يا آنسة «دينتون»، ولكنني لا أتوقع منك أن تتابعي دون فرصة للراحة. تمتمت «سارة» بالموافقة فتوجه إلى الباب مبتسمًا بشيء من الحدة وقال:

– سأراك بعد الغداء إذن.

– 3 –

ارتدت «سارة» ثيابها المؤلفة من تنورة صوفية أنيقة وقصيرة، وبلوزة زرقاء تنسجم معها لونًا. ومشطت شعرها الأشقر إلى الوراء وتركته نصف مسدول، سعيدة بالحرية التي جعلها تشعر بها بالمقارنة بالطريقة الرصينة التي اعتادت أن تصفف بها شعرها من أجل العمل مؤخرا ولمست بشرتها الصافية الملساء ببعض البودرة، ووضعت مسحة من أحمر الشفاه الوردي على شفتيها الممتلئتين. ثم هرعت هابطة الدرج.

أخذت «سارة» تراقب الطريق، وبدأ «هيو» الشرح:

– على ساحل «مل» يوجد قبر يدّعي السكان أنه قبر ابنة اللورد «ألين» وقبر حبيبها السيد «ألفا». وتزعم الأسطورة أنهما غرقا معًا وهما يحاولان أن يعبرا «لوخ ناكيل» على ظهر مركب. ومن المحتمل أن يكون الشاعر «توماس كامبل» قد سمع بهذه الحكاية عندما جاء ليعمل هنا مدرسًا عام 1795.

– إنني أذكر القصيدة. وغامت عيناها وهي تنظر خلال النافذة إلى المرتفعات الوعرة، وسرت الرعدة في جسدها. ثم قالت:

– لا يبدو أنّ شيئًا قد تغيّر هنا. وكأن القصة حدثت البارحة.

– إن جزيرة كهذه لتتحدّى الزمن. إذا نظرت إلى ما بعد «ألفا» لأمكنك أن تري مزيدًا من الجزر الصغيرة.

سرحت «سارة» بنظراتها إلى تلك الجزر المسحورة. وبدت لها الجزر البنفسجية الباهتة، الرابضة في غياهب البحر على طول خط الأفق في اتجاه الغرب، وكأنها ترقد على حافة العالم. فغلبها الصمت وهي تتأمل روعة المنظر. إن البقع المماثلة لهذا المكان هي التي تلهم الشعراء وتدفعهم إلى كتابة قصائدهم.

– لقد أحبّ عمي هذه الجزر – جزر «الهيبر يديز»؛ إذ كان رجلاً اسكتلنديًا يفيض قلبه بالحب العميق لمسقط رأسه. ولكنه من المؤسف أنه لم يُقبل على العمل بمثل هذه الحرارة. لم تفت «سارة» لهجته الجافة، وأحست للحظة بنفور شديد منه. قد يبدي اهتمامًا بالماضي مرددًا أساطيره الرومانسية، ولكنه لن يسمح لنفسه مطلقًا بأن يتأثر بها إلى حد كبير. فلا يوجد للأحلام سوى مكان ضئيل في نفسه.

www.rewity.com

سألت «سارة» بتهور وقد ثارت في مخيلتها صورة زعيم «ألفا» المنكود:

– ألم تقع أبدًا تحت رحمة عواطفك؟ فحطت عليها نظراته بخفة وقال:

– أنت لا تتوقعين أن أجيبك عن هذا السؤال يا «سارة».

واعترتها موجة من الاضطراب الحار. إن «سارة» بلاشك أفضل من الآنسة «دينتون» ولكن مخاطبتها باسمها المجرد من شأنه أن يضع علاقتهما على صعيد آخر. واتسعت عيناها وهي تحدّق أمامها مترددة. إن أسلوب حياتها الآمنة نسبيًا حتى الآن لم يزودها بالمرونة الفكرية التي يمكن تكييفها بحيث تؤهلها لمجابهة رجل من هذا النوع. ولأول مرة في حياتها أحست باضطراب في عواطفها يسببه رجل، وبعدم القدرة على العثور على الكلمات المناسبة. وانحدرت أشعة الشمس مضيئة جانب وجهه مما أسبل عليه انطباعًا بالحيوية الفائقة فسُرته «سارة»بالقسوة. ورماها بنظرة أخرى تومض بالشقاوة وكأنه على علم تام بقلة خبرتها، واجدًا في ذلك مدعاة للتسلية. فقالت:

– من الآن فصاعدًا سأناديك بـ «سارة» إن عبارة آنسة «دينتون» تستغرق وقتًا طويلاً.

– بالطبع. وآمل أن تحذو أختك حذوك عندما تأتي. ومال الطريق نحو الظلال. وشعرت «سارة» بأن الطريقة الرسمية التي تفوهت بها عباراتها الأخيرة قد بعثت التسلية في نفسه. فشعرت بأعصابها تتوتر غيظًا، واستدارت إليه وعيناها تشتعلان.

– أنت تحب إغاظتي.

– إن شيئًا فيك يستفز المرء. هناك الكثير الذي يمكن ذكره في مجال الأخذ بالثأر، ولكنك أحيانًا تردين الكيد بمثله.

– لا تنسَ أنك رئيسي.

– ها...ها. وابتسم ثانية وهو يراقب استياءها الواضح.

– لا تدعي أمرًا كهذا يحبط اندفاعاتك الطبيعية.

تخيلت «سارة» مدى السعادة التي ستشعر بها لو استطاعت توجيه صفعة إلى وجهه. ألا يستطيع أي شيء أن يخترق تحصينات سور هذا الأسلوب الواثق المصقول؟ إنه

يلعب بالألفاظ نائرًا إياها باستخفاف، وكأنه يتلذذ بالاضطراب الذي تثيره.

– هل سمعت عن أختك؟

– نعم، هذا يذكرني. وتلاشى مرحه بفجائية مزعجة، لقد خابرتني «جيل» بعد الغداء إنها ستصل غدًا.

– إنني أتلهّف للقائها. وعلى الرغم من تحفظاتها السابقة فقد غمر صوتها رنين الصدق. إن وجود «جيل» يشكل حاجزًا بينها وبين هذا الرجل الذي يتأرجح مزاجه كرقاص الساعة بين مشاعر الإعجاب بالذات وبين نوع من التسامح المزعج. هز «هيو» كتفيه بلا مبالاة. بينما سرحت «سارة» بنظراتها عبر النافذة المفتوحة، محاولة أن توجه دفة أفكارها نحو معابر أكثر سلامة. وسارت السيارة على طول الشاطئ الغربي نحو قرية «برغ» وخليج «كالغري». وشرح «هيو» أنهما باتباع الطريق يستطيعان أن يشاهدا بعض معالم الساحل قبل الوصول إلى قرية «توبرمري» وكانت المناظر تتغيّر من مكان إلى آخر. وبدت الأرض قفرًا، غير مأهولة، والمستنقعات أكثر جدبًا وامتدادًا. شردت عينا «سارة» اللتان لاح فيهما بريق الاهتمام فوق أعشاب الخلنج. وفجأة دون تفكير، أمسكت بذراعه بشدة مما جعل السيارة تحيد عن الطريق قبل أن يستطيع استعمال الفرامل. قالت لاهثة وهي تشير إلى طائر جثم بهدوء فوق عمود طويل:

– آسفة! لم أر نسرًا بهذا القرب من قبل.

– من المحتمل ألاّ يكتب لك أن تري صقرًا آخر إذا ما شرعت في الإمساك بذراعي هكذا وأنا أقود. وتوقف بالسيارة إلى جانب الطريق. ثم قال:

– أخشى أن تصيبك خيبة الأمل فهذا الطائر صقر لا نسر. ولكن «سارة» كانت في حالة من الاستغراق جعلتها لا تتلفّظ إلا باعتذار قصير. قالت:

– أنا آسفة، أعني بشأن ذراعك. هل أنت متأكد أنه صقر؟ واستدارت لتمعن النظر في الطائر مرة أخرى وعيناها تفيضان بالحيرة. لاحظ «هيو» الشك في تعبيرها فقال بهزة من كتفيه موضحًا:

– إنّ النسر طائر أضخم حجمًا. وعندما يبسط جناحيه تبلغ المسافة بينهما أكثر من متر. ولونه مثل لون الصقر بني غامق، إلا أن رأسه ومؤخرة عنقه تتوجهما كتلة من

www.rewity.com

الريش البني الذهبي. أما الصقر كما ترين، فهو أبيض اللون من الأسفل. إن عدد الصقور في أراضي «الهايلاند» الغربية و «ويلز» يفوق عددها في أي منطقة أخرى. سألت بصوت منخفض وأنفاسها تخرج من حنجرتها بصعوبة. ولم تعرف ما إذا كان السبب هو قرب «هيو فريزر» الشديد منها أو مشاهدتها غير المتوقعة للصقر:

– ألن يطير بعيدًا؟ رفع «هيو» حاجبيه قليلاً وترك ذراعه تستند إلى المقعد خلفها بحيث لامست أصابعه كتفها، وكأنه لم يشعر بتسارع نبضاتها. وقال:

– لقد رأيت بعض الصقور تجلس دون حراك ما يقارب الساعة. ولكن إذا ما رأى الصقر شيئًا يثير انتباهه فإنه ينقض عليه بسرعة عظيمة. وهو يحب الأرانب وما شابهها. إنّ حراس الطرائد والأحراش لا يحبون الصقور، لأنها – في رأيهم – تلتهم الطرائد التي عليهم حراستها، ولهذا فهم يقتلون عددًا كبيرًا منها.

– ألا تتمتع هذه الطيور الجميلة بحماية الحكومة؟

– طبعًا! وأزاح يده وهو يتحرك في مقعده واستطرد قائلا:

– ولكن القوانين لا تنفّذ أحيانًا. ومن الصعب تطبيقها في هذه المناطق التي لا تشكل جنة للطيور كما يبدو.

– انظر! هتفت «سارة» بحركة سريعة من جسمها، وقد حلّ رنين الحماس محل الأسى في صوتها، وهي تلمح الصقر، الذي بدا وكأنه لم يقدّر الاهتمام المنصب عليه، يفرد جناحيه ويحلق منسابًا في الفضاء. وحبست «سارة» أنفاسها وهي تتأمل روعة الطائر عندما مس شعاع من النور الساطع أسفل جناحيه مضيئًا ريشهما المختلف الألوان.لاحت ابتسامة خفيفة على فم «هيو». واستقرت عيناه لوهلة على وجهها المضيء قربه قبل أن يستدير ليرى الطائر الكبير يحط على قمة صخرية في الأعالي. قال:

– إذا كنت تهتمين بالطيور حقيقة، فلعله بوسعنا أن نخرج معًا يومًا ما ونذهب لمراقبة الطيور. عندما يتوفر لنا المزيد من الوقت. قالت لنفسها رافعة يدها لتحجب الشمس. واختفى الصقر عندما انعطف الطريق صاعدًا.

«لاشك في أنّ مشاغله الكثيرة لن تتيح له أن يجد متسعًا من الوقت مطلقًا». ثم أردف وكأن للكلمة الأخيرة وقعًا على نفسه:

– الوقت... يبدو أنني لا أستطيع أن أجد ما يكفي منه يا «سارة». أعتقد أن الأمر كله يرجع إلى ما يريده الإنسان من الحياة.

– سيارة كهذه، مثلاً. ولامست أناملها جلد مقعدها الوثير بتردد.

– قد تكونين على حق – وتبعت عيناه حركات أصابعها – ولكن سيارة «الجاغوار» هذه كانت لعمي، وقد رأيت أنه من الأفضل استعمالها اليوم بدلاً من سيارتي. داخل «سارة» الامتعاض؛ إذ أحسّت به يدير ملاحظتها المبهمة ضدّها . خصوصًا أنها كانت على يقين بأنّ سيارته الشخصية لن تكون من النوع الرخيص.

– هل تحسنين القيادة يا «سارة»؟

– نعم، أقود. واستعادت «سارة» في ذهنها سيارتها الصغيرة التي قدمها لها والداها هدية بمناسبة عيد ميلادها الأخير.

– أسمح لك باستعارة هذه السيارة لو شعرت بأن بوسعك قيادتها. سأدعك تجربينها بعد تناول الشاي عصرًا. ستعتادينها بسرعة. تألقت عينا «سارة» ابتهاجًا، فقد كانت في ريعان الشباب، وعلى شئ من التهور تحت قناع السلبية التي ولدتها في نفسها أحداث الأسابيع الأخيرة.

– ألا تخشى أن أتصرّف بحماقة؟ قالت ذلك وهي تبتسم بسعادة ابتسامة أشرق بها وجهها المفعم بالحيوية. قال لها:

– لقد بدأت أظن أنك لن تفعلي هذا أبدًا. وتفحصها لوهلة متسليًا بمراقبتها، ملاحظًا التغيير الذي طرأ على قسماتها المتألقة واستطرد قائلاً:

– لعله سيُكتب لنا أن نرى اليرقة تبزغ إلى الوجود يومًا ما. فعادت إلى «سارة» جديتها على الفور. لماذا يجب أن يثبط ويحبط كل شئ؟ لعلها هي المخطئة؛ لأنها سمحت لنفسها بأن تعبر عن سرور فاق الحدود بفكرة قيادة هذه السيارة. إلاّ أن ملاحظته أصابت وترًا حساسًا في أعماقها، رغبة صادقة في الحياة لم تستطع أن تحققها لعدة أسابيع. وتراجعت «سارة» مذكرة نفسها بأن «هيو»، على الأغلب، في لجوئه إلى استخدام أسلوب المداعبة معها إنما يعاملها كأخته الصغرى «جيل». وإن جل ما يقصده هو إيقاعها في شباك مزاحه، ولهذا فإن أفضل خطة للدفاع هي التجاهل. لزمت «سارة» الصمت محافظة على ابتسامتها بعناد؛ إذ أحست به

www.rewity.com

ينتظر منها ردًا لاذعًا. وداخلها ارتياح كبير عندما وجدت السيارة تقترب فجأة من قرية «توبرمري». بعد أن توقفت السيارة تركها «هيو» هازًا رأسه هزة مقتضبة. وبدا من الواضح أنه طردها من ذهنه بالسهولة نفسها التي طرد بها حديثهما الشائك. إلاّ أنه تذكر أن يقول لها إنه سيقابلها فيما بعد لشرب الشاي. وجدت «سارة» «توبرمري» بلدة صغيرة جميلة على الشاطئ الشمالي الشرقي للجزيرة. وتجوّلت «سارة» في البلدة سعيدة بحريتها، وقد شعرت بالاسترخاء لأول مرة بعد عدّة أيام قضتها في صحبة الآلة الكاتبة.

شعرت «سارة»، على الرغم من قصر المدة التي مضت على مغادرتها للقلعة، بأنّ الإحساس الخانق الذي قبض على قلبها بأصابعه الفولاذية بعد وفاة والديها قد أخذ يتلاشى. إنها لن تفهم مطلقًا لماذا تقع مثل هذه الحوادث. ولكن حدّة ألمها الثاقب قد أخذت تختفي ليحل محلّها نوع من القبول بالمحتوم أخف احتمالاً. وداخل «سارة» – وأشعة الشمس الدافئة تغمرها – شعور براحة البال، ظنت أنه قد فارقها إلى الأبد. ليت «جين» كانت هنا، يجب أن تكتب إليها لتصف مشاعرها، فلولا «جين» لما كانت «سارة» في هذا المكان وسارت في اتجاه المرفإ، ووجدت أفكارها تنتقل من «جين» إلى «جيمس كار» الذي وقع في حب «جين» منذ سنوات عديدة. وكانت أم «سارة» تعتقد أن زواجًا بين «جين» و «جيمس» سيكون مثاليًا. إلاّ أنّ «جين» عبّرت عن تردّدها دائمًا. ودون سبب واضح، شردت أفكار «سارة» إلى «هيو فريزر».

وهزت كتفيها بصبر نافد. لماذا تعود أفكارها دائمًا إليه؟ قررت «سارة»، مصممة، أن تنسى «فريزر» لفترة من الوقت. وسارت متجولة في البلدة، ملازمة الشارع الرئيسي الذي كان يمتد بمحاذاة جدار المرفإ. وراحت تنظر إلى البيوت، التي كانت من طراز القرن الثامن عشر، بجدرانها الحجرية المتعددة الألوان وسطوحها المائلة. وبدا كل شئ نظيفًا ولامعًا، وعلى الرغم من ذلك كانت مهجورة وأحسّت بالنعاس الذي كان يحوم في الفضاء حولها يصيبها بالعدوى. فاستسلمت «سارة» له، متكئة على جدار المرفإ المنخفض، تاركة هواء البحر النقي يعبث بشعرها المصفف بعناية ويسري فوق بشرتها برقة. وأحست بجفونها تنطبق والدفء يغمرها. وعلى

حين غرة مدفوعة بنوع من الحدس الحاد، انتفضت «سارة» واتجهت بنظراتها إلى الطريق القريب منها. وشاهدت لدهشتها، الشاب الذي أنقذ حقيبتها يوم وصولها إلى الجزيرة يخرج من أحد الأمكنة المواجهة للبحر. وطرفت بعينيها ثم نظرت مرة أخرى. إنه الشاب الغريب الملتحي نفسه ويمكنها تعرُّفه في أي مكان. بينما أخذت «سارة» تراقبه دون أن يراها، حمل هو بعض صناديق المؤونة في صندوق سيارته. إنه ما يزال هنا إذن! لعله أحد سكان الجزيرة، أو لعله استاجر بيتًا هنا، مما يفسر حاجته إلى صناديق المؤونة هذه. علت جبين «سارة» تقطيبة عابسة دون مبرر، وراقبته يبتعد بسيارته. كان قد نظر في اتجاهها نظرة عابرة دون أن يبدو عليه أنه يعرفها. هذا ليس غريبًا، فهما لم يتقابلا إلاّ لمدة قصيرة. ولكن «سارة» وجدت تفسيرها صعبًا على التصديق. وعادت إلى المنظر تتأمله محتارة. في طريق العودة ذكرت «سارة» مقابلتها لهذا الشاب أمام «هيو».

– أعتقد أن كثيرًا من السياح يزورون جزيرة «مل» كل عام؟ قالت ذلك بتردد، وتمنت للحظتها لو أنها لم تذكر شيئًا عن هذا الشاب لـ «هيو»، لأنها خشيت أن يظن بها الفضول الشديد.

– هل يثير اهتمامك يا «سارة»؟

– ليس إلى حد كبير. إنني أستغرب فقط لماذا لم يتابع رحلته.

– لا تدعي الأمر يزعجك. واختلط المكر بابتسامته القاسية:

– لا تنسي أنّ المجتمعات الصغيرة تولّد الفضول. هل سبق لك أن عشت في بلدة صغيرة، يا «سارة»؟ إن الناس في المجتمعات الصغيرة يهتمون بالآخرين.

– إن في مقدورهم أيضًا أن يسببوا الاختناق. أجابها بحدة:

– لا أظن ذلك! إذن دعينا نتفق لا أن نختلف. قال متشدقًا:

– يبدو أننا نختلف حول مواضيع كثيرة.

لاحظت «سارة» في كلماته شيئًا من التبرم. وكأنه كان يكتشف، كارهًا، ضرورة أن يسلم بوجود أنماط مختلفة للعيش. هل يجد يا ترى أن الضغط المتواصل الذي تتطلبه حياة أكثر أستقرارًا مدعاة للغيظ الشديد؟ وهو الذي تعوّد الأستمتاع بحريته والتجول حول العالم. وعادت «سارة» بانتباهها إلى ملاحظته الأخيرة.

– هل تجد أنه أمر غريب ألاّ يكون بيننا أشياء كثيرة مشتركة؟

– ها! وضحك دافنًا رأسه الداكن إلى الوراء. ألم يذكر لك أحد يا «سارة»، أنّ الرجال والنساء لايشتركون إلاّ في القليل وأنّ العاطفة الوحيدة التي تستطيع أحيانًا أن تسد الفجوة بينهم هي عاطفة خطيرة جدًّا؟ أدارت «سارة» رأسها بسرعة. كان من الممكن أن تجيب بصراحة...لا. ولكن لأنها شعرت بأنه يطأ أرضًا محرمة عن عمد، فقد قررت أن تلتزم الصمت. وبالإضافة، لماذا يجب أن تعترف له بنقصان تجربتها؟ إنه يملك من الصلف والاعتراد بالنفس ما سيجعله يرى في هذا مدعاة للتسلية. قال ساخرًا عندما استمرت على صمتها:

– يجب أن تقدمي على المغامرة يومًا ما. إلا أنني لا أنصحك بأن تختاري سائحًا عابرًا.

– لا تخشَ فلن أفعل. بوسعي الانتظار حتى أعود إلى «لندن» ابتهلت «سارة» راجية. «المهم ألاّ أقع في حبك» – وشعرت بنظراته العابثة تعود إلى وجهها وتتمهل فوق فمها الأعزل قبل أن تنحرف إلى الطريق. وشعرت بنبضاتها تتسارع وكأنها تجري. وعادت السخرية إلى وجهه، وتمتم قائلا:

– طبعًا!العاصمة العظيمة! ولكنك تحبين التظاهر بأنك تستطيعين العيش بعيدًا عنها. وهز كتفيه بحركة لامبالاة، وكأنه فقد الاهتمام بالحوار بينهما. وعاد إلى التركيز في القيادة. فشعرت «سارة» بأعصابها المتوترة تسترخي بالتدريج. سلكا في طريق عودتهما الطريق المحاذي للشاطئ الشرقي إلى «سالن»، اتكأت «سارة» في مقعدها وأغمضت عينيها نصف إغماضة. بينما اتجهت السيارة نحو المنعطف التالي سألها:

– فيم تفكرين؟ وابتسم بتكاسل، مبددًا شكوكها في أن تكون أفكاره في مكان آخر. وقبل أن تستطيع الإجابة أدار السيارة فجأة وأوقفها. ثم قفز من الباب. رأت «سارة» سيارة أخرى واقفة قريبا: سيارة طويلة وثيرة وقفت بجانبها فتاة طويلة سوداء الشعر. وبدا من الواضح أنها كانت في ورطة؛ إذ راحت ترمق سيارتها بكآبة. ولكنها عندما لمحت «هيو»، اختفى عبوسها وحل محله تعبير بالدهشة والسرور.

– «هيو» ! هتفت بحبور ثم عانقته قائلة:

– لم يخطر لي ببال أن أجدك هنا! ضحك «هيو». وراقبته «سارة» بفضول وهو يعانق الفتاة بخفة.

– إنني سعيد برؤيتك للمرة الثانية يا «بيث». ولكنني ظننت أنك سافرت إلى «فرنسا». وضمها إليه ثانية، بحنان، كما لاحظت «سارة». وومضت فكرة في ذهنها وهي تتذكر ما قالته لها «بيدي» مساء وصولها إلى القلعة عن احتمال زواج «هيو» بفتاة ذهبت في رحلة إلى «فرنسا». هل هي الفتاة نفسها أم لا؟

– لقد كنت هناك. وصلت البارحة فقط، وظننت أنه من الأفضل أن أخرج بسيارتي؛ لأنني أتركها معظم الوقت في (الكاراج)، ولكن يا لسوء الحظ، إحدى العجلات تعطلت، ولهذا وقفت أنتظر آملة أن يأتي شخص ما ليساعدني على استبدال العجلة، إلاّ أنني لم أتوقع أن تحضر أنت. ابتسم «هيو» بتكاسل، وانحنى ليفحص العجلة. قال عابثًا:

– إنني دائمًا أعرف متى أظهر. ولاحظت «سارة» لمعان أسنانه البيضاء الناصعة. وبدا لها، إذ أشرق وجهه ضاحكًا مما أبرز انحناءة رأسه المتكبر، كقرصان أسمر. ولم يخامرها الشك مطلقًا في أنه يستطيع التصرف كقرصان أيضًا. لاح لـ«سارة» أنّ عيني «بيث» لم تفارقا وجه «هيو» بتاتًا وهي تسأله أين كان:

– في «توبرمري»، لحسن حظك. وأشار بيده بإهمال إلى حيث جلست «سارة»:

– مع سكرتيرتي. ثم قال معرفًا:

– «سارة دينتون»، أقدم لك «بيث أسكويث». وأدارت «بيث» رأسها لتستقر بنظراتها الدهشة على «سارة» التي كانت ما تزال جالسة في السيارة. وبدا واضحًا أنها لم تشعر بوجودها قبلاً. قالت بلهجة ثاقبة باردة وهي تستدير غاضبة لتواجه «هيو» الذي خلع سترته استعدادًا لتغيير العجلة:

– سكرتيرة؟! لماذا بحق السماء، تحتاج إلى سكرتيرة في «لوخ غويل»؟ قال بلهجة متهكمة، وحطّت نظراته الساخرة للحظة وجيزة على وجه «سارة» الذي احمرّ غضبًا تحت وطأة نظرات «بيث» العدائية:

– قد تستغربين وكان بالإمكان أن أساعدك أنا. ولم تسمع رد «هيو» ولكن «بيث» بدت مقتنعة بإجابته؛ إذ أسترخت عضلات وجهها ووجثت على ركبتيها بجانب

www.rewity.com

«هيو» تتبادل معه الحديث... كما يلوح. علا العبوس وجه «سارة» وقالت في نفسها: «لاشك في أن «بيث» هي المرأة التي ألمحت «بيدي» إلى أن «هيو» قد يتزوجها في المستقبل». واعتصر قلبها شعور بالأنقباض سارعت إلى طرده.

وصلت «جيل» في اليوم التالي. كان الصباح قد بدأ بداية سيئة بالنسبة إلى «سارة» عندما أيقظتها «كاتي» قبل الساعة السابعة لتخبرها بأن «بيدي» اضطرت إلى لزوم الفراش بسبب مرضها، مما دفع «هيو» إلى أن يرسلها إلى «سارة» ليطلب منها القيام بإعداد الفطور.

– لقد عاودتها آلامها. شرحت «كاتي» بينما كانت «سارة» تهبط الدرج بسرعة.

– في العادة عندما لا تستطيع النهوض من فراشها أقوم أنا بإعداد الفطور ولكني عندما قمت بهذه المهمة في المرة الأخيرة سكبت إبريق الشاي على يدي وحرقت الخبز. وكانت النتيجة أن راح السيد «فريزر» العجوز يشتكي من سوء الهضم طول النهار. ما كنت أحب أن أزعجك يا آنسة «سارة»، ولكن السيد «هيو» قال إنه متأكد أنك طباخة ماهرة. وماذا لو كنت؟ تساءلت «سارة» بغيظ وهي ترتدي مريلة من مرايل «بيدي» الكبيرة البيضاء. إنه لا يتوقع منها أن تقوم بجميع الأعباء؟ لاشك في أنها ستسمعه قريبًا يهمس، معلقًا على الروماتيزم الذي تعانيه «بيدي»:

– «أنا واثق بخبرتك في التمريض يا «سارة». ورفضت «سارة» أن تعترف بأن سوء المزاج الذي كانت تعانيه هذا الصباح قد يكون نتيجة لتجربة الليلة الفائتة. فبعد أن تركا «بيث» بدا واضحًا أنه نسي وعده بشأن السماح لها باستعمال سيارته أو أن السبب، يا ترى، هو أن لقاءها بـ «بيث» البارحة قد أفسد أمسيتها. خصوصًا أنها قد أفلحت بالتلميح لـ «سارة»، عن طريق التفوه ببعض الكلمات الباردة، بأن وجودها في «لوخ غويل» غير مرغوب فيه، ولكن من المحتمل أن «هيو» الذي كان مشغولاً بتركيب العجلة عندئذ لم يسمع هذه الكلمات. سارعت «سارة» إلى سكب بعض الشاي. ورتبت بعض قطع البسكويت بذوق فوق صحن مزين. قالت لـ «كاتي» التي راحت تحوم حولها:

– سآخذ هذه الصينية إلى «بيدي» بنفسي، لعلي أستطيع أن أساعدك قليلاً قبل أن أتناول فطوري. اشتكت «بيدي» لـ «سارة» من آلام مبرحة في الورك. وقالت إن

الحبوب التي وصفها لها الطبيب لم تناسبها مما دفعها إلى أن تلقي بها في المغسلة. وبدت سعيدة بالشاي، إلاّ أنها أنبت «سارة» على تحملها هذا العبء. قالت وهي تخرج حبتين من زجاجة وجدتها في المطبخ:

– أظن أن الأسبرين ينفع في مثل هذه الحالات. ولدهشتها ابتلعت «بيدي» الحبتين دون معارضة، تحت مراقبة «سارة» التي سجلت في ذهنها ضرورة أن تتحدث إلى الطبيب عندما يأتي لزيارة «بيدي». ولما حاولت الأخيرة أن تغادر فراشها قالت لها «سارة» بحزم:

– إن ما تحتاجين إليه الآن هو الدفء والراحة. ثم إن هناك فتاة أخرى في البيت بالإضافة إليّ وإلى «جيل» التي ستصل اليوم. من المؤكد أننا سنستطيع تدبير الأمور فيما بيننا.

– الآنسة «جيل»؟! وغمر الاستياء عيني «بيدي» الزرقاوين بلون البحر. ماذا سيقول السيد «هيو» إذا ما لزمت الفراش؟أجابت «سارة» بلهجة لاذعة وهي تغلق الباب:

– شيئًا لا يمكن مقارنته بما سأقوله أنا، لو غادرت الفراش. وفكرت «سارة» في السيد «هيو»، وهي في طريقها إلى المطبخ. لاشك في أنّ «بيدي» ستقوى على مغادرة الفراش خلال يومين أو ثلاثة. ولكن إذا ما أرادها «هيو» أن تقوم بالطبخ فعليه أن يحاول تدبير أموره في المكتب دون مساعدتها؛ إذ ليس في استطاعتها أن تقوم بالمهمتين معًا. ثم إنه لن يؤذيه اكتشاف أنها ليست سهلة الانقياد بالدرجة التي يتخيلها. وجدت «هيو» في أنتظارها في المطبخ، واقفا قرب النافذة ينظر إلى الساحة، وقد كادت كتفاه العريضتان تملآن النافذة الطويلة، فغمر «سارة» شعور مثير ألجمها عن الكلام لحظة. واستدار «هيو» عندما سمع خطواتها، وحطت نظراته على وجهها اليافع الصافي.

– صباح الخير يا «سارة». أظن أنه من الأربح لك أن أتناول الفطور معك هنا. كم تبدو كلماته حافلة بالمودة! ولكن «سارة» ليست بالفتاة التي تخدعها مثل هذه اللهجة التي تخفي في طياتها نفاد الصبر الذي يتصف به الرجال، وبصعوبة تستطيع ابتسامته أن تخفي عدم ترحيبه بهذا التغيير في الروتين اليومي. وأومأت «سارة» برأسها بفتور وهي تضع بعض شرائح اللحم تحت المشواة. وسألته بلهجة حادة قبل أن تتناول المقلاة:

www.liilas.com

– كم بيضة تريد؟ واتسعت إبتسامة «هيو» اللاهية وهو يقترب ليقف بجانبها ويقول:

– إن مزاجنا لا يبدو على ما يرام هذا الصباح، أليس كذلك؟ ونظر إليها من فوق أنفه المستقيم بعينين تتألقان بالخبث واستطرد قائلا:

– هل أنت مغتاظة مني لأنني طلبت منك أن تعدي الفطور؟ ضحكت «سارة» على الرغم منها، وتلاشى غضبها وقالت:

– في الحقيقة لا. وقابلته عيناها الزرقاوان بجرأة:

– ولكنك تحب إعطاء الأوامر.

– هل يزعجك أن تمدي يد العون يا «سارة»؟

– لا، إذا ما وُجه إليَّ الطلب بالأسلوب الصحيح. وأدركت أن تصرفها كان طفوليًا، ولكن خصلة من العناد في طبعها جعلتها تصر على مسلكها مع علمها بأنه إنما كان يحاول استثارتها عن عمد. وابتسم «هيو» وقال:

– لقد اعتدت إعطاء الأوامر يا «سارة». حتى أنني كدت أنسى كيف أصوغ طلباتي بالأسلوب الصحيح. لعلك تستطيعين أن تعلميني. كان واقفًا بجانبها مهيمنًا قرب الموقد. يبدو أنه كان يمارس رياضته الصباحية على ظهر حصانه وأردفت قائلة:

– لن يكون في وسعي أن أفعل كل شئ. وكسرت بيضة دون احتراس في المقلاة محاولة أن تستعيد تمالكها لنفسها.

– وماذا بشأن المكتب؟ ولكن «سارة» لم تربح هذه الجولة أيضًا:

– أستطيع أن أطلب المساعدة من «بيث» عندما تأتي هذا المساء. قال بلطف وعيناه تستقران على بياض عنقها المصقول فوق فتحة قميصها:

– لقد عرضت المساعدة. وضعت «سارة» الزبدة فوق البيض بأسرع مما يجب، فتطايرت الرشاشات الحارة ملامسة ذراعها مما جعلها تطلق صيحة ألم قصيرة قبل أن تسحب ذراعها بسرعة، رامية الملعقة من يدها. وغامت عيناها بدموع اليأس وهي تحاول أن تغطي المساحة المحروقة بيدها. أطلق «هيو» صيحة مختنقة وقال:

– دعيني أرى ما أصابك! لقد ظننت أن «كاتي» هي الوحيدة المهملة هنا. كم مرة كُتب عليَّ أن أنقذك يا ترى؟ وألقى نظرة سريعة على وجهها المصدوم. ثم توجه

إلى إحدى الخزائن وعاد حاملاً أنبوبة مرهم غطى به الحرق. وكانت هذه هي المرة الثانية التي أشار فيها إلى مغامرتها فوق الصخور منذ حدوثها. صرخت «سارة» بحدة، إذ أفرغ محتويات الأنبوبة فوق يدها، وآلمتها لسعة ملمس أصابعه أكثر من لسعة الحرق. وأحست وهي ترتجف بأنها عزلاء تجاهه. وتمتمت بشئ من الخجل وهي تسحب ذراعها:

– آسفة. هذا يكفي، إن الحرق بسيط وهو لا يستدعي الخوف الذي أصابني. وشمت رائحة شئ يحترق فسارعت مبتعدة لتنقذ محتويات المقلاة. وقالت:

– أظن أنه يمكنني أن أساعدك في المكتب بعد الغداء، بعد انتهائي من العمل هنا. «كاتي» تستطيع تصريف أمور المطبخ بمفردها لمدة ساعة أو ساعتين.

– إذن، لن نحتاج إلى «بيث» كما يبدو لي. قال ذلك معلقًا بدماثة، ورماها بنظرة متأملة من عينيه اللتين راحتا تبحثان عن ضمادة في صندوق الإسعاف.

– ليس بالضرورة، ولكن افعل ما تشاء. وعضت على شفتها بأسنانها البيضاء المصفوفة، وهي تمد يدها إليه مطيعة، فوضع فوقها الضمادة بحزم وبراعة. ووشت حركة أصابعه الماهرة بخبرة لا بأس بها. كانت ذراعها تؤلمها، ولكنها أحست بالدماء تعود إلى وجنتيها. ولم تعرف لماذا لم تستطع أن تحبذ فكرة قدوم «بيث» لمساعدة «هيو». وخالجها الشعور بأنه قد ضمّن هذا كما أوحت به الاختلاجة الغريبة التي طافت بفمه. وضغط «هيو» على الضمادة ضغطة خفيفة مقصودة وقال:

– عندما تنتهين من تنسيق الأمور داخل رأسك الجذاب هذا، هل يمكننا أن نتناول الفطور؟ فنجان من الشاي الحار وحبتان من هذه الزجاجة ستكفل لك الشفاء العاجل. ومد لها يده بزجاجة الأسبرين التي كانت قد وضعتها على المائدة بعد عودتها من غرفة «بيدي». وقالت:

– شكرًا.

صممت «سارة» ألا تعطي نفسها فرصة للعبوس. وبعد الفطور انغمست في العمل بعيدًا عن «هيو». وبينما كانت تعد طعام الغداء راحت تفكر في التشعبات والتعقيدات التي يتطلبها العمل في بيت كبير. إن الجو الذي تخلقه ظروف مثل هذا العمل كفيلة بأن تولّد جوًا من الألفة لا يجده المرء في المكاتب الصغيرة. وأحست «سارة» بخطر

www.rewity.com

أن تحول بينها مثل هذه الألفة وبين الاحتفاظ بعلاقتها مع رئيسها على المستوى الرسمي. ولاحظت أنها قد بدأت تلاقي صعوبة متزايدة في التفكير في «هيو» كرئيس فقط. وهي لم تنس كيف أنها كانت على وشك أن تضع رأسها على كتفه هذا الصباح. لعله من حسن حظها أنه سرعان ما فقد الأهتمام بما أصاب يدها واستسلم لعدم اللامبالاة.وجدت «سارة» بعض الوقت للتحدث إلى طبيب العائلة «أيان ماكنزي»، بعد أن عثرت على بطاقته بعد بحث طويل في خزانة في القاعة. يجب أن تتذكر أن تطلب من «هيو» الحصول على دليل للهاتف نظرًا لعدم وجود دليل في البيت. بعد العثور على الرقم، اتصلت بالعيادة وتحدثت إلى الطبيب بنفسها. نعم. بإمكانه أن يأتي لزيارة «بيدي» فيما بعد. وسيجلب معه بعض الحبوب.

– إن إيجاد العلاج المناسب يعتمد على الخطإ والتجربة. قال ذلك متنهدًا عندما ذكرت له ما فعلته «بيدي» بالحبوب التي وصفها سابقًا. ولما اقترحت عليه بوجل أن لزوم الفراش قد يشكل العلاج الأفضل، قهقه بصوت عال قائلاً قبل أن يضع سماعة الهاتف:

– جربي أن تحاولي فقط إقناعها بلزوم السرير!رأت «سارة» وهي تساعد «كاتي» على إعداد غرفة «جيل» أن يومها هذا كان مزعجًا منذ بدايته. وأصغت إلى «كاتي» تسر إليها بأن صديقها لن يأتي لزيارتها في نهاية عطلة الأسبوع. قالت غاضبة وهي تمسح الغبار بحيوية زائدة جعلت الخشب يلمع:

– على كل، لقد بدأت أملّ من صحبته. إنه يعمل على الشاطئ المقابل في أحد الفنادق المشغولة جدًا،مما لايتيح له فرصة للخروج. إذا استمر على هذا المنوال فسأبحث عن شخص آخر. أثارت لهجة التهديد في كلماتها ابتسامة «سارة». وبدا لها وهي تضع اللمسة الأخيرة على غطاء السرير الساتان بأن «كاتي» أيضًا تعاني سوء الحظ هذا اليوم. ولكن الفكرة لم تبعث السلوى في نفسها بل يأسًا متزايدًا.

– 4 –

بعد الغداء بقليل، توجه «هيو» إلى «سالن» ليقابل أخته في المطار. وكانت «سارة»

في غرفتها بعد الظهر عندما سمعت طرقة سريعة على بابها. وقبل أن تجد الوقت لتطلب من الطارق الدخول، دخلت الغرفة فتاة شقراء صغيرة لها ابتسامة مفعمة بالحيوية. وتقوّس حاجبا الفتاة وهي تسأل:

– أظن أنك سكرتيرة «هيو» الجديدة. لقد جئت لكي أشاهدك. وتوقفت عن الكلام بغتة لتحدق إلى «سارة» بعينين واسعتين:

– يجب أن أعترف بأنني لم أتوقع شخصًا مثلك. أين عثر عليك؟

– في الحقيقة لم يعثر «هيو» عليّ. لقد أرسلوني إليه.ردّت «سارة» بذلك بثبات، ملقية على الفتاة نظرة سريعة،وعرفت بحدسها أنّ هذه الفتاة لابد أن تكون «جيل»، على الرغم من أنه لم يكن هناك شبه بين «هيو» و «جيل» فيما عدا أشتراكهما، على ما يبدو، في خصلة العجرفة. ولاح لـ «سارة» أنّ هذا المزيج من التكبر وعدم الكلفة اللذين يتصفان به مثير للاضطراب، وهو يبرهن، أكثر من أي شئ آخر على أنهما من سلالة عائلة «فريزر»، وانتظرت «سارة» بصمت بينما راحت «جيل» تفكر فيما قالته لها. سألتها «جيل» بصوت رفيع مفعم بالفضول، إذ لم تفتها قامة «سارة» الرشيقة وتقاطيعها الجميلة:

– أرسلوك؟! ماذا تعنين بحق السماء؟ من أرسلك؟

– لقد طلب السيد «هيو» من محاميه أن يرسل إليه سكرتيرة. وكانت النتيجة أن وجدت نفسي هنا. وابتسمت «جيل» ابتسامة خفيفة وقالت:

– آه،فهمت. ولكن التعبير المرتسم على وجهها وشى بوضوح بأنها لم تفهم. ولازمها الشك للحظة وهي تتأمل بشرة «سارة» المصقولة. وفجأة، وكأنها قررت أن تغير من أسلوبها، مدّت يدها إلى «سارة» مصافحة وموضحة، دون أن تدعو الحاجة إلى ذلك قائلة:

– أنا «جيل». آسفة إذا كنت تصرّفت ببعض الوقاحة، ولكن اللوم يقع على «هيو»؛ لأنه لا يشرح لي أي شئ كما يجب، ويستعمل معي دائمًا الأسلوب الخاطئ. إذن لقد ذكر لها شيئًا عن الموضوع!وأجابت «سارة» متسائلة،متعمدة أن تنطق الكلمات باستخفاف لكي تكتم استياءها:

– أخشى ألا أستطيع متابعة أفكارك، لكن «جيل» لم تجب بسرعة، وابتسمت

www.rewity.com

برضًا كالقطة وهي تكور جسمها لتستقر فوق الكنبة. وبدا واضحًا أنها أحست بإضطراب «سارة» وأنها حيًا في العناد لم تجد ما يدعو إلى العجلة لتهدئة خاطرها. قالت بابتسامة:

– لقد ذكر لي أنّ وجودك هنا هو من أجلي من بعض النواحي. ويجب أن تعرفي أنه ليس من طبعه الاهتمام بي، ولهذا أتساءل لماذا يأخذ على عاتقه فجأة أمر الأعتناء بي؟ بل لماذا يسمح لنفسه أن يظن بأنني أحتاج إلى حارس أو مربية؟ لذلك لا تستغربي، إذ تجدينني أشك في تصرفاته. من المؤكد أنه ليس هنالك من سبب يجعله يتحمل كل هذا الإزعاج من أجلي.

– أخشى أنك أسأت تفسير كلماتي. قالت «سارة» في نفسها وهي تجلس على طرف السرير، وقد داخلها شيء من الارتياح: يبدو واضحًا أنّ «جيل» قد خلطت الأمور. كان من الأفضل ألاّ يذكر «هيو» شيئًا أمامها». وحلّت محلّ استيائها السابق موجة من الغيظ. إنّ الرجال نادرًا ما يبرهنون على البراعة والذكاء في تصرفاتهم تجاه أخواتهم الأصغر سنًا.

– إنّ سبب وجودي هنا في الحقيقة هو مساعدة أخيك لكي ينظم الأمور المتعلقة بميراث عمك. لا أتوقع أن أبقى هنا مدة طويلة. ولهذا ليس هنالك ما يدعو إلى قلقك. على عكس ما أملت «سارة»، لم يكن من السهل تهدئة مخاوف «جيل» التي استطردت وعيناها تضيقان، بتعبير ماكر عابسة الوجه:

– إنّ أسبابك قد تكون واضحة، ولكن ماذا بشأن «هيو»؟ تردّدت «سارة» قبل أن تجيب. إن «جيل» لم تلمح بعد بأية طريقة إلى صديقها الذي سبب كل هذا الإزعاج لأخيها. ولكن بدا من الواضح أنها كانت تفكر فيه. حسنًا! إنها لا تنوي أن تتدخل في أية خلافات عائلية إن أمكنها أن تتجنب ذلك. ولن تشير إلى صديق «جيل» إلاّ إذا ذكرته أمامها. من حسن الحظ أن «هيو» لا يريدها أن تتحدث عنه، لأن خطته لا يمكن أن تنجح إلا إذا توفرت السرية الكافية. وأحست «سارة» بالخجل من نفسها للطريقة الحاذقة التي راحت تزن الأمور بها، فسارعت إلى الإجابة عن سؤال «جيل» بحرارة ما كانت لتظهرها لو كان الموقف مختلفًا:

– ألا تعتقدين أنك تبالغين قليلاً يا «جيل»؟ إن السيد «فريزر» ذكر لي أنه يشعر

بالمسؤولية تجاهك، خصوصًا بعد مرضك وبسبب سفر والدتك إلى «أمريكا».

– وعندما تعود سيسلمني لها كطرد بريدي، ملفوف بعناية وسليم من العطب. مسكين «هيو»! أظن أنني أستطيع تخيّل الصورة؟وضحكت «جيل» وعيناها تومضان سرورًا ثم قالت:

– إنه يكره القيود من أي نوع. وأمي تقول إنه قد امتنع عن الزواج لهذا السبب، فهو لن يسمح لنفسه أن يسرح في العالم طولاً وعرضًا تاركًا زوجته اليافعة وحدها في المنزل. قفزت «سارة» على قدميها بقلق، وشعرت بنظرات «جيل» تتفحصها بإمعان وكأنها لم تقتنع بعد. إن «جيل» مكارة! قد تكون فتاة مدللة، ولكنها تبدو عاقلة بما فيه الكفاية، وعلى علم بما تريد، على عكس «سارة»، ثم إنها على ما يظهر، من النوع الذي لا يتورع عن اللجوء إلى الأساليب الملتوية إذا دعت الحاجة، ولهذا فإن أفضل خطة للدفاع الآن هي التراجع بلاشك.

– يجب أن أسرع! هتفت ملقية نظرة سريعة على ساعتها:

– أعذريني، فقد كدت أنسى «بيدي». إنها في السرير، وعليّ أن أذهب إليها لأتبيّن حالتها.آه، هذا يذكرني...تثاءبت «جيل» وهي تفرد جسمها، ومطت ذراعيها قائلة:

– لقد أخبرني «هيو» بأن الدكتور «ماكنزي» يريد التحدّث إليك. وهذا في الحقيقة هو سبب قدومي إلى هنا. توقفت «سارة» وهي في منتصف الطريق إلى الباب، وأدارت رأسها المضيء لتلقي نظرة مغتاظة على «جيل»:

– كان في وسعك أن تخبريني قبل الآن! قالت «جيل» بهزة لا مبالاة من كتفيها:

– آسفة لقد نسيت. لا تنزعجي، فهو شخص عزيز عجوز. أنا واثقة بأنه لن يتضايق من الانتظار، خصوصًا عندما يجد الشخص الذي اضطره إلى الانتظار فتاة مثلك. هرعت «سارة» تهبط الدرج دون أن تتمهل لتسمع المزيد. إنها تعرف هذه النعوت التي يستعملها الناس عند الإشارة إلى أطبائهم حق المعرفة، مثل: (عزيز، ولطيف، وعجوز). عندما وصلت «سارة» إلى القاعة وجدت «هيو» يتحدث إلى رجل أصغر منه سنًا فخمنت أن يكون أحد جيرانه. وغمرها الاستياء، لأنها لم تجد أثرًا لأي طبيب. استدار «هيو» فسارت نحو الرجلين فوق السجادة الثمينة شاعرة بنظراته تنحدر على

www.rewity.com

وجهها القلق، ولمحت شبح ابتسامة على فمه الصارم وقال:

– أظن أنه من الأفضل أن أقدمك إلى الدكتور «ماكنزي» يا «سارة»، لأنه يبدو أنك أخذت على عاتقك أمر الاعتناء بـ «بيدي».

أوشكت «سارة» أن ترد بالطريقة الجافة نفسها لولا أنها تمالكت نفسها، فهذه هي طريقته في التعبير! وتقدمت إلى الطبيب وصافحته وقد غمرتها الدهشة. لعل «جيل»، بالفعل، ترى الدكتور «ماكنزي» رجلاً متقدمًا في السن، ولكن «سارة» شكّت في هذا. لم يكن الطبيب جميل الطلعة، إلاّ أن وجهه كان يشع نوعًا من الجاذبية البسيطة غير المتكلفة، وكان أصغر سنًّا من «هيو» وأشقر الشعر مثلها. أحست «سارة» في نظرات الطبيب إليها ببريق الاهتمام. ولم يكن في إعجابه، الذي بدا واضحًا في عينيه الرماديتين، أي رياء.

– إذن أنت هي الآنسة التي تريد أن تجبر «بيدي» على التزام السرير؟ قال الطبيب ذلك مبتسمًا وهو يضغط بحزم على أصابعها النحيلة، وعيناه شاخصتان إلى وجنتيها المحمرتين. ما كان بإمكان «سارة» أن تحزر أن مسلك الطبيب «ماكنزي» تجاهها لم يكن عاديًا بالنسبة إليه، ولكن وجدت إعجابه الصريح بها مشجعًا ومثيرًا بعد نهار طويل ممل. وبغريزتها الأنثوية، أهملت تقطيبة «هيو» الخفيفة، مستجيبة لابتسامة الطبيب بابتسامة مماثلة فقالت:

– سأجرب وسحبت أصابعها من يده باحتراس، سائلة عمّا إذا كان قد ترك بعض الحبوب لكي تستعملها «بيدي».

– إن «بيدي» لا تستطيع أن تتذكر اسم الحبوب التي وصفتها لها، فقال:

– إن معي الحبوب في السيارة. سأعطيك بعضها إذا ما رافقتني. وتابع وعيناه لا تفارقان وجهها:

– سيكون مفعولها أفضل بالطبع إذا استطعت أن تحثيها على البقاء في السرير.

– سأحاول. وشعرت «سارة» فجأة بـ «هيو» خلفها يراقبها بإستهزاء. فتظاهرت بعدم الاهتمام وابتسمت للطبيب ثانية. لقد أصبحت خبيرة بخصلة عدم التسامح في طبع «هيو»، لكنها لم تستطع أن تدرأ غصة الألم، مما أثار الاستياء في نفسها. واعترتها الدهشة والغيظ معًا عندما تدخل «هيو» في الحديث قائلاً بصوت جاف:

– يبدو من الواضح أنك لست مستعجلاً يا «أيان»، ولهذا أرجوك أن تفحص ذراع «سارة» قبل ذهابك. لقد سكبت بعض السمن الحار عليها في الصباح، إذ إنها ليست دائمًا بمثل الكفاءة التي تبدو عليها! اشتعلت عينا «سارة» غضبًا وهي تجابه نظراته الساخرة. صحيح أن ذراعها تؤلمها، ولكن الألم ليس حادًّا. وتمنت بارتباك لو أنه لم يذكرها. وحولت نظراتها عنه مبتسمة لـ «أيان»، محاولة أن تستعيد بعض توازنها.

– لا داعي لأن تزعج نفسك. احتجت «سارة» عندما همّ الطبيب برفع الضمادة، متجاهلة عبوسه الفجائي وقالت:

– لقد فحصت يدي بنفس يبعد الغداء، ووجدتها في حالة جيدة.

– كيف عرفت؟ وازداد وجه «أيان» عبوسًا وتابع نافد الصبر:

– هل لديك خبرة في التمريض؟ حتى الحروق الصغيرة يمكن أن تكون مزعجة.

أجابت «سارة» وقد وخزتها لهجة التأنيب في صوته، سامحة لانفعالها أن يغلب حذرها.

– لكنني رأيت العديد من الحروق! وكنت أعمل مساعدة لوالدي الذي كان طبيبًا أيضًا. أفلت «أيان» ذراعها كارهًا، ولم يبد عليه الاقتناع التام وقال:

– حسنًا! كما تشائين. واستقرت نظراته الثاقبة على وجهها واستطرد قائلا:

– ومع هذا فسأعطيك مرهمًا قد تحبين أن تجربيه، عندما نذهب إلى السيارة لكي تجلبي حبوب «بيدي». ثم أومأ إيماءة مقتضبة لـ «هيو»، وسار عبر الباب المفتوح. لما رجعت «سارة» بعد عشر دقائق، وجدت أن «هيو» قد غادر القاعة، ولم تجد له أثرًا في المكتبة عندما ذهبت لترى ما إذا كان محتاجًا إلى مساعدة عاجلة. وكان «أيان» قد أصّر على أن تضع ضمادة مناسبة على ذراعها مما استغرق بعض الوقت. ولم تشأ «سارة» أن تعترف حتى لنفسها، بأنها اختارت أن تتلكأ مع «أيان» عن قصد آملة أن تتجنّب «هيو» وأية ملاحظات لاذعة قد يبديها حول مسلكها. أما ما تبقى من فترة ما بعد الظهر فقد قضته «سارة» في المطبخ متحملة مضايقات «جيل» التي راحت لتوها تشكو من الملل. وراحت «جيل» تتبادل الضحكات مع «كاتي» التي كانت تعرفها جيدًا، ثم أخذت تكيد «سارة» بشأن «أيان ماكنزي» فقالت لها:

– رأيتكما متشابكي اليدين في القاعة. ماذا كنتما تناقشان بهذه الجدية؟ ليس

روماتيزم «بيدي» بالطبع؟ لقد ذكرت لـ «هيو» بعدها أن «أيان» بدا وقد افتتن بك.

– لقد قلتِ لي إن الدكتور «ماكنزي» رجل مسن وطيّب! وضغطت «سارة» على الكلمتين الأخيرتين بوضوح. قهقهت «جيل» دون أن تبدو عليها علامات التوبة:

– حسنًا، أليست هذه هي الحقيقة؟ كان عمي «ديفيد» يقول إن «أيان» ولد عجوز عجوز مستبد! إنه لا يصف لي إلاّ المحاضرات! حاولت «سارة» دون نجاح أن تخفي ابتسامتها وهي تنحني لتضع طبقًا في الفرن. ربما لم يكن الخطأ خطأ «جيل» لأنها تبدو أصغر من عمرها. إنها فتاة مسلية بلاشك، ولكن مزاجها المتبدل متعب. من الأفضل ألاّ تذكر أمامها أن «أيان» طلب منها الذهاب إلى حفلة رقص تقليدي. ثم إن «سارة» لم تُبد قبولاً للفكرة بعد، بسبب واجباتها الكثيرة، ولكنها لم ترفض الدعوة أيضًا؛ إذ وعدت «أيان» بأن تبلغه قرارها في وقت ما خلال الأيام المقبلة.

– متي تعود أمك من «أمريكا»؟ سألتها «سارة» مغيرة الموضوع:

– لا أعرف متي تعود. وهزّت كتفيها، ثم أضافت قائلة وهي تتبع خطوات «سارة» عبر القاعة:

– سوف تعود يومًا ما، على ما أعتقد.

– ألم تذهبي معها؟ قالت لاوية شفتها بشئ من الوقاحة:

– لا، كما هو واضح! كان من الممكن أن أفعل، لو أنها انتظرت حتى شفائي من العملية. عضت «سارة» على شفتها بشك. إذا كانت «جيل» أرادت السفر إلى «أمريكا» فليس من الممكن أن يكون حبها لهذا الرجل في «لندن» حقيقيًا إلا إذا كانت قد نوت اصطحابه معها. تابعت «جيل»، عندما لم تعلّق «سارة»، بصوت مشاكس:

– يداخلني الشعور بأن أمي تعمّدت الذهاب لحظة أن علمت أنني لا أستطيع الذهاب معها. وقد تذرعت باضطرارها إلى الذهاب لأسباب عائلية. ماذا يعني هذا؟ لا أدري. وتمّ كل شئ تحت ستار من الكتمان. ولكنني واثقة بأن «هيو» يعرف السبب. ألا تستطيعين أن تتزلفي إليه لتعرفي الحقيقة؟

– أتزلف إليه لأكتشف سرا! وضحكت «سارة» في قرارة نفسها وهي تتوقف قرب باب غرفتها. لا يستطيع أحد أن ينتزع شيئًا من «فريزر» سواء بالإقدام على استعمال

الأساليب الملتوية أم الإحجام عنها. وهي لا ترغب في المحاولة. وخصوصًا لإشباع فضول «جيل» وقالت:

– سأترك هذا لك. وابتسمت ثم أغلقت باب غرفتها بهدوء.

بعد العشاء ذهبت «سارة» مع «هيو» إلى المكتبة لإنجاز بعض العمل؛ إذ أراد إنهاء بعض المراسلات، وقال لها إنها تستطيع طباعة الرسائل في الصباح على أن تنتهي منها قبل موعد بريد العصر. بدأ «هيو» في بذلته الرمادية ضامر الجسم جذابًا. وجلست «سارة»، ثم أقبلا على العمل في صمت. وأحست بنبرات صوته العميقة – وهو يملي الرسائل عليها – تتلاعب بأعصابها بطريقة مزعجة. عندما انتهى، مدّ يده إلى سيجارة وأشعلها. وحبست «سارة» أنفاسها وعيناها تتحولان عن وجهه المنحوت من صخر، باحثة عن شيء تحوّل إليه انتباهها. ووقعت عيناها فجأة على خيالها في المرآة الطويلة قرب المدفأة فراحت تتفحص مظهرها بموضوعية. بدت البلوزة الفاتحة التي ارتدتها مع تنورة سوداء مخملية طويلة وكأنها قد زادتها نحولاً. في حين لاح شعرها هذه الليلة أكثر اشقرارًا وجمالاً. وفجأة، ودون سبب، أحست بالسعادة لأنها لم تكن بالفتاة القبيحة. عادت «سارة» بنظراتها إلى الغرفة، واحمرت وجنتاها، إذ قابلت نظرات «هيو» الساخرة. فوجئت «سارة» وارتبكت عندما قال لها «هيو» بغتة بلهجة مرحة:

– تبدين جميلة هذه الليلة. كما أن العشاء الذي أعددته كان لذيذًا. لا أعرف كيف تستطيعين التدبير، ولكن حدسي أنك تعرفين الطبخ كان صحيحًا.

– ولو لم يكن؟

– إننا على شيء من التهذيب، حتى في هذه المناطق المتوحشة. واستطرد مبتسمًا:

– هذا يثير دهشتي. إن «بيدي» تبدو مرتاحة ولم تلجأ «جيل» إلى الشكوى. يجب أن أعترف بأن كفاءتك أحيانًا تثير دهشتي. نظرت إليه «سارة» بتحدٍّ، وأجبرت نفسها على عدم الاستسلام للضعف ردّت وقد أغاظتها صراحته الفجة:

– إن الكفاءة والمظهر الحسن غالبًا ما يسيران جنبًا إلى جنب. هناك أنواع للجاذبية وحسن المظهر. إن الرجل يحتاج إلى أن يحتفظ بهدوء أفكاره. لم تبذل «سارة» جهدًا لكي تحتفظ ببرود أعصابها. وحولت عينيها لكي تتجنب نظرة الاستخفاف من

www.rewity.com

عينيه الداكنتين. لقد كان الخطأ خطأها. ما كان يجب أن تستثيره. كيف تأمل فتاة مثلها أن تخترق توازنه الفولاذي. وردت متجاهلة نبرة السخرية في صوته:

– إن الكفاءة ليست من احتكار السن. وتابعت بعناد:

– كما تعرف دون شك.

– إن النساء يعرفن معظم الإجابات قبل أن يغادرن المهد. أما الرجال فهم يبتدئون عادة بداية سيئة. خذي «ماكنزي» مثلاً، لقد قهرته بنظرة واحدة من عينيك الزرقاوين على الرغم من أنك فرضت عليه الانتظار. ألقت «سارة» عليه نظرة سريعة وقد اعتراها الخجل وقالت:

– آسفة! تمتمت قائلة وهي تنظر إلى يديها:

– كنت أتحدث إلى «جيل» مما جعلني أنسى الوقت. كرهت «سارة» أن تشرح له أن «جيل» نسيت أن تبلغها رسالته حتى اللحظة الأخيرة. من الأفضل أن تدعه يظن بها الإهمال بدلاً من أن تعرّض علاقته المتوترة بأخته لمزيد من الضغط. لقد أخطأت دون شك لأنها نسيت أن تعتذر لـ «أيان». إن منظره الفتيّ نسبيًا أذهلها عن القيام بالواجب. ولكن هذا التفسير سيبدو سخيفا لو تفوهت به. ولهذا اكتفت بأن تضيف بهدوء:

– شرح لي الدكتور «ماكنزي» بعض الأشياء المتعلقة بـ «بيدي» عندما ذهبت معه إلى السيارة لإحضار بعض الحبوب.

– تصرف سليم يا آنسة «دينتون»! ثم قال بلهجة مصقولة وهو ينهض ببطء مبتسمًا بلين:

– اسمحي لي! تدفق الدم في وجنتي «سارة» وهي تهب على قدميها متجنبة وجهه المرتاب وقالت بسرعة:

– إذا لم يكن هناك ما أفعله، فإنني أحب أن أخرج لأتنسم الهواء. «جيل» ذهبت إلى سريرها مبكرة، لقد سمعتها تصعد الدرج قبل قليل، و «بيدي» لا تحتاج إلى شيء. فاستدار بسرعة ليطفئ النور، ثم خرجا من الغرفة:

– إذا لم يكن لديك ما يدعو إلى الاعتراض، فسآتي معك! أوقفتها نبرة صوته الثاقبة. كان القمر بدرًا. وهي دائمًا تحب التجول وحدها. إنها لا تريده أن يصاحبها فهي

تود أن تريح أعصابها وتسترخي. ونظرت «سارة» إليه شبه يائسة وقالت:

– أفضل أن أذهب بمفردي، إذا لم يكن لديك مانع. إن الوقت ليس متأخرًا.

تجمدت نظرة «هيو» الواثقة وقال:

– لدي مانع، ثم إن خروجي معك أفضل لسلامتك، هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن إنقاذك في وضح النهار كان صعبًا ما فيه الكفاية وبالإضافة إلى أني أيضا أشعر برغبة في المشي، وهناك بعض الأمور التي أريد مناقشتك بشأنها. غدًا سأسافر إلى «لندن»، ولن يسمح لي الوقت بالتحدث إليك. كيف تستطيع أن ترفض؟ ودون أية معارضة أخرى وضعت على كتفيها شالاً بدلاً من أن ترتدي معطفًا؛ لأنها كانت لا تنوي الابتعاد مسافة طويلة. كانت النجوم تتألق بشدة في سماء خلت من الغيوم. وهبت ريح خفيفة. وبدت القلعة كبناء أسطوري تحت ضوء الكواكب، بينما جاشت الفضة في البحر الذي عكست أمواجه ضوء القمر. وأحست «سارة» بجمال المنظر وهي تتبع «هيو» إلى الشاطئ بأسى.

سارت بسرعة وكأنها أرادت ألا تطيل هذه اللحظات لشعورها الحادّ بالرجل المحاذي لها. وسلكا الطريق الذي كان «هيو» قد دلّها عليه في السابق، ولكنها كانت تضطر بين الحين والآخر إلى التمهل؛ لكي تلملم شعرها الذي راحت الريح تعبث بخصلاته ناثرة إياها فوق وجهها وعينيها. وهمهمت بغيظ؛ لأن شعرها وتنورتها الطويلة أخذا يعيقان حركتها، وجرت لتلحق بـ «هيو». توقف «هيو» فجأة، وضحك بصوت منخفض. وقفزت نبضاتها عندما شعرت به يمسك بيدها ويشبك أصابعها حول أصابعه بتكاسل.. كانت أصابعه نحيلة وقوية وأخذت تعبث بتمالكها لنفسها. وبدأ شيء في أعماقها يتحرك ببطء...شيء جديد مثير للفزع. وسببت لمسته شعورًا لاذعًا في حنجرتها.

صرخت بومة ليلية فوق إحدى الصخور العالية صرختها الموحشة. وبصعوبة سمعتها «سارة»، ولكنها أحست في نغماتها تحذيرًا. ووصلا إلى أرض أقل وعورة فابتهلت «سارة» ألاّ يشعر «هيو» بارتعاشاتها المتشنجة؛ لأنها ما أرادت أن يعرف الشاعر العاصفة التي ثارت في قلبها. لقد مدّ «هيو» يده إليها ليساعدها كأنه يساعد طفلة. ولهذا فإن ردّ فعلها القوي ليس إلاّ استجابة حسية بحتة، حيلة من حيل الليل.

www.rewity.com

واستدارت «سارة» لتواجهه وقد أحست بأنها غير قادرة على متابعة هذا التحليل الصارم لمشاعرها. وتفوهت بأول جملة خطرت لها:

– متى تعود إلى «لندن»؟ أعطى الصمت العميق لكلماتها رنة من الاستفهام اللاهث. فندمت «سارة» في الحال على سؤالها. توقف «هيو» ومدّ يده ليزيح خصلة عنيدة من الشعر الملتف حول حنجرتها، كاشفًا عن كمال انسياب خطوط وجهها من الجبين حتى العنق وسألها:

– هل أنت سعيدة لأنني سأسافر يا «سارة»؟ وكانت في لهجته نبرة غامضة. وتفحصتها عيناه الثاقبتان في الظلام. حاولت «سارة» أن تقلد أسلوبه الهادئ المجرب، وهي على يقين بأنها ليست ندًّا لبراعته اللفظية. وتذكرت أنه قد هزئ في إحدى المرات من عدم قدرتها على ردّ الكيل بمثله. إنها على استعداد للاعتراف بضعفها هذا ولكن ليس تمامًا.

– لقد سبق أن ذكرت أنه باستطاعتي أن آخذ إجازة في أثناء غيابك. أجابت «سارة» بذلك متعمدة أن تعيد حديثًا جرى بينهما في السابق. فرد «هيو» وأسنانه البيضاء تلمع:

– لقد اخترت أن تذكريني بوعدي، ولم يمض على تقلدك لمنصب مديرة منزلي إلاّ وقت قصير، ولكن، هذا إذا لم تخني ذاكرتي؛ لأنه كان هناك قيد.

– قيد؟

– لقد وعدت بأن تراقبي «جيل».

– دون أن أختار تجاهل «هيو» ملاحظتها، وقال:

– إن ازدياد المسؤوليات سيساعدك على النضج، أم أنك لا ترغبين في هذا؟

– لست محتاجة إلى النضج. فأنا قد بلغت الـ 21 عامًا. ألا تعرف؟

– سن متقدمة! وضحك إلاّ أن ضحكته هذه المرة كانت خالية من التسلية. وثبت عينيه على وجهها المتألق في ضوء النجوم، وقال بجفاء:

– إن العمر لا يقاس بالسنوات، بالضرورة.

– تعني الخبرة؟

– تستطيعين قول ذلك، ولكن الخبرة هي شيء بعيد عن متناولك، كما أتخيل. علق

بذلك رادًّا لها الصاع صاعين. فارتعشت «سارة»، ولكنه تابع دون رحمة:

– لاشك في أن تعلقك بحماية والديك قد حال بينك وبين التجربة. حدّقت «سارة» إلى وجهه الأسمر الجذاب، وقد تناثر شعرها كالحرير فوق كتفها، ذائبًا في نور القمر.

– لقد تحرّيت أموري، إذن. قال مائلا باتجاهها:

– لم تدع الحاجة إلى ذلك يا فتاتي. فما على المرء إلاّ أن يراقبك ليصل إلى هذه النتيجة. فأجابته «سارة» بصوت رفيع يغلي بالغضب:

– إنك إنسان مستحيل.

– وأنتِ أيضًا. دعينا نعلن هدنة بيننا. عضت «سارة» على شفتها بشدة، محاولة السيطرة على نفسها كي لا تتشاجر معه بعنف. ولم تذكر أنها شعرت بمثل هذا الغضب من قبل. وابتعدت عنه عدّة خطوات وانحنت لتلقط حصاة كانت تحت قدميها، ورمتها بقوة بعيدًا، إلى حيث راحت الأمواج تتكسر على الشاطئ. ثم أخذت نفسًا عميقًا، وقالت:

– كيف تريدني أن أتصرف مع «جيل» في أثناء غيابك؟ إنها لم تذكر شيئًا عن صديقها. هل أنت متأكد أن لها صديقًا؟ فأجاب «هيو» بحدة وكأن تغيير الموضوع قد أثار استياءه:

– أؤكد لك أنه موجود. لقد تنازعنا أنا و «جيل» بشأنه في أثناء عودتنا من المطار. تبعت «سارة» شعاعًا من نور القمر فوق الرمال. ولاح وجهها رقيقًا عكس القلق المرتعش وقالت:

– إن المعارضة غالبًا ما تؤدي إلى النتيجة العكسية.

– هل تريدين حقيقة أن نتكلم عن «جيل»؟ كانت الرمال تتسرب من خلال أصابع قدميها وصندلها موحية إليها بشعور وثير عذب، وراحت رائحة البحر تغزو حواسها مفعمة الهواء بما يشبه السحر. وتحركت الرغبات. لم تكن تلك الليلة مناسبة للتفكير المنطقي، ولكن «سارة» صممت على أن تستمر في المحاولة فقالت:

– لقد ظننت أن هذا هو السبب الذي دفعك إلى مرافقتي. ارتفع حاجباه الداكنان بحركتهما المعهودة، مما أعطى وجهه في ضوء القمر تعبيرًا متهكمًا: وقال بنعومة

ساخرة:

– إن ليلة كهذه لم تخلق للنقاش. فتصلب جسم «سارة». وبدت كحورية بحر على استعداد للهرب: عيناها مستديرتان، ورأسها مرفوع إلى الوراء فوق عنقها النحيل. وغلبها شعور غريب عمره كعمر الأبد، فابتلعت ريقها وقالت:

– لا أظن أنني أفهم ما تعنيه. فلمعت عيناه، وتأملها بنظرة طويلة مقصودة:

– ألا تظنين أنه قد حان الوقت لتفهمي؟

– ليس هناك ما يجبرني على الإصغاء إلى مثل هذه الكلمات. قالت ذلك بضعف، وهي تطرق بعينيها تحت وطأة نظراته الفاحصة المستعصية. فضحك ضحكة عميقة وقال:

– لن أمثل دور الرجل المتوحش البدائي، إذا كان هذا ما يقلقك. ارتجفت «سارة» عندما مدّ يده مرة ثانية إلى شعرها، لاوبًا خصلة منه حول أصابعه راحت تتألق في ضوء القمر. وتابع مكملا حديثه بصوت مشدود:

– ولكنني لا أملك إلاّ أن أتساءل كيف ستتصرفين لو فعلت. هل هذه الهالة من البراءة التي تحيط بك ليست سوى غلاف سطحي يا ترى؟ عندما تختار فتاة مثلك أن تدفن نفسها في جزيرة نائية فإن السبب في العادة لابد أن يكون رجلا.

– أتعني أنك لا تعرف السبب وراء قدومي هنا؟ أجاب بسخرية لا تحتمل:

– لقد ظننت أنه من المثير أن أحاول معرفته، خصوصًا بعد أن رأيت الطريقة التي نظرت بها إلى «أيان ماكنزي».

واشتعل غضب «سارة» ليتلاشى بالسرعة نفسها. ومسحت على جبينها بيدها كالمنومة، وقالت:

– كيف تجرؤ؟ ماذا لو قلت لك إن السبب هو إحساسي بالتعاسة؟

– وفري عليّ التفاصيل البائسة. إن كتفي لم تُخلق لتجفيف الدموع. أجابت «سارة» بعنف، رادة كلماته إلى نحره.

وعيناها تفيضان بدموع لم تذرفها نتجت من الجرح العميق الذي سببه لها:

– لا يمكن لامرئ صحيح العقل أن يظن بك مثل هذا الظن. وندمت على النزوة التي كادت أن تدفع بها إلى الإفضاء إليه بالحقيقة عن والديها، وحركت رأسها بسرعة،

لكي تخفي وجهها المبلل بالدموع تحت خصلات شعرها الثقيل. ولكن «هيو» لاحظ لمعان الدموع في عينيها.

– وفري عليّ هذه الدموع. أعدك بأن أطلق العنان لغضبي كالبركان إذا ما استسلمت للبكاء، أو لعله من الأفضل أن أخلق لك سببًا يدعوك إلى البكاء! شعرت «سارة» بجسمها يطفو في الهواء، تتدافعه صعودًا ونزولا زوبعة عواطفها الثائرة. صُدمت «سارة» عندما عانقها «هيو»، لأنها كانت على جهل بالمشاعر التي كانت تجيش في نفسه باستثناء غضبه، وأحست بقربه منها يحجب قدرتها على التفكير الواضح. وفجأة، ودون إنذار، انتزع ذراعيها من حول رقبته وأزاحها بحزم بعيدًا عنه، فترنحت «سارة» تحت صدمة هذا الرفض غير المتوقع. وتناهى إليها صوته خشنًا قاسيًا:

– لم تتصرفي وكأن قلة الخبرة التي تدّعينها قد شكلت لك عائقًا. أحست بوقع كلماته عليها كالماء البارد. فعاد إليها وعيها. إنه لمن الجنون أن تدعه يعاملها بمثل هذه الطريقة.

– ما الذي جعلك تتصرف هكذا؟

– الله وحده يعلم... الإغراء... الاستفزاز! وسرت نظراته فوق جسمها النحيل تومض بلمعة استحسان مزعجة:

– ما كان يجب أن آتي معك إلى الشاطئ.

– لم أشجعك. وغطت كلماتها حاجتها اليائسة لبعث ثقتها بنفسها من جديد. استعاد «هيو» تمالكه لنفسه وبدا وجهه كالقناع الجامد وقال:

– هناك عدة طرق لتشجيع الرجال يا «سارة». وأنت تفعلين ذلك دائمًا لا شعوريًا.

– هذه كلمات مريضة. كيف تستطيع التفوه بها؟

– هذه هي الحقيقة يا «سارة»، سواء أكنت عالمة أم جاهلة بها. أنت تجذبين الرجال كما يجذب اللهب الفراش. حدقت إليه «سارة» مرتاعة هل يظن أنها معتادة مثل هذه التصرفات؟

– أظن أنك قد ارتكبت خطأ. أجاب بقوة وبصوت بدأ الغضب يذوب منه:

– لا ولكن الوقت متأخر، وأنت تبدين متعبة، ثم إننا لا نريد أن نبدأ شيئًا لا

نستطيع أن ننهيه. يحسن بنا أن نعود. وكما قلت سابقًا ما كان يجب أن آتي معك.

– ولكنك قلت إن هنالك بعض الأمور التي تريد أن تناقشني بشأنها. وبصعوبة استطاعت «سارة» أن تدرك فحوى كلماتها لأن ذهنها كان ما يزال يعاني أثر الصدمة.

– ليس هنالك من لا يستطيع الانتظار. لفت «سارة» الشال حول جسمها، وحدقت إلى البحر أمامها. كان القمر قد اختفى وراء غمامة مما جعلها غير قادرة على تبين موقع خطواتها إلاّ بصعوبة. وتعثرت فجأة، ولكن يده امتدت إليها في الحال لتسندها، إلاّ أن لمسته الآن كانت جافة خالية من المشاعر، وراح يساعدها على صعود الدرب الضيق الغارق في الظلام. وأحست «سارة» بأنه قد ندم على مغازلتها. وبذلت «سارة» محاولة شبه مكشوفة لتجمع شتات نفسها. وسارت دون أن تعلق على كلمات «فريزر» الأخيرة. وتمهلت خطوات «هيو» بجانبها، وبدا وجهه الداكن عصيًا على القراءة. ثم تناهت إليها كلماته المفعمة بالسخرية:

– لا داعي إلى أن تغلقي الأبواب في وجهي، لأن المصادفة شاءت أن أكون رئيسك. أنت دائمًا تصرين على الإشارة إلى وضعك ووظيفتك حتى أصبحت فكرة لا تتزحزح في رأسك الرجعي الجميل هذا. من المعروف أن كثيرًا من الفتيات ينتهين إلى الزواج برؤسائهن. سرت القشعريرة في جسم «سارة». إنه يحاول أن يجعل الموقف يبدو مسليًا. لقد كان من الممكن أن تغفر له عدم اهتمامه، ولكنها لا تستطيع أن تغفر له هذه السخرية اللاذعة. وابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت:

– لم أعمل في خدمة العديد من الرؤساء يا «سيد فريزر».

– من الآن فصاعدًا، يا صغيرتي، ثائرة اللهب، ناديني باسمي: «هيو».

ارتجفت «سارة». من الواضح أن أسلوبها المتكلف قد ضايقه. ولكنها تفضل أن تواجه غضبه على أن تدعه يكتشف الطريقة المؤلمة التي استجابت بها له. حمدًا لله على قرب موعد سفره. في أثناء غيابه ستحاول أن تتعلم كيف تواجه هذه الكتلة من العواطف الجياشة التي تعتمل في نفسها، حتى إذا ما عاد استطاعت أن تواجهه بنوع من الموضوعية، ولو لم تشعر بها.

أطلت القلعة مهيمنة، وصاح طائر بين الأشجار، وارتعدت «سارة»، إذ حادت نظراتها عن وجه «هيو» الساخر لترحل عبر الريح والسماء فوقها. وأحست بأنوثتها كما لم تحس بها من قبل. ولكنها صممت على ألاّ تدعه يخمن مشاعرها. أخذت «سارة» نفسًا عميقًا. وأشاحت بوجهها لتخفي قطرات الدموع التي لسعت عينيها.

– من الأفضل أن أذهب الآن. لقد وعدت «بيدي» بأن أعد لها شرابًا ساخنًا. ستتساءل إلى أين ذهبت إذا لم أفعل. واستدارت ثم عبرت الباب الأمامي الضخم بخطوات سريعة.

– 5 –

غادر «هيو» القلعة مبكرًا في صباح اليوم التالي ليذهب إلى «لندن». وكانت «سارة» قد نهضت من فراشها متأخرة بعد ليلة غير مريحة مما أثار غيظها. وهرعت إلى الأسفل لتجد أن «هيو» قد خرج بعد أن تناول فطوره بمفرده. ونظرت «سارة» إلى كرسيه الفارغ بمزيج من الارتياح واليأس. قالت «كاتي» من وراء ظهرها:

– كان مستعجلا جدًا يا آنسة «سارة». طلب إليَّ ألا أوقظك، لأنه قدّر أن تكوني متعبة. ولم ينتظر حتى أقلي له بعض البيض. لقد أخذت بعض الشاي إلى «بيدي» قبل قليل. وهي تصر على مغادرة الفراش واستئناف العمل.

– آه، لا! وأسرعت «سارة» تصعد درجات السلم إلى غرفة «بيدي» باستياء شديد لكي توبخها. ولما استطاعت أخيرًا أن تقنعها بالبقاء في السرير، وجدت في انتظارها مجموعة من المشاكل مما اضطرها إلى أن توفر لها اهتمامها الكامل، ولم تجد وقتًا لتناول أكثر من فنجان قهوة وقطعة خبز محمصة. قالت «كاتي» وهي تقوم بإعداد صينية فطور باهتمام:

– الآنسة «جيل» تشعر بالتعب. ولن تغادر غرفتها قبل موعد الغداء. لم تنزعج «سارة»، لأن هذا الترتيب من شأنه أن يتيح لها طبع رسائل «هيو» والحصول على توقيعه قبل ذهابه. وعندما رأته أخيرًا لم يبد عليه القلق بشأن «جيل». وقال لها:

– هذا شيء متوقع، كما أعتقد. لاشك في أنّ الرحلة قد اتعبتها وستحتاج إلى الراحة

لفترة قبل أن تستعيد قواها. وهذا يعني أنها لن تسبب لك كثيرًا من المضايقات قبل عودتي. بدا واضحًا أنه ما كان ينوي أن يبدي عواطف الشفقة! ودون أن يضيّع مزيدًا من الوقت وقّع الأوراق ونظر بسرعة إلى بريد الصباح. قال وهو يرمق مكتبه بسرعة:

– سأغادر بعد قليل. ثم حطت عيناه على وجه «سارة» المصفر وقال:

–أتوقع أن تديري الأمور بكفاءة، ولكن إذا ما حدث أي شيء واحتجت إليّ يمكنك الاتصال بي في مكتبي. هذا هو الرقم. سأترك لك أيضًا رقم الشقة، كي لا تجدي صعوبة في الاتصال بي عند الضرورة. نظرت«سارة» بكآبة إلى رأسه الداكن وهو ينحني ليكتب رقم الهاتف. وكان قد ارتدى بدلة أنيقة فوق قميص مقلم فاتح مما أبرز سمرته ورجولته.استقام «هيو» بقامته واستعرضتها نظراته ببطء حتى استقر على الضماد الطبي فوق ذراعها. فانفغرت شفتاه عن ابتسامة خفيفة ساخرة وقال:

– لاشك في أن الدكتور «ماكنزي» سيعتني بك. لا تسمحي لنفسك بالوقوع في شباكه تمامًا يا «سارة». أزاحت «سارة» رأسها بسرعة متجاهلة كلماته. وتصنعت الاستخفاف. ولكن ملاحظته آلمتها، فأجابت:

– قد تعود من «لندن» قبل أن يأتي لزيارتنا ثانية. ورفعت رأسها فوجدت عينيه مصوبتين عليها، فتسمرت تحت وطأة نظراتهما النفاذة للحظة. ثم أجبرت ذهنها على التحوّل إلى الاهتمام ببعض التفصيلات التي بقي عليهما إتمامها، رافضة أن تدع ذهنها يعود إلى ليلة البارحة. وعلى الرغم من هذا شعرت بحمرة الخجل تصبغ خديها، فأسرعت لتجمع حزم الرسائل وأخذت ترتبها.

– أشك في هذا. إن الرجال أمثال «ماكنزي» لا يقعون تحت تأثير النساء بسهولة، ولكن عندما يفعلون لا تستطيع حتى الخيول البرية أن تصدّهم. هل حملت ملاحظته نوعًا من التحذير الخفي؟ لا شك في أنه قصد أن يلفت نظرها إلى حقيقة نوايا «ماكنزي»، هذا إذا كانت لديه نوايا! ولكنه ليس بالقيّم عليها. إن «أيان» على الأقل قد تصرّف بمنتهى اللياقة، أما «هيو» فإن سلوكه يتأرجح بين اللطف والخشونة من لحظة إلى أخرى. وردّت «سارة» متسرعة تحت وطأة السخرية في عينيه:

– لقد وقعت أنت نفسك تحت تأثير الآنسة «أسكويث» في الأمسية الفائتة. انكمش

«هيو» في الحال. وأحست بأفكاره تنفصل عن ذهنها، وكأنه انسحب بجسمه من الغرفة. وبلل العرق كفيها؛ إذ تجسمت لها فجأة جسامة حماقتها، ولكنه عندما تكلم جاء صوته ثابتًا، على الرغم من أن السخرية ما تزال عالقة به:

– لعله يمكننا تشخيص مزاجنا هكذا: مواجهة الصباح بعد ليلة البارحة. وهزّ كتفيه باستخفاف. وكانت هذه هي الملاحظة الوحيدة التي أبداها بشأن نزهتهما على شاطئ البحر. فغمرها الخجل الشديد. توقف «هيو» للحظة ليتأمل اللون الوردي الذي تألق في خديها وقد رفعت رأسها المتلألئ لتحدق إلى عينيه. وكان وجهه قريبًا منها فأشاحت بوجهها لتتجنبه.

– آسفة! واعتذرت بلهجة يائسة، محاولة أن تخفي ضربات قلبها وهي لا تدري ماذا تقول، فالتمعت عيناه بسخرية لا قرار لها. ومد إصبعه إلى خدها المحمر ناقرًا إياه بخفة. ثم أدار ظهره فجأة قائلا من وراء كتفه وهو يتجه نحو الباب:

– سأراك عندما أعود.

لم تستطع «سارة» أن تستقر في البيت بعد الغداء. ولهذا قررت أن تذهب إلى القرية لتضع الرسائل في البريد. وطلبت إليها «بيدي» أن تحضر لها بعض الحوائج كما طلبت منها أن تذهب لزيارة أختها التي كانت على موعد معها هذا العصر. ولما لم يكن بالامكان أن تخرج «بيدي» من القلعة فقد وعدتها «سارة» بأن تسأل عمّا إذا كانت أختها تحب أن تأتي لزيارتها لمدة ساعة أو ساعتين. سعدت «سارة» بهذه الفرصة لمغادرتها القلعة التي بدت موحشة بعد ذهاب «هيو». لم تهبط «جيل» إلى الطابق الأسفل إلاّ بعد رحيل «هيو».وأمضت بقية الصباح في التجول من غرفة إلى غرفة دون هدف. واقترحت «سارة» عليها أن تأتي معها إلى «سالن»، ولكن «جيل» لدهشتها رفضت. قالت بصراحة وهي تتثاءب مكورة فمها الوردي الصغير:

– لا أرغب في أن أفعل أيّ شيء سأصاب بالملل دون شك. أنا واثقة بأنك ستتمتعين بنزهتك أكثر بغير وجودي. أوشكت «سارة» أن ترد عليها قائلة بأن خروجها ليس للمتعة، وأن الإنسان يحتاج أحيانًا إلى تنفس بعض الهواء النقي، ولكنها أحست بأنه من الحكمة ألاّ تقول شيئًا. من الواضح، لسبب لا يعرفه أحد غيرها، أن «جيل» تعاني سوء المزاج. وعندما ألمحت إليها «سارة» بأن مزاجها سيتحسن عندما تستعيد

www.rewity.com

صحتها ردت قائلة:

– إنني لست معقدة. وكانت لهجتها غاضبة، إذ أغاظتها لهجة التفاؤل في كلمات «سارة». ابتسمت «سارة» مكرهة. من السهل اثارة مشاعر «جيل» العدائية، ولكنها إذا ما أردات أن تعيش معها تحت سقف واحد، فإنه من الأفضل أن تكون معها على وفاق. بعد قليل تركتها «سارة» تستمع إلى بعض الأسطوانات، وهرعت إلى السيارة. اقتربت «سارة» من الـ «جاغوار» باحتراس. لقد سمح لها «هيو» باستعمالها شريطة أن تلزم جانب الحذر. أجابها بصبر نافد عندما احتجّت بأنها لم تجربها بعد:

– «كل ما تحتاجينه هو استعمال عقلك».

ركبت «سارة» السيارة وتمنت مبتهلة أن يكون «هيو» على حق وهي ترجع بالسيارة الكبيرة إلى الخلف لتخرجها من الكاراج. وتخيلت التعليقات اللاذعة التي لابد أن يبديها «هيو» فيما لو سببت حادثًا للسيارة، أو ألحقت بها الأذى. هذا على الرغم من تهاونه معها في استعمال السيارة! يحتمل أن تكون تعليقاته في مثل هذه الحالة أسوأ من التعليقات التي كان بوسعه أن يتفوّه بها عندما أبدت ملاحظتها بشأن «بيث أسكويث». لاشك في أن التمالك والسيطرة على النفس اللذين يذلهما... هذا الصباح يستحقان الإعجاب إذا ما أخذ المرء بعين الاعتبار لذاعة لسانه حتى في الأحوال الطبيعية. في «سالن» ألقت «سارة» الرسائل في صندوق البريد. واشترت الحاجات التي طلبتها منها «بيدي». وبعد أن وضعت المشتريات في صندوق السيارة قررت أن تذهب للبحث عن شقيقة «بيدي». لم تكن إرشادات «بيدي»واضحة. كانت قد طلبت منها أن تبحث عن بيت صغير في الجانب الآخر من البلدة. وقالت:

– أي شخص يستطيع أن يدلك عليه. ولكن «سارة» لم تجد أي شخص حولها لتوجه إليه السؤال. وأنّبت نفسها، لأنها لم تسأل عن البيت في مكتب البريد. وكانت «بيدي» قد أعطتها اسم البيت أيضًا. ولما لم تكن على عجلة من أمرها، فقد قررت أن تذهب للإستكشاف. وكان العصر دافئًا ولطيفًا. ولهذا فإن البحث عن البيت سيعطيها فرصة لتعرُّف ما حولها. ولم تشك في أنها ستعثر عليه قريبًا. وفجأة عند منعطف الطريق، شاهدت «كاتي» تتحدث إلى رجل ملتح. كانا يقفان

جنبًا إلى جنب، والأشجار تكاد تحجبهما، مستغرقين في الكلام. توقفت «سارة» بدهشة. وشخصت بناظريها. يبدو أنه مكتوب عليها أن تلتقي به دائمًا، آخر مرة في «توبرمري»، والآن هنا! ولكن عامل المفاجأة هذه المرة هو أن تراه يتحدث إلى «كاتي». لاشك في أنه واحد من سكان الجزيرة. أو قد يكون صديق «كاتي»، على الرغم من أنها ذكرت أن صديقها لا يعيش في هذه الجزيرة، أو لعله ليس إلاّ عابر سبيل توقف ليسأل «كاتي» عن الطريق. هناك تفسيرات عديدة. واستدارت «سارة» وقد فقدت اهتمامها لتتابع بحثها عن البيت. وأخيرًا عثرت عليه في الجانب الآخر من القرية. وبعد أن عرّفت بنفسها انتظرت حتى ارتدت أخت «بيدي»، الآنسة «بلاك»، أفضل معطف وقبعة لديها.

– لا يناسب القلعة إلاّ الأفضل. قالت الآنسة «بلاك» ذلك بغموض وهي تستقر في المقعد بجانب «سارة»:

– هذا ما قاله السيد «فريزر» العجوز أمامي عندما جاء ليستقر هنا، وقد ردّد هذه الكلمات ذاتها فيما بعد مشيرًا إلى الجزيرة. إنني لأتساءل عمّا إذا كان السيد «فريزر» الشاب يحمل الرأي نفسه. أدركت «سارة» أن الآنسة «بلاك» عنت «هيو»، وأن فضولها يدفعها، كالآخرين، إلى محاولة معرفة ما إذا كان ينوي أن يتخذ «لوخ غويل» مقرًا له. ولما ردّت «سارة» قائلة إنها لا تعرف. بدت خيبة الأمل واضحة على قسماتها التي تشبه قسمات الطيور. وكتمت «سارة» رغبتها في أن تضيف متنهدة بأنها هي أيضًا تتمنى لو تسمع منه قرارًا في هذا الشأن. من المحتمل أن إجبار كل هؤلاء الناس على العيش في حالة توقع يعطي «هيو» شعورًا بالأهمية، وهو شعور لا تستطيع أن تشاركه إياه، ولكي تتجنّب أفكارها المزعجة راحت «سارة» تثرثر متحدثة عن «بيدي». وسرها أنها قد نجحت في تحويل انتباه الآنسة «بلاك» فقالت:

– آمل أن تتحسن «بيدي» خلال يومين أو ثلاثة ردت عليها أخت «بيدي» قائلة:

– لقد قلت لها مرارًا إن الوقت قد حان لكي تتقاعد. لا لأنها قد عجُزت كثيرًا، ولكن لأن آلامها ستتفاقم إذا لم تعتن بنفسها.كان من الصعب إيقاف أخت «بيدي»

www.rewity.com

عن الكلام بعد الشروع فيه. ولهذا تركتها «سارة» تتكلم، معيرة إياها انتباهًا بسيطًا؛ لأن أفكارها أصرّت على العودة إلى «كاتي» والرجل الغريب. سألت «سارة» عندما أبدت الآنسة «بلاك»، ويا لحسن الحظ، ملاحظة تتعلق بـ «كاتي». ولم تعرف «سارة» لماذا سألت هذا السؤال.

– إن «كاتي» هي ابنة أخيك، أليس كذلك؟

– ليست ابنة أخي بالضبط، بل قريبة بعيدة نسبيًا. وكان من حسن حظها أن تعثر على وظيفة في القلعة عندما رفضت أن تترك الجزيرة.

– لماذا؟ أعني إن الحياة الهادئة في القلعة لا تناسب فتاة يافعة مثل «كاتي»؟

– نعم. من بعض النواحي. تابعت الآنسة «بلاك» دون أن يبدو عليها أنها وجدت شيئًا غير عادي في سؤال «سارة»:

– قد يتبرم معظم الناس من مثل هذا الهدوء. إن قلة الوظائف هي المشكلة الحقيقية، ولكن لكي تكوني على علم أكثر بالموضوع، سأفضي إليك بأن والدة «كاتي» ماتت عندما كانت طفلة؛ ولهذا تولينا أنا و «بيدي» أمر رعايتها. وقد أمضت «كاتي» جزءًا كبيرًا من طفولتها وصباها في القلعة، ولعبت مرارًا مع الآنسة «جيل» التي كانت تأتي لقضاء عطلاتها هنا. ولهذا يمكن القول بأنهما شبتا معًا على الرغم من اختلاف ظروفهما- تعرفين ما أعني؟ وإلى الآن ما زالتا صديقتين حميمتين. وكان هذا أحد الأسباب التي دفعت «كاتي» إلى أن تذهب للعمل في القلعة بعد أن تركت المدرسة.

بدأت الأمور تتضح لـ «سارة» بعد هذا الشرح الطويل. وقالت بابتسامة:

– لقد وصلت «جيل» البارحة. أتوقع أن تكون «كاتي» سعيدة بلقائها. وأضافت بحذر:

– أعتقد أنني لمحت «كاتي» بينما كنت أبحث عن بيتك، في «سالن»، هذا إذا لم أكن على خطأ.

– لا، لا أعتقد أنك أخطأت. وهزت المرأة الصغيرة رأسها الرمادي، وعلا العبوس وجهها الذي لوحته شمس البحر وأضافت قائلة:

– ولكن آمل ألاّ تظني أنها تختلس الوقت من وراء ظهرك. لقد جاءت لتراني لبضع لحظات. وقالت إنها قد أتت إلى «سالن» بغرض إبلاغ رسالة من الآنسة «جيل»

إلى صديق. لم تذكر اسم الشخص المقصود، ولكنها ستعود إلى القلعة في الحال بعد تبليغ الرسالة. هذا ما قالته. أظلمت السماء بغتة، وأخذت قطرات المطر تتساقط على زجاج النافذة، فسارعت «سارة» إلى إدارة المجفف لمسح الزجاج أمامها. قالت لها الآنسة «بلاك»:

– آمل ألاّ تبتل تحت هذا المطر. قالت «سارة» مبتسمة باستياء وهي تضغط مكبس البنزين:

– هذا ليس إلاّ وابلا من المطر على ما أعتقد. و «كاتي» لا يزعجها المطر. فالأمطار تهطل بغزارة هنا. بدا على الآنسة «بلاك» أنها وجدت في تعليق «سارة» العابر باعثًا على الاطمئنان. واسترخت في مقعدها مصعدة تنهيدة ارتياح. ألقت «سارة» عليها نظرة سريعة. ثم راح ذهنها يجتر الحقائق التي كشفتها لها هذه المحاورة. بدا من الغريب أن ترسل «جيل» «كاتي» إلى «سالن»، لتحمل رسالة منها بعد الذي ذكرته عن شعورها بالتعب وعدم رغبتها في إزعاج نفسها بشيء، ثم إنه من المؤكد أن معظم معارف «جيل» في الجزيرة يملكون هواتف في بيوتهم، ولهذا فإن كل الملابسات تشير إلى مؤامرة تحاك في الخفاء. ولكن من المحتمل أن «كاتي» قد اختلقت هذا المبرر لكي تخرج من القلعة، مستغلة مرض «بيدي». وعبست «سارة» ضائقة بالقلق الذي غمر نفسها. وفجأة لمعت فكرة مفزعة في ذهنها: إن الرجل الغريب الملتحي تكلم بلهجة تدل على أنه قادم من الجنوب. لا، لا يمكنها أن تصدّق هذا. ولكن يمكن أن يكون هذا الرجل هو الفنان الذي تحبه «جيل». هذا الاحتمال هزيل دون شك. فالرجل غادر القارب معها عندما وصلا قبل ثلاثة أسابيع. ولو أنه كان صديق «جيل» لانتظر وصولها قبل أن يسافر. يجب ألاّ تدع خيالها وشعورها بالمسؤولية يسيطران على أفكارها بهذا الشكل. ساقت «سارة» السيارة إلى ساحة القلعة، وبعد أن ساعدت الآنسة «بلاك» على مغادرة السيارة أخذتها لترى «بيدي». ثم تركتهما معًا واعدة بأن تعود بعد أن تعدّ لهما بعض الشاي. وأخبرتها «بيدي» قبل أن تترك الغرفة بأن الطبيب جاء لزيارتها، وأنه وعد بأنه سوف يمر ثانية في الصباح. واستطردت تقول:

– لا أفهم ما حدث! ثلاث زيارات خلال ثلاثة أيام! إنني أخشى حتى وضع قدمي

www.rewity.com

على الأرض، على الرغم من أن آلامي قد زالت. وفكرت «سارة» وهي تهبط الدرج: «لقد كان «هيو» على حق إذن بشأن «أيان». أم هل كان؟ طبعًا، هي لا تعرف شيئًا عن عادات الأطباء في هذه المنطقة من العالم. ولكن ليس هنالك سبب واضح يدعو إلى تفسير زيارات «أيان» بغير الإخلاص للواجب». فوجئت «سارة» بـ «جيل» في المطبخ، التي استدارت بتلهف عندما سمعت وقع قدميها. ولكن خيبة الأمل حلّت محل التطلع عندما عرفت شخصية القادم. من الواضح أنها كانت تنتظر شخصًا آخر. وحيت «سارة» باقتضاب وأشاحت بوجهها عابسة بينما سارعت «سارة» إلى إعداد بعض الشاي.

– سآخذ الشاي إلى غرفة «بيدي». شرحت «سارة» مجيبة عن التساؤل الصامت في عيني «جيل»:

– إن الوقت ما يزال مبكرًا، ولهذا فستعد لنا «كاتي» الشاي عندما تعود من «سالن».

صاغت «سارة» جملتها باحتراس. وراحت تراقب وقع كلماتها على «جيل» بانتباه. لحظة صمت! ثم لاحظت «سارة» بارقًا من الحذر يزحف إلى عيني «جيل» على الرغم من أنها لم تفصح عن أي شعور بالفزع. ضحكت «جيل» فجأة، مشيحة بوجهها عن وجه «سارة» المرهف، وذهبت لتجلس قرب الموقد على كرسي «بيدي». وأسندت ظهرها متكئة إلى الوراء، شابكة ساقيها النحيلتين. وأحست «سارة» بأنها تراقبها من خلال جفونها شبه المطبقة، مما أثار الغيظ في نفسها. قالت «جيل» وهي تطلق ضحكة رقيقة:

– طبعًا. لو عرفت بأن «كاتي» كانت تنوي الخروج لسألتك أن توصليها بالسيارة إلى «سالن» عندما عرضت عليّ مرافقتك إلى هناك. من الواضح أن هنالك بعض الأسباب التي تدفع أحد هؤلاء الأشخاص إلى عدم التصريح بالحقيقة. بينما راحت تفكر فيما قالته «جيل». إذا كانت «جيل» صادقة فإن «كاتي» قد كذبت دون شك، ولكن لماذا تتظاهر «كاتي» بأنها قد ذهبت إلى «سالن» من أجل أن تحمل رسالة من «جيل»؟ لم يكن هناك ما يدعوها إلى اختلاق مثل هذا العذر؛ لأنها لا تعمل عادة في الفترة التي تتلو الغداء وتسبق تناول الشاي تمتعت «سارة» وهي تراقب وجه «جيل» الأملس:

– بما أن «كاتي» تقطن في «سالن» فإني أعتقد أنها ذهبت إلى البلدة لتزور خالتها.

لقد اصطحبت الآنسة «بلاك» من «سالن» لتزور «بيدي».

– الآنسة «بلاك»؟! لو أن «سارة» قصدت لا شعوريًا أن تفزع «جيل» فلقد نجحت؛ لأن «جيل» انتصبت في مقعدها فجأة، وجابهتها بوجه خال من التعبير. ثم هتفت بغضب:

– هل تعنين هذه المرأة العجوز الثرثارة التي لا تنقطع عن الكلام؟ إنّ المرء لا يستطيع أن يصدق نصف ما تقوله.

– من فضلك...! ورفعت «سارة» يدها بحركة دفاع عن النفس، وراحت تحدّق – بعينين غمرتهما الدهشة والفزع – إلى الفتاة الجالسة على الكرسي. إن الآنسة «بلاك» ليست امرأة ثرثارة كما وصفتها «جيل»، ولكن من الواضح أن قدومها مع «سارة» هذا العصر قد سبب إزعاجًا كبيرًا للفتاة. قررت «سارة»، مدفوعة بالرغبة في حماية نفسها، ألا تسمح للقلق أن يسيطر عليها. وكانت على وشك إتمام جملتها بعد صرخة التعجب التي أطلقتها عندما رن جرس الهاتف. فقفزت «جيل» التي لم يكن من عادتها أن تهب للمساعدة للرد على الهاتف. أما «سارة» فقد راحت تدهن بعض شرائح الخبز بالزبد. عادت «جيل» بعد دقائق وقالت:

– كانت المكالمة من «بيث أسكويث». وجلست على الكرسي. وبدا عليها أنها قد استعادت تمالكها لنفسها. ثم تابعت بابتسامة راضية:

– كانت غاضبة جدًا؛ لأن «هيو» سافر دون أن يخبرها. وسألتني عمّا إذا كان سيرجع قبل موعد الحفلة الراقصة في الأسبوع المقبل.

– حفلة راقصة؟ سألت «سارة» محاولة أن تكتم موجة الفرح التي غمرتها. فقد ظنّت أن «هيو» و «بيث» ذهبا معًا إلى «لندن».

– آه! حفلة راقصة تقليدية. إن والدة «بيث» تقيم واحدة في شهر حزيران (يونيو) من كل عام. وأحيانًا نأتي خصوصًا لحضورها، دون «هيو» بالطبع؛ لأنه غالبًا ما يكون في مكان ما في الخارج. لقد أخبرت «بيث» بأنني لا أظن أنه سيستطيع حضور الحفلة هذا العام أيضًا. مما جعلها تضع سماعة الهاتف بسرعة، ولكن... وحدّقت «سارة» إلى وجه «جيل» عابسة وقد لاحظت التعبير الشقي المرتسم عليه. قائلة:

– إن «هيو» يتوقع أن يكون هنا بعد يوم أو اثنين. لقد ذكر لي ذلك بنفسه. ردت

«جيل» بصوت ناعم ذي معان:

– هل قال ذلك؟ إن الدقة في تحديد المواعيد والأماكن ليست من طبع «هيو». أجابت «سارة» بثبات:

– لا تكوني حمقاء. ولكنها أحست بوجهها يشتعل خجلا بسبب التلميح الذي تضمنته كلمات «جيل». وختمت كلماتها قائلة بضعف:

– أظن أنك كنت تمزحين مع الآنسة «أسكويث».

– هذا كلام فارغ. وتجعد وجه «جيل» بتكشيرة غير لطيفة. وأردفت قائلة:

– أنا لا أستلطف الآنسة «أسكويث»، وأعرف أنها لا تحبني. ولهذا فلا داعي إلى أن تقفي بيننا مسلحة بسلاح الدبلوماسية! لم أجد ما يدعو إلى تهدئة قلقها. من الصعب أن يثق المرء بـ «هيو»؛ فهو يغيب أحيانًا لعدة أسابيع إذا راق له ذلك.

– هل من عادة سكان الجزيرة أن يقيموا عدة حفلات من هذا النوع؟ أجابت «جيل» باقتضاب:

– طوال فصل الشتاء. في أغلب الأحيان لا يتعدى الاحتفال تبادل الأحاديث والاستماع إلى بعض الأغاني، أو تناول الشاي والقهوة مع السندويتشات والكعك الساخن. أما والدة «بيث» فإنها تقيم حفلة كبيرة كل سنة تخصّص ريعها للجمعيات الخيرية، وتصر على أن يكون كل شيء في كامل الزينة والأبهة. ربما يصطحبك «هيو» معه إذا حضر في الوقت المناسب. تذكرت «سارة» فجأة دعوة «أيان ماكنزي»، فقالت باندفاع دون أن تفكر:

– في الحقيقة إن الدكتور «ماكنزي» دعاني إلى حضور الحفلة بصحبته. هزت «جيل» كتفيها بدون اكتراث، وبدا على وجهها الصغير عدم الاهتمام وقالت:

– حسنًا... يبدو أنك ستحضرين الحفلة بطريقة أو بأخرى. في الحقيقة إني أكره فكرة زواج «بيث» بـ «هيو». وأضافت دون أن تأخذ نفسًا:

– إلا أن «هيو» يجب أن يتزوج يومًا ما. لعل زواجه سيحسن طباعه ويجعل منه إنسانًا. غادرت «سارة» المطبخ بسرعة خوفًا من أن تستطرد «جيل» في الكلام. وتلكأت في غرفة «بيدي» غير راغبة في العودة إلى المطبخ؛ كي لا تسمع المزيد عن «هيو» و «بيث»، محاولة أن تقنع نفسها بأن السبب الوحيد هو كرهها للإصغاء

إلى الشائعات، ولكن صورة «هيو» طاردتها في كل مكان. وكلما التفتت رأت وجهه ينحني فوق وجهها والقمر يضيء شعره الداكن. حاولت «سارة» أن تطرد خيال «هيو» من ذهنها، فعرضت على الآنسة «بلاك» أن توصلها إلى «سالن». وعادت قبل موعد العشاء بدقائق، فسارعت إلى تحضير بعض الحساء والسلطة. وأحست بالارتياح عندما وجدت أن «جيل» كانت في غرفتها. إذا كانت «جيل» و «كاتي» تتآمران معًا، فإنها لا تريد أن تعرف شيئًا عن الموضوع. ولكن «كاتي» هدأت من شكوكها عندما جاءت إلى المطبخ، وقالت لها إنها ذهبت إلى «سالن» لترى صديقة وعدت بأن تأتي وتطبخ حتى تشفى «بيدي» من مرضها. واستطردت:

– إذا لم يكن لديك مانع فإن «جين» ستقوم بالمهمة خير قيام. لم يكن هنالك داع إلى قلقها إذن! وتابعت «كاتي» قائلة بأن السيد «فريزر» هو الذي اقترح هذا الحل قبل ذهابه. ولم تعرف «سارة» أسرّتها الفكرة أم أغاظتها؟ ألم يكن بالإمكان أن يستشيرها قبل أن يسارع إلى اتخاذ القرارات؟ فلو أنها عرفت مسبقًا سبب ذهاب «كاتي» إلى «سالن» لما عانت كل هذا القلق غير الضروري.

في صباح اليوم التالي عندما وصلتها رسالة من «جين» مع بريد الصباح، ازدادت «سارة» انشراحًا، وقالت «جين» إنها مشغولة في المكتب، ولكنها ستأخذ إجازة قصيرة عما قريب. وقد فكرت في أن تأتي لقضائها في جزيرة «مل» وسألت «سارة» أن تخبرها بوقتٍ يناسبها لكي تستطيعا قضاء بعض الأيام معًا، ثم العودة إلى «لندن» معًا أيضًا إذا ما كانت «سارة» قد انتهت من العمل في «لوخ غويل». انتهت من العمل في «لوخ غويل»؟ وشعرت «سارة» على الرغم من سرورها برسالة «جين» بأن الصباح قد فقد إشراقه. قضت «سارة» بقية الصباح في إنجاز عملها، ولم تر «جيل» إلا لماما. وكانت على وشك أن تذهب للبحث عنها؛ لكي تتناولا الغداء معًا عندما وصل «أيان ماكنزي» ليزور «بيدي» كما ادعى. وقضى في القلعة ساعة أمضى نصفها في التحدّث إلى «سارة»، وحاول أن يقنعها للمرة الثانية بالذهاب معه إلى الحفلة الراقصة، ولكنها وجدت نفسها كالسابق غير قادرة على إعطائه وعدًا قاطعًا؛ إذ إنها لم تستطع أن تتخلّص من فكرة أن «بيث أسكويث» لا تميل إليها، على الرغم من أن مدة تعارفهما كانت قصيرة، وشعرت «سارة» بأن هذا أدعى إلى

ألاّ تفرض نفسها على «بيث»، وودعت «أيان» بابتسامة آسفة، ثم عادت للبحث عن «جيل». ولما لم تجدها، سألت «كاتي» التي كانت مشغولة في المطبخ بغسيل أطباق الغداء، فأجابت:

– لا أعرف، ولعلها قد ذهبت لتزور الآنسة «أسكويث». لقد ذكرت لي أن الآنسة «بيث» قد اتصلت تليفونيًا البارحة. ولما وجدت «سارة» ما تزال واقفة تحدق إليها بعبوس، أدارت زر الراديو ورفعت الصوت.

امتنعت «سارة» عن الرد ذاكرة أنها على علم برأي «جيل» بشأن هذه المكالمة. وظنت أنه من غير المحتمل أن تكون «جيل» قد ذهبت لزيارتها. ولكن لماذا؟ أحيانًا يدعي الناس بأنهم يكرهون بعضهم بينما لا تكون هذه الكراهية في الحقيقة إلاّ شيئًا ظاهريًا. إلاّ أنّ «سارة» استمرت على الرغم من هذا في شكها في أن تكون «جيل» مع «بيث». طبعًا، إن «كاتي» إنما خمنت تخمينًا، ولهذا فإن «جيل» قد تكون في مكان آخر، أي مكان! ما كان للقلعة جيران ملاصقون، وكان أقرب جيرانهم يعيشون على بعد عدة كيلو مترات على الساحل. ولولا أن دق جرس الهاتف فجأة لما عرفت «سارة» من أين تبدأ البحث عن «جيل».

كانت «سارة» قد قررت أن تنسى «جيل» لبرهة. وتذهب لقضاء ساعة على الشاطئ، لأن اليوم كان جميلا، وشعرت بأشعة الشمس والبحر يناديانها خصوصًا أنها وجدت نفسها لأول مرة دون مسؤوليات كبيرة. كانت «بيدي» نائمة في غرفتها. وفجأة رن جرس الهاتف ممزقًا الصمت المخيم على القلعة. وسمعته «سارة» وهي في طريقها نحو الباب، فاستدارت وقفزت السلالم بسرعة لكي ترد على المكالمة. وأشارت إلى «كاتي» التي كانت جالسة في المطبخ تقرأ كتابًا أن تبقى في مكانها. هتفت في السماعة لاهثة الأنفاس. وكانت المكالمة لدهشتها من «بيث»:

– آلو! علقت «بيث» بصوت فاتر:

– تبدين مضطربة. قالت «سارة» وأصابعها تتقلص على السماعة:

– آسفة! كنت على وشك الخروج عندما رن الهاتف فظننت أن المكالمة مهمة. قالت «بيث» بصوت بطيء تشبه نغماته صوت القطط، مما أثار الدهشة في نفس «سارة»:

– ربما من «لندن»! ثم تابعت قائلة:

– في الحقيقة إنني كلمت «هيو» بالهاتف، مساء البارحة. إنه يحب عندما يكون غائبًا أن أكلمه بالهاتف، قال إنه سيعود إلى البيت في وقت يسمح له بحضور الحفلة التي أريد أن أكلمك بخصوصها. لقد التقيت بـ «أيان ماكنزي» في «سالن» بعد الغداء. وذكر لي أنه يرغب في اصطحابك إلى هذه الحفلة، ولهذا فقد شعرت بأنه يجب أن أقول لك كلمة ترحيب.

من العجيب أن تبدر هذه البادرة من «بيث»! فهي ليست من النوع الذي يحب المساعدة، خصوصًا مساعدة فتاة غريبة لا تميل إليها، ولكن «سارة» ذكرت نفسها بأنها قد تكون على خطإ وأنه ليس من حق المرء أن يقفز إلى مثل هذه النتائج بعد لقاء وحيد قصير.

– أشكر لك لطفك، ولكنني غير واثقة بقدرتي على تلبية دعوتك. يجب عليّ أولا أن أطلب إذنًا من السيد «فريزر»، ثم إن «بيدي» مريضة، و «جيل» وصلت منذ فترة قصيرة فقط!

– بحق السماء، ما دخل «جيل» في هذا الموضوع؟ ولسعت أذنها ضحكة «بيث» الحادة:

– لست أدري ما يدعوك إلى القلق عليها. فهي تبدو سعيدة بصحبة صديقها الجديد، وهو فنان استأجر كوخًا قرب الشاطئ. هل «هيو» على علم بالموضوع يا ترى؟

– لاشك في أنك مخطئة. أجابت بذلك «سارة» بحدة، وقد غمرتها موجة من الاستياء، ورفضت أن تصدق ما كانت تعرفه بالغريزة. ضحكت «بيث» مرة ثانية، وبدا واضحًا أنها استمتعت برنة الفزع في صوت «سارة» التي قالت:

– أؤكد لك أني لست مخطئة! فلقد بدت لي «جيل» في أحسن حال عندما صادفتهما في طريقي قبل لحظات. وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، لأن آل «فريزر» ليسوا ممن يضيعون وقتهم. ألم تكتشفي هذا بعد؟

– من فضلك! وسقطت سماعة الهاتف من يد «سارة» تحت وطأة انفعالها، وراحت تحدق إليها وكأن لمسها سيلسعها. يجب أن تعيد الاتصال بـ «بيث» كي تعتذر، فلاشك في أن «بيث» تتوقع منها ذلك. ولكنها لم تكن تعرف رقم «بيث»، ولم تجد

www.rewity.com

لديها الوقت أو الرغبة في البحث عنه.غمر «سارة» شعور بالخطر. لقد ظنت قبل لحظات فقط أن مخاوفها لا تستند إلى أي برهان. والآن؟ يجب أن تفعل شيئًا من أجل أن تساعد «جيل»؛ لكي تحذرها وتذكر لها أن «بيث» على علم بعلاقتها الرومانسية، وأنه من المحتمل أن تخبر «هيو». ووجدت «سارة»، وقد داهمتها موجة من المشاعر المتشابكة، أنها غير قادرة على توخي الأمانة الكاملة مع نفسها. يجب أن تحاول العثور على «جيل» مهما كلّف هذا من أجل أن ترى بنفسها ما إذا كان هذا الفنان إنسانًا بلا ضمير – كما وصفه «هيو» – أو رجلا مقبولا وصديقًا معقولا، ولكن كم كانت غبية، لأنها لم تستطع الاحتفاظ بهدوئها ولم تسأل «بيث» عن عنوان الكوخ الذي استأجره الفنان! وكرهت «سارة» أن تسأل «كاتي» عن هذا الموضوع ثانية، خصوصًا أنها شكّت في أن تسرع «كاتي» إلى تزويدها بالمعلومات التي تريدها. تركت «سارة» مكان الهاتف وهي تتنهد، ثم التقطت معطفها هامة بالخروج. وفجأة تذكرت الدعوة التي وجهها إليها «أيان» بالذهاب معه؛ لزيارة مريض يقطن قرب الساحل بعد أن نزل من غرفة «بيدي». وقد قال لها إن المريض يعيش قرب أطلال الكنيسة المهجورة. ولو أن «بيث» قد صادفت كلا من «أيان» و«جيل» بعد الغداء في الطريق، فلابد أن تكون قد رأتهما في بقعة واحدة، أو في مكانين متقاربين. وقد ذكرت «بيث» أنها رأت «أيان» في «سالن».

ساقت «سارة» سيارة الـ «جاغوار» وقد عاودتها الثقة. لاشك في أن «جيل» قد استخدمت السيارة البيضاء الصغيرة التي كانت تستعملها والدتها عندما تزور «لوخ غويل»، والتي توضع عادة في الكاراج الخارجي، مما يفسر عدم انتباه «سارة» لمغادرة «جيل» للقلعة. توقفت «سارة» في القرية وسألت مجموعة من الأطفال كانوا يلعبون إذا ما كانت توجد في القرية مجموعة من الأكواخ، إلاّ أن معظمها تؤجر خصوصًا للزوار والسياح. وما كانت «سارة» تحب الحصول على المعلومات بهذه الطريقة، ولكنها شعرت بأنها أفضل من السؤال في أحد الأمكنة أو المقاهي. فالأولاد سيظنونها سائحة عابرة تبحث عن المأوى، ويطردونها من أذهانهم حال اختفائها عن أنظارهم.

أخبرها الأولاد بأن هنالك مجموعة من هذه الأكواخ، إلاّ أن معظمها تؤجر عادة في

مثل هذا الوقت من العام. وكانت على وشك أن تشكرهم وتنطلق بسيارتها عندما قالت فتاة صغيرة:

– إن السيد «مانسون» الذي يسكن في نهاية هذا الشارع عنده كوخان، آجر أحدهما رجلاً فنانًا. أما الكوخ الثاني فهو خالٍ، لأن الأمطار تنفذ من سقفه. فإذا كنت لا تبالين بالمطر، فإن السيد «مانسون» سيؤاجرك الكوخ الثاني...

عجبت «سارة» للسهولة التي عثرت فيها على الكوخ في نهاية زقاق ضيق. لقد كان كوخًا قديمًا بني قرب شاطئ النهر يكاد لقدمه يختفي في حضن المناظر حوله. وبدا الكوخ خاليًا من الحياة فيماعدا حبلا من الدخان الخفيف المتصاعد من بقايا المدخنة. اقتربت «سارة» من الكوخ بحذر. كانت قد تركت سيارتها بجانب رصيف الشارع الرئيسي خشية أن تتعرض للأذى فيما لو ساقتها عبر هذا الزقاق الضيق. ولم تكن تعرف ماذا ستقول أو تفعل. وابتهلت وهي تقرع باب الكوخ أن تجد الكلمات المناسبة. بعد عدة ثوانٍ بدت لها عدة ساعات، فتح الشاب الملتحي الباب، ونظر إليها بدهشة. ولكنه جابهها دون اضطراب البتة، وقال مجترًا كلماته:

– يا للمفاجأة! إنك فتاة القارب، أليس كذلك؟ وسكرتيرة السيد «فريزر» كما أعتقد.

وعلت وجهه ابتسامة ساخرة. ولكن قبل أن تجد الفرصة للكلام سمعت حركة خفيفة وراء ظهر الشاب. ثم ظهرت «جيل» أمامها وقد ارتسم على وجهها المتدفق حيوية تعبير بالاشمئزاز الشديد. وحطت نظراتها على «سارة» وبدا جليًا أنها لم تسر بمشاهدتها وقالت:

– أنت مخطئ يا «كولن». من الأصوب أن تقول عضو البوليس السري «سارة دينتون». حدقت «سارة» إليها مجفلة. وأحست بنفسها غير قادرة على الكلام، ممزقة الأعصاب. ولكنها أدركت بعد أن التقت نظراتها بنظرات «جيل» بأن «جيل» إنما نهجت نهج الدفاع عن النفس لكي تخفي جرح مشاعرها. واعترى «سارة» الإحساس بغتة بأنها دخيلة على الموقف، وكأنها كانت تقف خارج دائرة حطمتها عن عمد. يجب أن تحاول إفهام «جيل» وصديقها بأنها إنما أتت إلى هنا من أجل أن تساعدهما، وليس بوصفها سكرتيرة «هيو». وشعرت بغريزتها بأن هذا الرجل هو الفنان الذي يعيش في «لندن». وقد أدركت هذا لحظة أن فتح الباب لها، وقالت

www.rewity.com

لها:

– أنا آسفة يا «جيل». قد يبدو تصرفي لك مهينًا، ولكنني لم آتِ إلى هنا من أجل التجسس. لقد جئت من أجل المساعدة ومن أجل أن أحذرك. هنالك شخص على علم بوجود «كولن» هنا. وطبعًا لن تمضي مدة طويلة حتى يعرف «هيو» أيضا. واحمر وجه «جيل» انفعالا وقالت:

– «بيث أسكويث» دون شك! هذه الكلبة الحقيرة! احتجت «سارة» محاولة أن تسيطر على انفعالها وقالت بجهد:

– «جيل» أنت تعرفين أن توجيه مثل هذه الإهانات لن يوصلك إلى هدفك. ولن يشفع لك مثل هذا الأسلوب عند أخيك. لماذا لا ندخل ونجلس لنناقش الموضوع بهدوء؟ أحست «سارة» للحظة، بأن «جيل» كانت على وشك أن ترفض اقتراحها. ثم استدارت فجأة بهزة من كتفها وسارت إلى الداخل، بينما تراجع «كولن» عدة خطوات إلى الوراء لكي يتيح لـ «سارة» فرصة اللحاق بها. لاحظت «سارة» أن غرفة الجلوس كانت نظيفة على الرغم من الفوضى التي سادتها. وشاهدت في زاوية من الغرفة حاملا للوحات تحيط به ما يحتاجه الفنان عادة من أنابيب الدهان وغيرها من أدوات الرسم. وعلى الطاولة قرب النافذة، تربعت مجموعة من آلات وأدوات التصوير. وأضفت النار المشتعلة في المدفأة على الغرفة جوًا من الراحة، مخلصة إياها من الرطوبة. جلست «سارة» باحتراس على طرف كرسي مقلقل جره «كولن» من أجلها من تحت الطاولة. تكومت «جيل» فوق الكرسي الآخر، ونظرت إلى «كولن» ثم إلى «سارة» بعبوس. ثم قالت فجأة بلهجة أكثر حرارة:

– آسفة يا «سارة»! قد تبدو لك كل هذه الأمور وكأنها سلسلة من المؤامرات والأكاذيب. إنني أحب «كولن» وهو يحبني، ونحن نرغب في الزواج. أحيانًا يندفع الإنسان إلى قول الأشياء الخاطئة بحافز الدفاع عن النفس. لعلك لا تعرفين أن كلاً من «هيو» ووالدتي لم يزعجا نفسيهما حتى بالتفكير في مقابلة «كولن». لقد حكما عليه قبل أن يشاهداه لأنه فنان. ويظهر أنهما يظنان أنه لا يجد حتى لقمة العيش! بذلت «سارة» محاولة ذهنية لكي تزن الأمور حق وزنها. وتذكرت أنها يجب أن تلتزم الحذر على الرغم من تعاطفها مع «جيل». إن هذه الفتاة اليافعة الشقية تملك قوة

التأثير في سامعيها. وهي قادرة على أن تخدع أي إنسان إذا ما كرست ذهنها لهذا الغرض. تنهدت «سارة» لاوية فمها، ونظرت إلى «جيل» بأسى وقالت:

– لاشك في أنك قادرة على تدبير مثل هذا اللقاء بينهم. ما كنت لأظن أن الحذق والدهاء ينقصانك. ألقت «جيل» على «كولن» نظرة سريعة وقالت:

– من المؤسف أن شخصًا ما نقل إلى والدتي قصة غريبة عن «كولن»، وهي قصة غير حقيقية، ولكن أمي رفضت أن تصدقني عندما حاولت أن أقنعها بكذبها. أنت تعرفين كيف تتعقد الأمور. بعد هذه المحاولة كرست كل جهودي لكي أحول دون أن يلتقي هؤلاء الثلاثة، وأعتقد أن «هيو» قد أصغى إلى القصة كما روتها أمي قبل أن يأتي إلى هنا. وما كاد يراني حتى ألقى عليَّ محاضرة طويلة، مما جعل الأمور تزداد تعقيدًا منذ ذلك الوقت.

– لماذا لا تبدئين بداية جديدة بتقديمي إلى صديقك؟ ربما نستطيع بعد ذلك أن ندرس الموضوع من جانب أو جانبين.

– 6 –

تناهى إلى «سارة» أزيز النحل من خلال النافذة المفتوحة، يحمله النسيم النقي. وأحست وهي تصغي إلى هذه الأصوات بالاسترخاء والنعاس يكادان يغلبانها مما جعلها تدرك أنها متعبة، ولكن الجو في الكوخ الصغير كان مفعمًا بالتوتر إلى الحدّ الذي جعلها غير قادرة على الاستجابة للاسترخاء الحقيقي. واعتراها فزع طفيف عندما لاحظت أن «جيل» كانت تجلس بلا حراك، تعلو وجهها المتمرد تقطيبة عميقة، وكأنها لم تستسغ اقتراح «سارة». وساد صمت طويل مريك. وفجأة نهضت «جيل» هازة كتفيها بلامبالاة، واتجهت نحو «كولن» ثم جرته إلى الأمام:

– أظن أنني تصرفت بصبيانية، ودون تفكير. على كل، وإذا كنت لا تزالين تصرين، فأنا أقدم لك «كولن براون»، المجرم الخطير، من «لندن». حوّل «كولن» نظره من «جيل» إلى «سارة»، وفي عينيه وميض من التسلية، ومد يده إلى «سارة» ليصافحها. فشعرت بأنها تراه لأول مرة كما يجب. كان رجلا طويلا وبدا وجهه

في النور الخافت نحيلا غائرًا. ولاحظت أن فمه كان مشدودًا على الرغم من وقفته وسلوكه اللامتكلفين.

– ها نحن نلتقي رسميًّا في النهاية يا آنسة «دينتون». يجب أن أعترف بأنني رأيتك مرة ثانية بعد اليوم الذي انقذت فيه حقيبتك، ولكنني ظننت أنه من الحكمة ألا أقترب منك. لعله كان من الأفضل أن أدرك أنك ستكتشفينني إن عاجلا أو آجلا .. لا. وابتسم وهو يشد إليه «جيل» بحنان، وأردف قائلا:

– أعتقد أنك تتساءلين الآن عما ننوي – أنا و «جيل» أن نفعل، وأية مؤامرات نطبخ في الخفاء.

– هذا إذا ما اخترنا الطريقة الفجة في التعبير يا سيد «براون». وجابهت «سارة» عينيه الرماديتين اللامعتين. وابتسمت استجابة لابتسامته. وأعجبتها طريقته الحازمة في المصافحة وأردفت قائلة:

– أعترف بأنني قلقة نوعًا ما. هل تعتبر فضولا مني لو سألتك عن مهنتك بالضبط؟ هناك فئات عديدة من الفنانين.

– لا أبدًا. ابتدأت بالعمل في شركة كبيرة كفنان تجاري، ثم تركت الشركة وقررت أن أقدم خدماتي لجهات متعددة. كانت الأمور صعبة في البداية، ولكنني أعتبر ناجحًا في عملي الآن، وأكرس معظم وقتي لرسم الشروح المصورة في الكتب، وأحيانًا أرسم المناظر الطبيعية. وفي الوقت الحاضر، أقوم برسم مجموعة من الطيور والحيوانات لشرح كتاب للأطفال عن مناطق «الهايلاند».

– ولكنك قدمت إلى هنا قبل ثلاثة أسابيع؟ ابتسم «كولن» ابتسامة طافحة بالاستياء وشد إليه ذراع «جيل» وقال:

– ذلك من أجل أن أنجز بعض العمل قبل قدوم «جيل». كان من القسوة أن أتركها وحدها في المستشفى ولكنها أصرّت. فأنا أحب أن آخذ الصور لموضوعي قبل أن أشرع في الرسم، لأن هذا يساعدني على ضبط الألوان والتفصيلات. وعندما تكون «جيل» برفقتي فإنها لا تنقطع عن الثرثرة مما يفزع الطيور على بعد عدة كيلومترات.

– والآن، هل تتوقعان أن تبقيا هنا دون أن ينكشف أمركما؟ لابد أن يعرف «هيو» الحقيقة. أعلنت «جيل» بتمرد:

– لقد كانت مغامرة قررنا أن نخاطر بها. في البداية جاء «هيو» إلى القلعة من أجل أن يصفّي أملاكه هنا. وكان ينوي البقاء مدة قصيرة. أما الآن فهو يفكر في الاستقرار هنا على الدوام، ولهذا فأنا أتوقع أن يُكتشف أمرنا يومًا ما.

قفز قلب «سارة» بعنف. إذا كان «هيو» قد قرر الاستقرار هنا، كما ذكرت «جيل»، فلعله يحتفظ بها كسكرتيرته إذا ما احتاج إلى واحدة. ولكن هل من الحكمة أن تقبل؟ وشعرت برغبة جنونية في أن تضمها ذراعاه مرة ثانية، ويعانقها بشدة. سحبت «سارة» نفسًا سريعًا، مرتجفة، طاردة صورة «هيو» من ذهنها وقالت:

– إنني ما زلت أرى أن تصطحبي «كولن» لتقدميه إلى «هيو» يا «جيل»؛ من أجل أن تشرحي له قضيتكما بوضوح، ثم إن «هيو» لا يستطيع أن يمنعكما من الزواج؛ لأنك تجاوزت الثامنة عشرة.

– ولكنني أحب أسرتي، وأفضل أن أحصل على الموافقة. قالت «سارة» وهي تلقي نظرة سريعة إلى ساعتها:

– يجب أن أسرع بالعودة وإلا أرسلوا من يبحث عني. الساعة تقارب الخامسة، وأقترح أن تتبعيني يا «جيل» لعلنا نستطيع أن نصل إلى قرار هذا المساء، بعد العشاء مثلا. وافق «كولن» باقتضاب. وتبعهما إلى باب الكوخ وقال:

– عاجلاً لا آجلاً، فأنا لا أستسيغ كل هذه السرية والكتمان.

سارت الأمور في أثناء تناول العشاء على ما يرام، ولكن قبل أن تستطيع «سارة» الاجتماع بـ «جيل»؛ لكي تقنعها بوضع خطة بناءة لحل المشكلة، وصلت «بيث» بصحبة صديقتين.

وبينما كانت «سارة» تساعد «كاتي» على إعداد المزيد من القهوة، لاح لها أنه ليس هناك ما لا يمكن حله وذلك باستخدام التفكير السليم. إن «كولن براون» يبدو عن قرب رجلا لطيفًا. وإذا كان قد ذكر الحقيقة فإن مستقبلا لامعًا ينتظره. ولم تشك «سارة» في أنها قادرة على إقناع «هيو» بأن يتبنى رأيًا أكثر مرونة، فيما لو سمحت لها «جيل» بأن تتحدث إليه في الموضوع بعد عودته. هذا لا يعني أنها تتلهف على أن تفتح معه مثل هذا الحديث، ولكن لابد أن يحاول شخص ما أن يأخذ على عاتقه تسوية هذا الوضع المتشابك الذي خلقته سلسلة من الأخطاء وسوء التفاهم.

وشعرت «سارة» بأنه من الأفضل أن يسمح لـ «جيل» بأن ترى «كولن» دون المزيد من المعارضة؛ لأن هذا من شأنه أن يعطيها الفرصة لكي ترى علاقتها الرومانسية به بمنظارها الحقيقي من غير هذه الهالة الدرامية الاصطناعية.

أمضت «سارة» ساعة بعد العشاء في سكب القهوة وتقديم البسكويت دون أن تفرض نفسها على الحضور. مع أن «بيث أسكويث» كانت تذكر مناقشتهما الحادة في التليفون، فإنها لم تلمح إليها بشيء، بل على العكس بدت وكأنها تبذل كل ما في وسعها من أجل أن تكون لطيفة مع «سارة» إلى الحد الذي دفعها إلى أن تجدد دعوتها لها إلى حضور الحفلة بأسلوب وجدت من الصعب معه أن ترفض الدعوة، ولكن كان أكثر ما أثار دهشة «سارة» هو سلوك «جيل». وتعجبت لماذا راحت الفتاة تتزلف بهذه الطريقة إلى «بيث». وللمرة الثانية غمر «سارة» شعور عميق بالشك، إلا أنها في النهاية قررت أن تتوقف عن تحليلها للأمور. وبعد أن غسلت فناجين القهوة الفارغة، وتأكدت أن «بيدي» كانت مرتاحة، ذهبت إلى فراشها وهي تعاني آلام الصداع. في صباح اليوم التالي جاءت «جيل» لتبحث عنها في المكتبة حيث كانت تصنف بريد الصباح. كان الوقت يقارب الظهر، ولكن «جيل» كانت ما تزال تتثاءب من أثر النعاس، وكأنها لم تنم طوال الليل. قالت «جيل» محاولة أن تفسر دون أن تدعو الضرورة:

– أنا آسفة يا عزيزتي، ولكنني أشعر بالتعب. تأخرت «بيث» في الذهاب. ولما جئت لأراك وجدتك نائمة بعمق. كنت على وشك أن أوقظك، ولكنك بدوت كمن تحلم أحلامًا لطيفة. هل كنت تحلمين بـ «أيان ماكنزي»؟ واستدارت «سارة» لتنظر إليها نافدة الصبر، ورفعت شعرها الأشقر الطويل عن وجهها:

– «جيل»! لقد أمضيت يومًا متعبًا جدًّا البارحة مما جعلني أتأخر في النهوض هذا الصباح. قولي لي ماذا تريدين، ودعيني أتم عملي هنا. ما كانت «سارة» على ثقة بأن من حقها أن تتحدث إلى أخت رئيسها بهذه الطريقة، لكنها اكتشفت أن من الأفضل مواجهة «جيل» بصراحة بدلا من المداورة، إلا أنه لم يكن من السهل التخلص من «جيل».

– أرجوك يا «سارة»، لا تغضبي مني. يجب أن أكلمك الآن، لأن «هيو» قد يعود

فجأة، وهذا تصرف ليس بالغريب عليه! بدت «جيل» جذابة ببنطلونها الواسع الأزرق. وتربعت على حافة مكتب «سارة» محدقة إلى وجهها بعينيها الواسعتين المتوسلتين واستطردت قائلة:

– إن الموضوع يخص «كولن». لا أريد «هيو» أن يعرف أنه هنا، ليس الآن على الأقل. دعي الأمور تختمر قليلا... إلى حين عودة والدتي على الأقل. ما رأيك؟

– ولكن يا «جيل» ألا تعتقدين أنك إذا استطعت استمالة «هيو»، فإنك تحلين بذلك العقدة الكبرى؟ ثم أضافت بصوت ذي مغزى:

– وماذا بشأن الآنسة «أسكويث»؟ إنها تعرف أن «كولن» هنا، على الرغم من أنه لا علم لها بالتفصيلات.

– أعرف، ولكني لا أعتقد أنها ستفضح سري. إذا كانت تريد أن تتزوج «هيو»، فعليها أن تتعلم كيف تعاملني. قالت «سارة» في نفسها: «لم يكن من طبع «جيل» قبول أية معارضة». سألتها «سارة» بجفاء، وقد أثارت امتعاضها الأنانية التي غلفت حجة «جيل»:

– هل تظنين أن «بيث أسكويث» ستدع أمرًا صغيرًا كهذا يقف في طريقها؟

ألمحت «جيل» بدهاء:

– قد تندهشين قد لا أكون أكثر من أخت «هيو» غير الشقيقة. ولكن والد «هيو» كان كوالدي، كما أن «هيو» شديد التعلق بأمي، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أستطيع أن أقول له شيئًا أو شيئين عن «بيث».

– اسكتي يا «جيل»! هل تعرفين ماذا تطلبين مني أن أفعل؟ هل تريدينني أن أغمض عينيَّ حين تذهبين لتقضي ساعات في كوخ برفقة رجل غريب هنا في هذه الجزيرة التي يعرفك فيها الجميع؟ ولكن سواء أفعلت هذا هنا أم في أي مكان آخر فإن التصرف نفسه ليس أخلاقيًّا، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أعتقد أن «كولن» يتفق معي في الرأي. ردت «جيل» بسخرية:

– طبعًا. إن «كولن» يشابهك من حيث التعنت الأخلاقي، وإذا ما داخلك القلق عليَّ في هذا الشأن، فأنا أنصحك بأن تطمئني بالاً. لقد كلمني بالهاتف هذا الصباح ليقول لي إن أخته قد جاءت لتقيم معه مدة أسبوعين، مما يعني أننا سنكون تحت رقابة

www.rewity.com

كافية.ونظرت «سارة» إلى «جيل» التي قفزت على قدميها، وقالت بصراحة:

– إذا كان ما قلته هو الحقيقة، فلن أذكر شيئًا أمام «هيو»، ولكنني لن أحاول أن أغطي على تصرفاتك عن عمد. إنك لا ترغبين في الإفضاء إليه بالحقيقة، ولهذا فلا تتوقعي مني الشفقة إذا ما اكتشف الأمر عن طريق شخص آخر.

قبل أن تستطيع «سارة» أن تهضم خطر هذا الوعد الذي قطعته على نفسها عاد «هيو» من «لندن» في مساء هذا اليوم بالذات بعد الغداء، ودخل إلى القاعة بينما كانت جالسة تتحدث إلى «بيث» التي جاءت للزيارة دون سابق إنذار، متحججة بسبب واهٍ، وبدت «جيل» التي أمضت العصر خارج المنزل تعبة، وراحت تتثاءب وهي تقلب صفحات مجلة قديمة. ولمحته «بيث» أولا وهو يفتح الباب فهتفت:

– يا للسماء! لم نتوقع وصولك بهذه السرعة. هل تناولت غداءك؟

– نعم. قال ذلك باقتضاب مجيبًا ابتسامة «بيث» بمثلها. ولوت «سارة» عنقها لتنظر إليه، وهو يقترب من المدفأة، وتنقلت نظراته بين «بيث» و «سارة» التي رأت صورتها تنعكس للحظة على عينيه السوداوين قبل أن يلتفت إلى «بيث» قائلا:

– لقد جئت بالطائرة برفقة «ديكسون» الذي صادف وجوده في «لندن» وجودي هناك. سألت «بيث» مرة ثانية، وكأنها سيدة البيت كما لاح لـ «سارة»:

– هل أنت متأكد أنك تناولت عشاءك؟ وتنهد «هيو» بارتياح ثم جلس وقال:

– لقد تناولت عشائي في «كاراسينغ»، ومع هذا فأنا أرحب بفنجان من القهوة، إذا لم يكن في هذا إزعاج. قالت «بيث» بابتسامة دافئة وعيناها تلمعان:

– لقد فرغنا لتونا من تناول القهوة. هبت «سارة» من مكانها، وسارعت إلى صينية القهوة وكأنها حبل الأمان؛ لأنها أرادت أن تفعل أي شيء ينقذها من نظرات «هيو» الكاسحة. قالت بسرعة:

– سأعد بعض القهوة من جديد. إن «كاتي» لا تعمل هذا المساء، وقد ذهبت إلى القرية مع صديقتها. ولكن لاستغرابها الشديد، وجدت «هيو» يقف بجانبها فجأة، متجاهلا تقطيبة «بيث». وتناول صينية القهوة من يديها قائلا لها:

– اسمحي لي! سآتي معك لكي أجلب القهوة بنفسي. هناك أمر أو اثنان أريد مناقشتك في شأنهما. تمهلت «سارة» ولكن «جيل» أثارت دهشتها عندما قفزت

فجأة، واقترحت بابتسامة معسولة:

– لماذا لا تسمحان لي بعمل القهوة بدلا من أن تتنازعا يا «هيو»؟ ورفعت رأسها، وطبعت على وجهه قبلة مرحة قائلة:

– أنا سعيدة بعودتك. وإذا ما تبرعت بإحضار هذه القهوة التعيسة، فقد تجلس وترتاح. إن شغلك مع «سارة» لا يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الأهمية! لم يجادل «هيو» مما أثار دهشة «سارة»، ووضع صينية القهوة مسرعًا بين يدي «جيل» بطاعة وسلبية. وراقبته «سارة» وهو يجلس مادًّا رجليه الطويلتين، ثم يتوجه بانتباهه كله إلى «بيث». قالت «بيث» بصوت يفيض بالشفقة وهي تنظر إليه بحنان:

– لاشك في أنك في غاية التعب يا عزيزي «هيو»، ولكن إذا ما أردت أن تناقش بعض الأمور مع الآنسة «دينتون» فافعل ولا تهتم بوجودي.

عضت «سارة» على شفتها، وقد فاض في نفسها نوع من الحقد اللاشعوري. يبدو أنه يتلذذ بجعلها هدفًا للاحظات «بيث»المؤلمة. ونظرت «سارة» إلى «هيو» بغضب يائس لم تستطع له تفسيرًا، حتى أدار وجهه في اتجاهها. ورمقتها عيناه القاتمتان بسخرية أفزعتها، وكأنه خمن ما كان يطوف في ذهنها. ووجدت «سارة» صعوبة في الإشاحة بوجهها، وغمرتها كلماته التي تفوه بها بغمامة من المشاعر:

– ما أريد أن أقوله للآنسة «دينتون»يستطيع الانتظار لخمس دقائق. سنذهب إلى المكتبة ونتحدث بعد قليل. ردت عليه قائلة:

– في أي وقت تشاء.

أحست «سارة» في كلماته برنة التهديد. بماذا يتهمها الآن؟ وارتعشت متسائلة: «لماذا يثير هذا الرجل الغامض في نفسها كل هذه المشاعر المعقدة».

وافقت «سارة» بسرعة وبابتسامة مقتضبة، كارهة أن تظهر ولو ذرة قلق واحدة، خصوصًا أمام «بيث»، إلا أن صوتها بدا لاهثًا، وداهمتها مئات من الشكوك.وراحت تصغي إلى «هيو» وهو يتحدث إلى «بيث» عن أصدقائهم ومعارفهم في «لندن». وترك هذا الحديث في نفسها انطباعًا حسنًا، فقد لاح أن «هيو» قد قضى وقتًا مفيدًا، ولم يقابل أية كارثة كبيرة! وغمرها الارتياح عندما عادت «جيل» تحمل أخيرًا بعض القهوة. وسألته:

– هل تسلّمت شيئًا من أمي يا «هيو»؟ وابتسمت ثم جلست بجانبه لكي تسكب القهوة. ورد عليها قائلا:

– لقد اتصلت بها من «لندن». قد تعود من الخارج قريبًا، ربما بعد أسبوعين. لاحظت «سارة» الاحمرار الذي كسا وجنتي «جيل» التي احتجت بغضب:

– كان أحرى بها أن تكلمني بالهاتف، فهي لم تتصل بي منذ أن سافرت.لماذا كلمتك أنت بدلا مني؟ أجاب «هيو» محاولا تهدئتها:

– لقد كلمتني بشأن بعض الأعمال. وشرب قهوته كلها مرة واحدة. ثم ملأ الفنجان ثانية ثم أردف:

– وكنت أنا الذي اتصلت بها. لاشك في أنك ستسمعين عنها في القريب العاجل. قالت «بيث» مقطبة الجبين وبابتسامة تأنيب جعلتها تبدو أكبر من سنها:

– أنت تعرفين أن لديها الكثير مما يشغل ذهنها. ردت «جيل» وهي ترمق «بيث» بنظرة مكفهرة:

– في أثناء إجازتها؟ وضع «هيو» فنجانه، وقال بحزم:

– أنت تعبة دون شك يا «جيل». فالوقت متأخر الآن – ونظر إلى ساعته – لقد ذكرت «بيث» قبل قليل أن الوقت قد حان لذهابها أمّا أنا فأريد أن أقول شيئًا لـ«سارة» أرجو أن تذهبي إلى غرفة المكتبة يا «سارة» وتنتظرينني هناك. سألحق بك بعد أن أودع «بيث». أشاحت «سارة» وجهها عنه بسرعة، ووقفت على قدميها، ثم تمهلت لحظة لتقول:

– إذا لم يكن عندك مانع، فسأذهب لأرى «بيدي» أولا. سأعود بسرعة.صعدت «سارة» الدرج بسرعة لترى ما إذا كانت «بيدي» تحتاج إلى أي شيء. وكانت قد أخذت لها بعض الحليب (اللبن) والبسكويت حوالي الساعة التاسعة، ووجدتها الآن على وشك الاستسلام للنعاس. وسرّها كثيرًا أن تسمع بأن «هيو» قد عاد إلى البيت وقالت:

– أشعر بالامتنان لعودة السيد «هيو» سالمًا. ثم هتفت قائلة:

– أنا لا أحب هذه الآلات الطائرة. وابتسمت عندما سوت الأغطية فوقها بلطف ثم أطفأت النور.

سأل «هيو» عن حال «بيدي» عندما دخلت «سارة» إلى غرفة المكتبة وأغلقت الباب. كان واقفًا قرب المدفأة ويداه خلف ظهره. واعتراها شعور غريب بعدم التكافؤ عندما سار بضع خطوات إلى منتصف الغرفة. وأخبرته بأنها في تحسن، وأن الراحة في السرير قد نفعتها كثيرًا. فكر «هيو» فيما قالته للحظة، ثم سأل:

– هل استطاع طبيبنا الطيب أن يصنع حبوبًا سحرية؟ أم هل نجح فيما أخفق فيه غيره؟ لم يسبق لي أن سمعت أن «بيدي» لزمت الفراش من قبل! فتمتمت «سارة» بوداعة واستحياء:

– ربما يكون قد جمع بين الاثنين. كرهت «سارة» أن تقول له إن «أيان» كان يجيء لزيارة «بيدي» كل يوم خلال غيبته، مما جعل «بيدي» تعتقد أن حالتها كانت أسوأ مما ظنت. وهذا بالتأكيد دفعها إلى ملازمة الفراش! ثم قالت:

– أظن أن «بيدي» تحتاج إلى إجازة بغض النظر عن مرضها. يبدو أنها لم تأخذ إجازة واحدة منذ سنوات. وإدارة مثل هذا البيت ورعايته يتطلبان مجهودًا كبيرًا دون شك!

– طبعًا.

قال «هيو» ذلك بنزق، وبدا كمن فقد الاهتمام بالموضوع وشرد ذهنه إلى أمور أخرى. تحركت «سارة» قلقة وقد داهمها شعور بالارتباك. وراح نسيم الليل المتسرب من النافذة يحمل إليها آلاف الروائح المختلفة وصوت البحر البعيد. وفجأة أحست بالإجهاد، واعتراها ما يشبه الغيبوبة نتيجة للتعب والصراع العاطفي. ونظرت إلى «هيو» بانتباه وهي في انتظار أن يتابع كلامه، حتى كادت ملامحه تنطبع تمامًا في ذاكرتها. ثم قالت لتحثه على الإفضاء بما يريد:

– لم تسألني القدوم إلى هنا من أجل التحدث عن «بيدي»؟

– لا. ولكنك لا تبدين في حالة تسمح لك بمتابعة أي نقاش. ماذا فعلت بنفسك في أثناء غيابي؟ ترددت «سارة» للحظة، ولم تعرف أن النور فوق رأسها كان ينعكس مباشرة على وجهها مجسمًا كل زواياه. وكانت ترتدي ثوبًا أسود من الجرسيه بقبة مفتوحة، مما أظهر بياض جلدها ورقة عظامها النحيلة، وكان شعرها منسابًا متهدلا كغلالة من الحرير فوق كتفيها، وقالت بصوت رنت فيه نغمة الاحتراس:

– أعترف بأنني كنت مشغولة، ولكن ليس هنالك ما يستدعي الاهتمام.

– فهمت. وسار إلى حيث كانت واقفة في وسط الغرفة واستطرد قائلا:

– دعيني أرى كم كنت مشغولة. ورفع ذقنها وراح يتفحص الظلال الباهتة على خديها المضرَّجين وأصابعه ما زالت تحتفظ باللمسة القاسية نفسها. احتجت «سارة» بصوت منفعل، ولكنها لم تستطع أن تتزحزح:

– من فضلك! واختلج وجهه بنظرة عدائية حسية. فقال فجأة وهو يهز رأسه عابسًا:

– إنك تبدين جميلة جدًا...ومغرية.

– قد تظنني جميلة، ولكنك لا تستلطفني... أليس كذلك؟ واسودت عيناه إذ أجاب قائلا:

– أنا أحب الطريقة التي تؤثر بها المرأة في الرجل إذا كان هذا ما تعنين.

– هذا شيء مختلف.

– كم تحب النساء أن يعقدن المسائل، إنهن ولدن من أجل خلق المشاكل.

– إنك لا تستطيع أن تصنفنا كلنا تحت عنوان واحد. إن بعض النساء قادرات على منح السعادة العميقة للرجال.

– لا. اعترض بلهجة ناعمة – العكس عادة هو الصحيح.

– إن على الرجل دائمًا أن يبذل كل المجهود. أما بالنسبة إليك، فإنني أظن أنني لا أميل إليك أو أستلطفك، ولكن يجب عليَّ أن أتحملك إلى حين انتهائنا من مهمتنا هنا. وقف على بعد عدة سنتيمترات منها فقط، ورمقتها عيناه بانتقاد، متنقلة فوق عظام عنقها وكتفها الرقيقة، وقال:

– أعتقد أن موت والديك قد سبب لك كل هذه الحساسية والقابلية للتأثر الشديد.... هبت «سارة» واقفة وكأنها قد سُمِّرت في مكانها وقد حرمتها الصدمة من القدرة على التفكير. كيف اكتشف الحقيقة؟ لماذا يعاملها بهذه الطريقة؟ وتحركت يداها بتشنج محاولة أن تدرأه عنها، وتعبر عن اشمئزاز لم تستطع أن تجد الكلمات القادرة على وصفه.

– كيف وجدت الحقيقة؟ كيف تمكنت من إيجاد الحقيقة؟ وانقبضت حنجرتها،

إذ أحست بالألم يجيش في نفسها كجرح فتح من جديد. أمسك «هيو» بها، فأحست بقبضته على ذراعها تسبب لها من الألم ما يوازي الألم الذي اجتاح قلبها. ورفع رأسها حتى أجبرها على النظر إليه. ألا يملك ذرة من الرحمة؟ واحتوتها عيناه السوداوان:

– لقد قلت لـ «أيان ماكنزي» إن والدك كان طبيبًا. كان... بالقلم العريض. من المحتمل أن «أيان» لم يلاحظ. ولكن الأمر أثار فضولي.

– ولهذا حاولت التدخل فيما لا يعنيك؟

– تمامًا.

– كيف؟

– رأيت صديقتك «جين» هذا الصباح قبل أن أترك «لندن». كان عندي موعد مع «جيمس كار».

– لم يكن بخصوصي بالتأكيد؟

– كنت قد صممت على معرفة الحقيقة، ووجدت «جين» هناك فاغتنمت الفرصة. كان الهواء بينهما مشحونًا بالكهرباء والغضب المتأجج. وقالت «سارة»:

– لقد ظننت أن والدي قد أجبر على التخلي عن مهنته، أليس كذلك؟ وشككت في أن يكون هناك شيء مشين في الموضوع.فرد «هيو» بصوت مفعم بالغيظ:

– هذا لا يهمني على الإطلاق. إنما أردت أن أعرف السبب الذي يجعلك «تُتَكْتِكين» كالساعة، وما تخفيه هذه الواجهة من الحساسية المرهفة المثيرة. وظننت أن السبب قد يكون رجلا... قصة حب تعيسة. فلقد أفلحت منذ قدومك إلى هنا في أن تستثيري خيالك بشكل لا يستساغ. علت وجه «سارة» نظرة بعيدة نائية، إذ أخذ برود عميق يزحف إلى شعورها وقالت:

– والآن بعد أن انتهيت من عملية البحث والتحري، واستطعت أن تحل اللغز، فإنك قد فقدت الاهتمام بي من غير شك. ضحك «هيو» ضحكة قصيرة، وضاقت عيناه اللتان كانتا تتفحصان وجهها الحزين بانتباه ويقظة:

– لن أقول هذا، ولكن علينا أولا أن نحاول تخليصك من عذابك الداخلي. وهزها برقة وأردف قائلا:

www.rewity.com

– سوف تتغلبين على فجيعتك. لقد كانت تجربة مروّعة، ولكن عليك أولا أن تهبطي إلى الأعماق المجردة، ثم تبدئي من جديد. لن تستطيعي معرفة السكينة إلا إذا واجهت فجيعتك وجهًا لوجه. حاربت «سارة» فيضان دموعها اللاسعة وقالت:

– إن فلسفتك تدهشني، وقسوتك أيضًا. فرد بابتسامة ساخرة لا تخلو من العطف وهو ينظر إلى خديها المحمّرين:

– إن الحياة تمضي بنا يا «سارة». وإذا ما أردت أن ترافقي موكب الحياة فعليك أن تتعلمي كيف تعيشين مع أحزانك، لا أن تدعيها تجرفك.

– أنت تدعي أن الحزن لفقد الوالدين غير طبيعي؟

– طريقتك في الحزن... نعم. لقد لاحظت هذا منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. كان هنالك شيء يتآكل في نفسك. وقد وشت به عشرات من التصرفات الصغيرة والأشياء العابرة. وهي التي ظنت أن أحدًا لن يستطيع أن يحزّر! وفاضت بها كأس المرارة فصرخت:

– أكرهك لأنك سألت «جين». هاجمته «سارة» دون وعي. وهي تشعر بأنها عزلاء ضد منطقه القاسي.وراحت عيناها تتلألآن، ولكن الدموع لم تسقط منهما.

– لقد قلت لها إنني قد بدأت أتحسن. ولكن بعد هذا ستعود للقلق عليّ.

– عندما تركتها بدت مسرورة. وقد تكلمنا معًا.

– آه فهمت... قالت «سارة» ذلك وقد اتسعت عيناها تحت وطأة الارتباك الذي داهمها. لم تتوقع هذا منه. هل تجرؤ على سؤاله عما حدث؟ ولكنها ربما تستطيع التخمين. إن «جين» دون شك اضطلعت بالجزء الأكبر من المحاورة دون أن تحتاج إلى سؤال ذكي بين الحين والآخر. والنتيجة الآن هي أن هذا الرجل القاسي القوي الإرادة قد أصبح عليمًا بتفاصيل حياتها منذ المهد، لأنها بالنسبة إلى «جين» هي الابنة التي لم يكتب لها أن تنجبها، والتي لن تلدها ولو تزوجت مرة ثانية. تحركت «سارة» كالمنومة. وعيناها الواسعتان الزرقاوان تعكسان توسلا لاشعوريًا وتنشدان التعزية والسلوان.

وتابع «هيو»، طاحنًا الكلمات:

– إن ما تحتاجين إليه الآن هو ثورة عاطفية من نوع آخر. تجربة أكبر من أن تستطيعي مجابهتها، تجربة تكتسح بقايا مشاعر الإشفاق على النفس التي تتمسكين بها بكل هذه الصلابة.

– مثلا...؟ حدق «هيو» إلى «سارة» وقال بسوداوية:

– إن الثورة العاطفية توصف عادة بعلاقة حب. ربما من الأفضل أن تركزي اهتمامك في «أيان ماكنزي» الذي لن يبدي اعتراضًا بالتأكيد. أحيانًا، حتى أنا أجدك جذابة وساحرة.

انطلقت يد «سارة» في اتجاه «هيو» دون أن تستطيع لها منعًا. ولكن قبل أن تصل إلى وجهه الساخر أمسك بها في قبضته الجامدة، وشدها إلى الأسفل مسببًا لها الألم الذي أرادت أن تسببه له. قالت لاهثة تكاد تشهق البكاء:

– لا أستطيع أن أفهمك! وغلبها الوهن والضعف، ثم أحست بيده تمسح على ذقنها. إن تأثير الصراع في هذه الساعة المتأخرة أخذ يبدو واضحًا عليها. ولاح وجهها شاحبًا مجهدًا. ولما أدرك «هيو» مقدار تعبها، تغير التعبير المرتسم على وجهه، وتراخت يداه، وصرخ صرخة مكتومة وهو يدفع بها إلى كنبة كبيرة، ثم سكب لها قدحًا من الماء ووقف بجانبها حتى تجرعته كله، وعلت وجهه ابتسامة خفيفة اختفت تحتها تقطيبته، قال بلهجة صارمة:

– يبدو أنك قد نجحت على الأقل في تجرع كأسك، دون أن تشرقي أو تسعلي.

قالت «سارة»:

– لست طفلة ثم أكملت تجرع كأسها لا لأنها عطشى، ولكن لأنها أرادت بأية طريقة أن تسترجع تمالكها لنفسها. وبعد فترة قصيرة قال «هيو» بسخرية:

– والآن يا صغيرتي، إذا لم يكن لديك مانع فأرجوك أن تغادري الغرفة، لأن لدي بعض ما أريد إنجازه هنا.

– ولكنك قلت...إن هنالك بعض الأمور التي تريد أن تناقشها معي. فأجاب «هيو» بابتسامة متهكمة، مطلا عليها من علو:

– كان هذا مقصدي قبل أن أحيد عن الموضوع، وأدخل في تشعبات لا صلة لها به، أما الآن فأنا أنوي التخلص منك قبل أن يحدث هذا مرة أخرى. لقد عاد اللون إلى

www.rewity.com

وجنتيك الآن، ولكنني لا أريد أن يغمى عليك أو أي شيء من هذا القبيل هذه الليلة. غدًا ستتاح لنا الفرصة لمناقشة شؤون العمل ما حلا لنا.ومد لها يده بحركة مهذبة بحتة ليساعدها على النهوض، ولكنها اختارت أن تتجاهلها، ووقفت تترنح على قدميها. كانت عضلاتها ما تزال ترتعش قليلا.

– ما رأيك، هل استعادت «جيل» صحتها الآن؟ تعثرت «سارة» مجفلة وهي في طريقها إلى الباب. كانت على وشك أن تلقي عليه تحية المساء عندما هبط سؤاله فوق رأسها المجهد التعيس، ولم تستدر إليه وهي تتمتم:

– نعم. حاولت أن تحجب عنه وجهها، وشعرت «سارة» بأنه حتى ولو توقفت حياتها على قول المزيد لما استطاعت.

– حسنًا، لا داعي إلى أن تتصرفي وكأنك قد أصبت برصاصة في الظهر. في الحقيقة لقد فكرت في أن أصطحبها معي إلى «أيونا» غدًا. أستطيع أن أخلط النزهة ببعض العمل لكي لا أضيع الوقت. هل سبق لك أن ذهبت إلى «أيونا»؟ هل تحبين أن تأتي معنا؟ التفتت «سارة» إليه نصف التفاتة بعصبية، وبدا جانب وجهها مشدودًا متوترًا. كانت متأكدة أن «جيل» لن ترغب في الذهاب دون «كولن». ولكن «هيو» لايعرف بوجود «كولن» هنا. وقد وعدت «سارة» بألا تخبره. إنها ورطة! لماذا بحق السماء وافقت على أن تحتفظ بسر «جيل»؟ لماذا لم تملك من حدة الذهن ما يجعلها تتبين ما يعنيه ويتضمنه مثل هذا الوعد؟ ردت «سارة» عليه قائلة:

– لماذا ... لماذا لا نترك الحديث في هذا الموضوع حتى صباح الغد؟ أنت تعرف «جيل». من المحتمل أن تكون قد رتبت مشروعًا آخر؛ فأنت لم تحدد موعد عودتك. عندما استيقظت «سارة» في الصباح رأت، وهي تأخذ حمامًا سريعًا أن كلماتها الأخيرة خير ما أمكنها أن تقوله. وسارعت إلى ارتداء ثيابها آملة أن تعثر على «جيل»، وتخبرها بنيات «هيو» قبل أن يجتمع بها. إذا كانت «جيل» لا تريد أن تذهب إلى «أيونا»، فعليها أن تحاول الإفلات معتمدة على نفسها، شارحة أعذارها دون مساعدة. فهي لاتريد أن تضيف جريمة أخرى إلى قائمة جرائمها فيما لو اكتشف «هيو» الحقيقة.لم تجد «جيل» في غرفتها، ودهشت «سارة» عندما هبطت إلى الأسفل لتجد أن «جيل» قد انتهت من تناول فطورها تقريبًا، وقالت

لـ«سارة» إنها خرجت لركوب الخيل برفقة «هيو» في الصباح الباكر، وإنها قررت مرافقته إلى «أيونا».

– أبهذه السهولة؟ وأنا التي قضيت ليلة بأكملها أقلب الأمور دون أن أستطيع النوم؟!

– ولم لا؟ الحقيقة يا عزيزتي «سارة» هي أن أخت «كولن» ليست من النوع الذي آبه له. كل ما تريد أن تفعله طوال النهار هو التجول في البراري. وهي مجنونة كـ«كولن» بمراقبة الطيور، ولكن لأسباب مختلفة.

– مثلا...؟

– تعرفين أن «كولن» يذهب لمراقبة الطيور من أجل الحصول على الصور اللازمة لعمله. وهو الآن قد حصل على كل الصور التي يحتاج إليها، ويستطيع أن يعود إلى «لندن» وينهي لوحاته هناك إلا أن «غوين» تصر على أن يرافقها. أعتقد أنه أصيب بالعدوى.

– أية عدوى؟ مراقبة الطيور! أجابت «جيل» بغيظ:

– لا تبدين حاضرة البديهة هذا الصباح، أليس كذلك؟

حسنًا، لقد قال «كولن» لأخته – دون أن يسألني – إنه لا مانع لديه من مرافقتها. ولما عرفت قلت له إنني شخصيًا أعترض. ولكنك لا تعرفين «كولن». أجابت «سارة» باحتراس:

– وكيف أستطيع؟ إننا لم نتقابل إلا مرة واحدة، ولكنني ظننت أنك تحبين «كولن»!

– طبعًا أحبه، ولكنني لست جاهلة بأخطائه. إنه يناقش طويلا. وهو عنيد جدًا. إنه مجنون مثلك بضرورة إخبار «هيو». لقد أمضيت دهرًا البارحة لأقنعه بالعدول عن الفكرة. أما الآن فهو يحتج بأننا إذا ما كنا نحتاج إلى الاجتماع فعلينا أن نراعي أخته. «هذا التصرف يليق بـ «كولن»!» قالت «سارة» ذلك بصمت محاولة أن تخفي ابتسامة، لقد أعجبها تصرف «كولن». كلما عرفت «سارة» المزيد عن «كولن»مالت إليه. إن «جيل» فتاة أفسدها التدليل. ولاشك في أنه من مصلحة «كولن» ألا يشارك في تدليلها، إن بعض المعارضة لإهوائها لن يضرها.

– ولهذا فقد قلت لـ «هيو» إنني أرحب بالذهاب معه إلى «أيونا»بعد الغداء. كل شيء على ما يرام. «كاتي» ستعتني بـ «بيدي»، و «كولن» سيعتني بأخته، أما «هيو» العزيز فسيعتني بك وبي. واتكأت «جيل» على ظهر مقعدها وقالت بخفة:

– إذا ما لعبت بأوراقي كما يجب فقد أكتشف لماذا ذهبت أمي إلى «أمريكا»، وماذا تفعل هناك؟

– لماذا لا تحاولين أن تنسي مشاكلك يا «جيل»، هذا العصر فقط؟! قالت «جيل» بابتسامة قوية، وقفزت على قدميها:

– حسنًا! آسفة يا «سارة»، أعدك بأن أسلك سلوكًا طيبًا إذا ما وعدت بأن تصرفي انتباه «هيو» عني إلى حين عودتي من زيارة «كولن». يجب أن يفهم أنه ملكي هذا الصباح. تستطيع «غوين» أن تفعل ما تشاء به بقية اليوم.

- 7 -

كان الجو جميلا عندما غادروا القلعة حوالي الساعة الواحدة ظهرًا بعد أن تناولوا غداءهم مبكرين. وساق «هيو» السيارة الـ «لاندروفر»، وجلست «جيل» و «سارة» بجانبه. كانت هنالك مجموعة من الأشياء مبعثرة هنا وهناك في مؤخرة السيارة ذكّرت «سارة» بأول يوم لها في الجزيرة، ولكنها لم تعبأ بالفوضى هذا النهار. فعلى الرغم من أنه لم يمضِ على قدوم «سارة» إلى الجزيرة إلا بضعة أسابيع، فقد بدأت تفقد شيئًا من حساسيتها للترتيب والتنسيق الصارم. ولدهشتها وجدت أن «هيو» ما زال يتذكر هذا اليوم أيضًا إذ علق مازحًا:

– بدت خيبة الأمل واضحة على قسماتك ذلك اليوم. وابتسم بشقاوة. قالت «جيل» هابّة للدفاع عنها:

– لا عجب في ذلك فهذه السيارة العجوز تبدو دائمًا مثقلة بالخردة والروائح الكريهة. وهي طبعًا ليست مكانًا للشخص الأنوف. ضحكت «سارة»، وأحست بالانتعاش؛ لأن مزاج «جيل» كان مرحًا هذا العصر. وقالت بسرور:

– أعتقد أن الخردة مفيدة أحيانًا. طوال الطريق الممتد على الشاطئ الغربي، راحت

«جيل» تثرثر بمرح عن «لندن» بينما جلست «سارة» في مقعدها مكتفية بالتطلع إلى المناظر التي لابد أن يكون مرافقها قد شاهدها مرارًا. وسرها أن تجد أن «هيو» كان أكثر من ند لأخته، وأنه أظهر براعة في الرد على ملاحظات أخته الماكرة، خالطًا أجوبته ببعض الملاحظات المنطقية بين الحين والآخر. واكتشفت «سارة» أنه على الرغم من تصرفاتها الطفولية، فإن «جيل» قادرة على التفكير بذكاء لماح إذا ما شعرت بالرغبة في ذلك. وتساءلت في نفسها عمّا إذا كانت «جيل» قد فكرت في أن تدخل ميدان العمل يومًا ما، فإن اختيارها لمهنة مناسبة قد يساعد على تجنيد كل حيويتها لإشباع ميولها بشكل أكثر فعالية. لعل «جيل» – مثلها – قد تمتعت دائمًا بنوع من الحماية الأسرية التي عاقت نضجها، كما ألمح «هيو» الليلة الماضية. إنه لمن المؤسف أنه لا يطبق نظريته بشأنها على أخته أيضًا. وشكت «سارة» في أن يصف «هيو» لأخته الدواء نفسه الذي وصفه لها. بعد ليلة البارحة المطرة، تلاشت الغيوم من الغرب وبدت السماء صافية. وخلعت «سارة» معطفها، لأن الحرارة أصبحت لا تطاق داخل السيارة التي راحت أشعة الشمس تضربها بسهامها. قال «هيو» ملقيًا عليها نظرة سريعة وهي تحاول التحرك في المقعد المحشور.

– من الأفضل ألاّ تنسي معطفك عندما نترك السيارة، فقد تحتاجين إليه فيما بعد.

تمتمت قائلة وهي تستدير لتضع المعطف خلفها:

– لن أنساه. أحست «سارة» بالارتياح عندما عبروا قرية صغيرة، ومروا بحجر ضخم قائم بين بيتين دفع «هيو» إلى الإفضاء بشرح قصير. قال إنه في القرن الأخير جاء زوجان شابان ليقضيا ليلة العرس في ذلك المكان، ولكن عاصفة شديدة هبت في تلك الليلة، فهبطت صخرة عظيمة من التلال فوق البيت بمن فيه. ارتعشت «سارة» عندما توقف «هيو» عن الكلام مفكرًا. ولكن «جيل» هزت كتفيها، وقالت باستخفاف:

– إن «هيو» يمارس هوايته كالعادة، بحق السماء لا تشجعيه يا «سارة» وإلا كتب علينا ألا نرى «أيونا» هذا اليوم! فأجاب هو بجفاء من فوق رأس «سارة» ضاغطًا على البنزين:

– هل تتعلمين كيف تبدين مشاعر الشفقة أحيانًا؟

– ولكن ليس الهوس بالماضي.

– إن الزمن لا دخل له في الموضوع، فهذه القصة تعتبر مأساة في أي عصر. تنشقت «جيل» قائلة:

– ولكنك ذكرت أن الزمن يساعد الإنسان على التغلب على معظم الأشياء.

– بالضبط، ولكني لم أعنِ أن المرء ينسى بالمرة. أحست «سارة» وهي تصغي إلى حوارهما، بأن لهذا الحوار صلة بمناقشة سابقة بينهما حول «كولن». فشعرت بعضلاتها تتقلص خوفًا. إن المرء لا يعرف ماذا يتوقع من «جيل» أن تقول أو تفعل. وعلى الرغم من أنها قد وعدت بأن تسلك سلوكًا حسنًا، فليس هناك ما يضمن أنها ستفعل. لاشك في أنه من الصعب على «جيل» الغارقة في الحب أن تحاول إخفاء عواطفها على الدوام، ولكن الذنب ذنبها إلى حد ما، لأنها اختارت أن تخفي علاقتها بـ «كولن» بدلًا من أن تحاول البحث عن حل للمشكلة.

وبينما راحا يتناقشان، أحست «سارة» بوجود نوع من الرفقة الحميمة بينهما، مع شيء قليل من الفهم الصحيح. وغلبها الارتياح عندما حول «هيو» مجرى الحديث فجأة، وكأنه قد تعب من الخوض في الموضوع نفسه. أعجبت «سارة» بمناظر الطرف الجنوبي من جزيرة «مل» التي لاحت جبلية وعرة. ولكن «جيل» نظرت بمثل عندما حاولت «سارة» أن تلفت نظرها إلى المنظر، ولم ترد. قال «هيو» وقد سره اهتمام «سارة»:

– يجب أن تأتي يومًا لاستكشاف هذه المنطقة كما ينبغي. ولكنها تساءلت عمّا إذا كان سيتذكّر وعده، أم سيكون مصير هذا الوعد مصير وعده السابق بالخروج لمراقبة الطيور. أرادت «جيل» أن يتوقفوا في قرية على الشاطئ، واحتجت عندما أصر «هيو» على مواصلة السير، لأنه لا وقت لديهم، فشرح قائلا:

– لقد وعدت أن أقابل «جون فينلي» في الساعة الثانية، ولا أريد أن أجبره على الانتظار. نظرت «جيل» إليه غاضبة وقالت:

– لماذا لم تسأل «بيث» الخروج معنا اليوم؟ وأحست «سارة» بأن «جيل» أبدت هذه الملاحظة بغرض الانتقام من «هيو». وإغاظته.

– لقد جاءت ملاحظتك متأخرة بعض الشيء، ولكن إذا ما أردت بعض الإيضاح، فإنها مشغولة بالاستعداد للحفلة، وستأتي للعشاء هذه الأمسية. أحست «سارة»

ببرودٍ مفاجئ، وقررت بابتئاس أن «هيو» لابد أن يكون قد وجه الدعوة إلى «بيث» عندما خرج ليودعها ليلة البارحة.

– هل سيأخذنا «جون فينلي» في قاربه كالعادة؟

– إنه شخصيًا يحتاج إلى العبور، ولهذا سيرافقنا. سرحت عينا «سارة» إلى الساعة الذهبية حول رسغ «هيو» القوي الأسمر بينما راحت تفكر في السرعة اللاهثة التي غيرت بها «جيل» الموضوع عندما أشار «هيو» إلى الحفلة. هل السبب هو أن «جيل» لا تريد أن تحضر الحفلة؟ وشعرت «سارة» بأنها هي أيضًا تود لو تستطيع تجنب اللحظة التي سيكتشف «هيو» فيها أنها ستحضر الحفلة مع «أيان ماكنزي». لقد اتصل بها «أيان» مرة ثانية هذا الصباح، واضطرت إلى قبول دعوته كارهة، لأنها لم تستطع أن تجد عذرًا مناسبًا تقدمه له. ووجدت «سارة» أنها من بعض النواحي تتطلع إلى حضور هذه الحفلة. ولم تستطع أن تجد سببًا لترددها، إلا إذا كان منبعه الخوف من ملاحظات «هيو» المبهمة. في بلدة «فيونفورت» قابلوا «جون فينلي»، رجل أكبر سنًا من «هيو»، أخذهم إلى «أيونا» في قاربه الصغير. همست «جيل» لـ «سارة» بينما كان الرجلان يتبادلان الحديث:

– إنه كاتب من نوع ما، يكتب في حقل الأفلام الوثائقية وتواريخ الحياة، هذا النوع من الكتابات لاتدر عليه ربحًا كبيرًا. وقد استأجر كوخًا صغيرًا، كما فعل «كولن»، أول ما قدم إلى هنا، ثم ابتاع بيتًا متداعيًا. وصادف أن كان «هيو» هنا في ذلك الوقت فساعده على تحويل البناء إلى مكان يصلح للسكن، ولهذا كلما عزمنا على الذهاب في رحلة أصرّ على تقديم خدماته. لا تدعي «هيو» يعرف ما قلته لك، لأنه لا يحبني أن أتكلم في هذا الموضوع.

– فهمت... كان المضيق ضيقًا، ولما عبره القارب اجتاز المسافة القصيرة نحو المرسى وتوقف. وساعد «هيو» «سارة» على مغادرتها القارب المتأرجح بنظرة ودية من عينيه. ولما فارقوا المرسى ساروا عبر القرية إلى الكاتدرائية. بدت القرية هادئة، لأن معظم زائريها اليوميين قد غادروها. سار «هيو» بقامته الفارعة وراء الفتاتين لافتًا انتباههما إلى المعالم المهمة شارحًا لهما بعض المعلومات التاريخية. لم تستطع «سارة» أن تستوعب كل ما سمعت. فابتسمت مقلصة وجهها، وعيناها تومضان، وقالت:

www.rewity.com

– لن أتذكر نصف ما قلته لنا. أخشى أن أضطر إلى شراء دليل سياحي.

– في إمكانك أن تفعلي ذلك بالطبع، إلا أنك ستجدين كثيرًا من الكتب الجذابة والمشوّقة حول «أيونا» في مكتبة «الوخ غويل». أخذت «جيل» تتلكأ في الخلف، وبدا عليها الضجر التام، وقالت متشكية عندما سألتها «سارة» عما ألم بها:

– لقد أتيت إلى هنا مرارًا في السابق. أجاب «هيو» رافعًا وجهه العابس بصبر نافد قبل أن تستطيع «سارة» أن ترد:

– مرة واحدة. ثم إنك قد تأتين إلى هنا مئات المرات ومع ذلك تكتشفين ناحية لم تعرفي عنها شيئا من قبل.

– ولكن كل شيء هنا قديم جدًا! احتجت «جيل» غاضبة وقالت:

– وأنت تعرف أنني لم أهتم مطلقًا بالتاريخ في المدرسة أو خارجها. خذ هذا المدفن مثلا... (وأشارت بيد آمرة إلى مقبرة «أوران») عندما كان عمي «ديفيد» حيًا كان لا يمل أو يتعب من ترديد هذه المعلومات وغيرها على مسمعي عندما كنت طفلة، وهذا ما يجعلني أتذكرها جيدًا. إن عقلي يوشك على الانفجار عندما أفكر في هذا الموضوع.

كان تعبير «جيل» مضحكًا إلى الحد الذي كاد يدفع «هيو» إلى الابتسام رغمًا عنه. ولم تدهش «سارة» عندما أعلنت «جيل» بعد ذلك بأنها تفضل أن تذهب إلى الفندق لكي تجد شخصًا تتحدث إليه.

– سأراكما هناك. هتفت بذلك وهي تلوح لهما بلا اكتراث، مبتعدة. شرح «هيو» لـ«سارة» أن «جون فينلي» ينوي قضاء العصر مع صديق جاء ليعيش على الجزيرة قبل مدة قصيرة. وسارا معًا في اتجاه الكاتدرائية في الشارع الذي كانت تسير فيه مراكب جنازات الملوك والزعماء قبل أن تحمل جثثهم إلى مقرها الأخير. بهرت «سارة» بروعة الكاتدرائية وتسارعت نبضاتها. فهي على عكس «جيل»، تستجيب على الدوام لجمال الأبنية القديمة وللأجواء التي تعشش فيها، ولهذا فإن نظرتها الأولى للكاتدرائية التي انحدرت فوقها أشعة الشمس مؤلفة أحجارها الجرانيتية الوردية جعلتها تتسمر في أرضها أسيرة لكل هذا البهاء.

– إن منظرها يستحوذ على النفس، أليس كذلك؟ فأجابته بهزة صامتة من رأسها وبابتسامة خفيفة. فأخذ ذراعها وقادها إلى الأمام. وقد علا التفكير وجهه الأسمر،

وقال:

– لم أر لها مثيلا من قبل. دخلا البناء من البوابة الرئيسية التي ذكر لها «هيو» أن تاريخ بنائها يرجع إلى عام ألف وخمسمائة ميلادية. وتمهلت قرب حجر منحوت، زين بنقوش محفورة تشرح قصصًا دينية قديمة، وقادها من مكان إلى آخر. وعندما وصلا إلى الجدار الشرقي النورماندي لفت نظرها إلى لوحة زيتية شهيرة. وعلى الرغم من أن الإضاءة كانت خافتة في الجناح الشمالي من الكاتدرائية إلا أنها لم تستطع أن تخفي جمال اللوحة. وانتقلت أفكارها ببطء إلى «كولن»، وشعرت بأنه من المؤسف ألا يكون هنا في هذا الوقت من العصر، فهذه اللوحة الرائعة، والكاتدرائية، وكل ما يحتويه المكان لابد أنها كانت ستستثير حماسته الفنية. لاحظ «هيو» فورًا التبدل الذي اعتراها، فسأل:

– ماذا يزعجك يا «سارة»؟ واستقرت نظراته عليها بشيء من السخرية. وأحست «سارة» بأنه يغزو أحاسيسها فسارعت إلى دفعه عنها. وقالت متجنبة بمهارة أن ترد على سؤاله:

– لا شيء ... وازاحت شعرها عن جبينها، ثم تركت اللوحة وسارت عبر الباب الشمالي إلى الرواق الخارجي. ثم توقفت أمام تمثال جميل وقد داهمها شعور بالحماقة. ولاحظت أن التمثال صنع عام ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين. ثم شعرت بـ «هيو» يقترب منها. وقال لها:

– من المؤسف أنك لا تجدين القدرة على الإفضاء بما يزعجك يا «سارة». هل أبدو لك وحشًا مرعبًا؟

– طبعًا لا. وحثت نفسها على بذل مزيد من الجهد. وقالت:

– إنك لطيف جدًا هذا العصر.

– أسلوب ممتاز في الكلام، ولكنني أعتقد – لا أعرف كيف – أن هنالك شيئًا يسبب لك الإزعاج يا صغيرتي الجبانة. وقفت «سارة» تحدق إليه، والنور والظل يتلاعبان فوقها، وجسمها المشدود بحذر يتأرجح على حافة الهروب. بعد لحظة صمت قال باكفهرار:

– وبما أنه يبدو أنك فقدت لسانك، وأنني قد أفرغت جعبتي من المعلومات، فإنه

من الخير أن نذهب للبحث عن «جيل» فهي على الأقل تملك ذخيرة لا تغيض من الكلمات. ظلت «سارة» على صمتها. وراحت تنتظر أن يتلاشى اضطرابها. وغادرت الكاتدرائية على مضض مع «هيو»، وسارا في اتجاه فندق القرية. وقال «هيو»:

– على كل حال، أعتقد أنك رأيت ما فيه الكفاية اليوم. وإذا ما حاولت أن تري المزيد فقد تصابين بسوء هضم ذهني، ثم إنه في وسعنا أن نعود إلى هذا المكان إذا ما رغبنا.

بعد أن فرغوا من تناول الشاي، اقترح «هيو» أن يذهبوا في جولة صغيرة بمحاذاة الشاطئ إلى الخليج، حتى يحين موعد عودة «جون فينلي»، ولكن «جيل» تذرعت بالتعب، وأبدت الرغبة في أن تظل في الفندق، من أجل أن تتحدث إلى بعض الطلاب الذين كانوا يقيمون في الفندق، فوافق «هيو» على طلبها متذكرًا عمليتها.

سارت «سارة» في رفقة «هيو» بمفردها، ورغبت في أن ترى كل ما يمكن أن تراه في «أيونا» في الساعة المتبقية لهما، لأنها ظنت أنه من الحماقة أن تضيع مثل هذه الفرصة، حتى ولو كان هذا يعني أن تتيح لـ «هيو» أن يشاكسها كلما قالت أو فعلت شيئًا غبيًّا. يجب أن تتعلم كي تتجنبه. كان الطريق في اتجاه الجنوب يسير بمحاذاة شاطئ رملي، ولكنه انتهى قبل أن يصلا إلى الخليج، فسارا على الرمال عدة أمتار، لأن المد كان قد انحسر كاشفًا جزءًا من الشاطئ. كان الخليج صغيرًا وجميلا جدًّا، إذ انحدرت الصخور المطلة عليه في تدرجات عريضة تغطيها شجيرات اللبلاب. وكانت قمم الصخور مكسوّة بأعشاب الخلنج التي ترتدي حلة من الزهور الوردية في الفصل المقبل. وبدت البقعة مهجورة مما أثار دهشة «سارة»، فقد ظنت أنهما سيلتقيان ببعض السياح هنا.

وانعطف الخليج متغلغلا في البر بينما راحت الرمال البيضاء تتألق قرب الصخور التي كستها الطحالب الفضية، وفاضت البرك الصغيرة التي خلفتها الأمواج بمختلف أنواع الأعشاب البحرية الرقيقة المتعددة الألوان. وامتدت أمامهما – مطلة بعظمة – جبال «مل» بقممها الغارقة في رماد الغيوم، وكان الهواء نقيًّا عليلا، وبدا كأن الألوان في «أيونا» تتصف بنوع من الصفاء الغريب الذي يأسر الحواس.

جثت «سارة» على الرمال لتخلع حذاءها، وقد نسيت وجود «هيو» للحظة، ثم

ثنت نهايتي بنطلونها. وفجأة شدها «هيو» بسرعة وصمت إلى ظل صخرة مجاورة، فكادت أن تفقد توازنها، ومدت يدها بحركة مرتعشة لكي تمنع نفسها من الوقوع. وقال «هيو»:

– إذا ما انتظرت هنا قليلا قبل أن تتسرعي في الغوص في البرك، فإننا قد نرى بعض الطيور القانصة المحار. لقد وعدت أن آخذك لمراقبة الطيور، أليس كذلك؟

على الرغم من حرارة الجو واليوم الحافل بالمغامرات شعرت «سارة» بموجة من الإثارة لم تقمعها رنة المزاح في صوت «هيو»، والوميض الساخر في عينيه. إذا كان يظن أن قضاء نصف ساعة على شاطئ رملي كفيل بأن يخلصه من الوفاء بوعده لها بمرافقتها لمراقبة الطيور. فهذا حسن ومن هي لتناقشه في قراره؟ عاد ذهن «سارة» إلى «كولن براون»، لأنها شعرت بأن الجزيرة بمناظرها وطيورها لابد أن تشكل موضوعًا مفيدًا له.

– انظري! ولكزها «هيو» بلطف مشيرًا إلى بعض الطيور القانصة المحار التي استقرت على الشاطئ قربها. وقال لها:

– لعل هذه الطيور تبحث عن سرطان البحر. إذا ما جلست دون حركة فلعلنا نرى أحدها يمسك بالسرطان.

– حاولت «سارة» أن تفعل ما اقترحه عليها، ولكن ضيق المكان أزعجها، إذ وجدا نفسيهما في شق عميق بين الصخور. وكادت كتافهما تتلاصقان. وشعرت بالرمال تتسرب من خلال أصابع قدميها، مما أثار في نفسها شعورًا حسيًّا غريبًا، فتسارعت ضربات قلبها مما جعلها تخشى أن يلاحظ «هيو» هذا الوجيب، فأدارت رأسها نحو الشاطئ، وأفلتت منها تنهيدة خافتة. كانت الطيور التي رأتها كبيرة، بيضاء وسوداء، ولها مناقير برتقالية تتصاعد منها بين الحين والآخر صيحات حادة وغريبة، سرعان ما تنقلب إلى نغمات مزمارية مجنونة كلما اهتاجت الطيور أو اضطربت. وراحت هذه الطيور الصاخبة التي بدت أليفة نوعًا ما تحفر حفرًا في البرك الصغيرة التي خلفتها مياه البحر، بمناقيرها الطويلة بين الطحالب البحرية. وصادف الحظ بعضها، وأمسك أحدها بسرطان كبير، ولكن سرعان ما فقد فريسته عندما انقض عليه طائر نورس كبير، واختطفها منه، فعلقت «سارة» قائلة:

– لتكن الغنيمة من نصيب الرجل الأفضل.

– أليست هذه هي الحالة دائمًا؟ ردت «سارة» بتمهل وهي تبحث عن صندلها، وقد أخذ اهتمامها بالطيور، وحتى بالبحر ينحسر، إذ أحست بأن الوقت قد حان للعودة.

– يسعدني أن أعتقد ذلك. واتكأ «هيو» على الصخور خلفه بارتخاء، سادًا طريق الهرب أمامها. ولم يبدُ عليه أنه كان على عجل وقال:

– ولكن هذا لا يحدث دائمًا، خصوصًا فيما يتعلق بالنساء اللواتي أجدهن مخلوقات مشاكسة عنيدة، وهن أحيانًا يقعن في هوى الرجل حبًا في نقائصه وضعفه، مما يجعلهن يتعامين عن حاجته إلى خصال أكثر صرامة. نظرت «سارة» إليه بسرعة وقالت في نفسها: «هل يشير إلى إنسان معين بالذات؟» ثم قالت باحتراس:

– قد تكون على حق. وانحنت إلى الأمام عابثة بالرمال بين أصابعها النحيلة. وأخفى شعرها المتهدل على جبينها تعابيرها. لن تناقش، لأنها لا تريد أن ينتهي هذا اليوم المثالي بنغمة ناشزة. وثبتت صحة حدس «سارة» عندما سأل «هيو» فجأة:

– هل تظنين أن «جيل» ما زالت تصبو إلى صديقها القنان؟ فقالت بسرعة:

– من المحتمل أنها ما تزال، بل أعتقد أنه أكثر من احتمال.

– ألم تُسرَّ لك بشيء؟

– لماذا لا تسألها بنفسك يا «هيو»؟ ارتفع حاجباه الداكنان فقال:

– إنك تتعمدين المراوغة والتملص. فلدغتها كلماته، وشعرت بأنه ليس هنالك أمل في أن تستطيع إخفاء الحقيقة.

– «سارة»! رفعت رأسها منتفضة، إذ خرقت مسمعها صرخته القصيرة. كان وجهه قريبًا جدًا منها، حتى أنها استطاعت أن تتبين الخطوط الحادة حول فمه قبل أن تلتقي عيناها مباشرة بعينيه، وقالت:

– «هيو»... عندما ترجع والدة «جيل» ألن تعيد النظر في الموضوع، وتوافق على مقابلة هذا الرجل؟ لابد أنه يملك بعض الصفات الحسنة. استراحت نظراته على ذراعها العارية، وامتدت يده إلى يدها، وفك أصابعها المتقلصة برقة واحدًا فواحدًا،

فأفزعتها لمسته ووخزتها كالإبر، قال بعذوبة وعيناه تستقران ثانية على وجهها المصفر:

– هل تعتقدين أنني يجب أن أفعل يا «سارة»؟

– لا أظن أنك ستندم على مثل هذه الخطوة. وحمل صوتها رنة أسى خفيفة. قال بسخرية رقيقة:

– هذا تفاؤل عظيم! لكن من أجلك يا «سارة» قد أقدم على هذه الخطوة. أضاء وجهها فجأة عاكسًا الدفء الداخلي الذي غمر جسمها، ولكنها هزت رأسها قائلة:

– إن ما تفعله يا «هيو» يجب أن يكون من أجل «جيل» لا من أجلي، فالمشكلة هي مشكلتها لامشكلتي.

– ولكنك قد تجابهين مشكلة خاصة بك بأسرع مما تتوقعين. تناهت إليها كلماته متكاسلة غامضة. ومد رجليه بخفة بجانبها، وراح يلف خصلة من شعرها الطويل حول أصبعه، وقفز قلبها بتعاسة عندما حطت نظراته عليها. لن تستطيع الإفلات منه إلا إذا أطلق سراحها. وشعرت بأنه من الغباء أن تتوسل إليه ليفعل ذلك قالت في نفسها: «ماذا عنى بكلماته الأخيرة؟» وفاضت فيها التساؤلات. لقد عانت قسوته من قبل. كيف سيتصرف لو عرف أن «كولن» يعيش هنا، وأنها قد علمت بالأمر؟ لا، لا يمكنها أن تفكر فيما سيحدث. وقالت «سارة» محاولة أن تتخلص من تعذيب أعصابها المرهقة:

– إن «جيل» لا تفهم لماذا ذهبت والدتها إلى «أمريكا» دونها.

– من الأفضل ألا تفهم.

– في كلماتك نذير. وندمت «سارة» على جملتها المتسرعة. سيظن أنها تحاول أن تسبر غوره. ابتسم «هيو» فجأة، وشد خصلة من شعرها حول أصبعه بحركة قاسية متعمدة، وراقبها وهي تجفل، فقال بنعومة:

– الحقيقة...؟ أظن أن «جيل» قد طلبت منك أن تجسي نبضي، أيتها الأعجوبة الصغيرة. حسنًا! قولي لها إنني رفضت أن أتكلم، ودعينا نرى ماذا تفهم من ذلك. اشتعل جلد «سارة» انفعالا وغضبًا يائسًا وقالت:

www.rewity.com

– ولمَ الظهور بمظهر المنافق؟

– أنا لست منافقًا فيما يتعلق بك. في ظروف غير هذه كان من المحتمل أن أستجيب لإغراء جمالك؛ فما أنا إلا بشر.

– لا تبدو واثقًا بما تقول.

– طوال حياتي... كان من عادتي أن أتصرف بسرعة، ولكن الرجل يجب أن يتمهل أحيانًا. إن مظهرك البريء يجبر المرء على كبح نفسه، ولكن هذا المظهر قد يكون خداعًا. شهقت «سارة» وقد كاد الغضب يخنقها. ورفعت يدها التي لمست خده المشدود في محاولة للتخلص منه فوق الرمال، ولكنه كان أسرع مما توقعت. ووثب كالفهد وأمسك بها قبل أن يقعا معًا على الشاطئ. لم تجد «سارة» متسعًا من الوقت لالتقاط أنفاسها. وتحركت يداها نحو صدره لكي تدفعه بعيدًا عنها، ولم تستطع أن تتحرك تحت وطأة عناقه القوي. وأحست بضربات قلبه وشعرت بدمائها تتأجج وهي تتمنى أن تستمر هذه اللحظة إلى الأبد. قد تكون هناك أشكال أخرى للتعذيب، لكن لا يوجد ما يوازي هذا الشكل عمقًا واكتساحًا. كان الهواء يمور بصيحات الطيور وأغانيها، ولكن «سارة» لم تبال. وتباطأت الثواني ثم طالت. وأخيرًا رفع رأسه الداكن، وراح يحدق إلى وجهها المورد. وفجأة جرت نفسها بعيدًا عنه، وهي غير قادرة على التفكير بسبب الفوضى التي غمرت ذهنها. وارتجف صوتها وهي تنظر إليه باهتياج قائلة:

– هل هذه هي طريقتك في التأديب؟ راحت عيناه تحومان حول عينيها الزرقاوين بأهدابهما الكثيفة واللتين ما تزالان طافحتين بالعواطف. ثم قال بسخرية متعمدة:

– لم أجد طريقة أكثر سحرًا وجاذبية. تراجعت «سارة» إلى الخلف بحركة احتجاج لاإرادية. ردت «سارة» بعنف، إذ راحت عيناه ترمقانها، وقد لاح فيهما وميض من التهديد.

– لم أستسغ ما حدث. ثم قال بصوت ناعم:

– يلوح لي أنك أنت المنافقة الآن أو... ألا تعرفين؟

– لقد نصحتني بأن أبحث عن علاقة رومانسية.

– لن تجدي مثل هذه التجربة مع «أيان ماكنزي».

– ماذا تعني؟ قال «هيو» هازئًا لاويًا شفتيه:

– هل تريدينني أن أفسر؟

– لا... أنا... وارتعشت شفتا «سارة» حتى لم تعد قادرة على أن تجبر نفسها على الكلام. وكرهت أن ترى القناع يزاح عن عواطفها فتتعرى أمام عينيه. وحدقت إلى وجه «هيو» الأسمر الوسيم، وشعرت بتأثيره فيها؛ لأن جزءًا من ذاتها راح يستجيب بطريقة لا قدرة لها على التنبؤ بها، لشخصيته المسيطرة. إذا لم تقاومه فسيخضعها تمامًا ويسحقها. وشعرت بالخوف يكتسحها، فقالت رافعة شعرها إلى الوراء بأصابع مرتجفة:

– من الأفضل أن نذهب. فرد قائلا وعيناه تحدقان إليها بوحشية:

– ألم يضمك أحد من قبل أم هل ستحاولين أن تنكري ذلك؟ وانتصب رأسه فجأة.

– أعتقد أنني أكرهك. ردت «سارة» وهي موقنة أن الحقيقة هي العكس، محاولة أن تتجاهل الألم الذي راح يمزق أحشاءها فقال:

– هذا ما تصرين على ادعائه. ولكني أظن أنك تعرفين أن هذه ليست هي الحقيقة. وأنا أستطيع أن أبرهن لك على ذلك. في الحقيقة قد تستمتعين بالتجربة. أنا أضمن لك هذا، ولكنك لست من النوع الذي اعتدته.

– لا يبدو أن هذا قد شكل لك عائقًا حتى الآن، ولكنني بالتأكيد لست واحدة من نسائك المتوحشات، ساكنات الغابات الاستوائية أو الصحارى. شعرت «سارة» بأن غضبها قد أعانها على استعادة بعض تمالكها لنفسها وساعد على إبطاء ضربات قلبها. ولاحظت وميض التسلية في عينيه وهما تستقران على العرق الذي راح ينتفض في أسفل عنقها.

– في غابة لن يردعني شيء عن التصرف تجاهك كما أريد. كم أتمنى أن أعثر عليك في غابة يا «سارة»! لأنك لن تستطيعي الإفلات مني هناك.

أدركت «سارة» أنه كان يهزأ منها ضاحكًا، ولكن عينيه راحتا تومضان بنور رمادي كالفولاذ، وأحست بضعفها المخجل وهي تحدق إليه كالمأخوذة. لقد اعترفت مسبقًا بأنها ليست ندًا له من حيث البراعة اللفظية، وتضاءل بصيص الأمل في أن تستطيع

www.rewity.com

مناورته والانتصار عليه بوسيلة أخرى، ثم تلاشى من نفسها تمامًا، وعرفت أنه من الحماقة أن تحاول المستحيل، فهزت رأسها غير قادرة على الكلام. أما «هيو» فقد انتصب على قدميه، قافزًا بخفة لا تتفق مع حجمه وطوله، وقال:

– من الأفضل أن نذهب من هنا. بدا «هيو» كمن صحا فجأة، وقد فارقته روح السخرية. ورفعها نحوه بحركة بارعة في دقيقة واحدة، فآلمت أصابعه عظام رسغها، وأردف قائلا:

– لن أكون مسؤولا عما يحدث لو بقينا هنا وأنت تبدين على هذه الصورة، بشعرك المحلول وقدميك العاريتين. أفلت «هيو» ذراعها وقد راحت تحدق إليه بعينين واسعتين تطلان من وجهها الشاحب، محاولة أن تسيطر على الشعور الغريب الذي غمر نفسها. وانحنت بحركة آلية لتلتقط صندلها. وأحست بغثيان خفيف، بسبب الشعور بالمذلة الذي اجتاحها والذي لم تستطع له تفسيرًا، وتمنت لو تستطيع الهرب منه، وقالت بصوت خال من التعبير:

– لا تقلق، فإن هذا لن يحدث ثانية.

عادوا إلى «لوخ غويل» ليجدوا الفوضى قد استتبت في القلعة ذلك المساء. وكان السبب هو أن «بيدي» بعد مناقشة طويلة أعلنت أنها لزمت الفراش بما فيه الكفاية، وأن الوقت قد حان لكي تنهض من فراشها وتتولى إعداد العشاء. فاعترى الفزع «كاتي» التي سارعت إلى إخبار الدكتور «ماكنزي» بالهاتف. ووصل الطبيب في اللحظة التي وصلت فيها «بيث». ولما كان «ماكنزي» في القلعة عند عودتهم من «أيونا»، فقد اضطر «هيو» إلى دعوته لتناول العشاء معهم. وقبل «ماكنزي» الدعوة بسرعة غير عادية، خالية من الخجل. تمتم «هيو» بجفاء هامسًا في أذن «سارة» وهم يجلسون على كراسيهم حول المائدة:

– يبدو أنه يزيد مراقبة مريضتنا المقعدة». أجفلت «سارة» متجاهلة هجومه، إذ أزاح لها الكرسي لكي تجلس. ألا يفوته شيء؟ إن عيني «أيان» لم تفارقا وجهها منذ أن هبطت الدرج قبل خمس دقائق. وكان من المفروض أن يجلس بجانبها، ولكن «هيو» سبقه ببراعة وتعمد كما ظنت «سارة». سأل «هيو» مخاطبًا الطبيب بصوت لاذع، وهو يأخذ مكانه بين «جيل» و «بيث» التي بدت جذابة جدًا في ثوب أسود أنيق:

– أعتقد أن «بيدي» تستطيع الآن مزاولة عملها؟

– أشاركك الرأي. كان من الأفضل أن تبقى في السرير مدة أطول. ولكن المرء لا يستطيع أن يأتي بالمعجزات. لقد كانت الأعجوبة أن تنجح «سارة» في إبقائها في السرير لمدة أسبوع. وعدتني «بيدي» بألاّ تتعب نفسها. ردت «بيث» بحيوية:

– إنها لا تطيق فكرة وجود أي شخص آخر في مطبخها. ولهذا حاول أن تداريها ياعزيزي «هيو». قالت «جيل» بجرأة كبيرة ووجهها يفيض بالاستياء:

– إذا ما فكر «هيو» في الزواج والاستقرار فقد تستطيع زوجته أن تبقي «بيدي» في مكانها. لا أستطيع أنا شخصيًا أن أتصرف تجاه نزوات «بيدي» ومزاجها.

– قد تثبت زوجتي المقبلة أنها أسوأ منك في هذا المجال. قال ذلك «هيو» مداعبًا «جيل» بكياسة، ناظرًا إليها بابتسام، وهو يملأ كأس «أيان» ضحكت «جيل» وهي تتناول ملعقة الحساء، وقالت:

– لا أصدق ذلك إن أمي تقول... إنه على الرغم من كونك رجلا فإنك ستنتقي جيدًا ساعة الاختيار.

أحست «سارة» بشعور خفيف بالمرض، وراحت تلتقط الطعام من طبقها التقاطًا، غير راغبة في رفع رأسها الذي أخذ يدور. كان شعورها بوجود «هيو» بجانبها طاغيًا، وراح يلهيها عما حولها بمغناطيسيته الغريبة التي وجدت نفسها غير قادرة على مقاومتها، وفسرت «سارة» شعور الأسى والكآبة الذي اعتراها بتعبها والإثارة العاطفية التي عانتها هذا العصر، وكان الإحساس بالبحر والسماء وفتنة تألق أشعة الشمس فوق المياه ما يزال معها، معمقًا في نفسها الشعور بحقيقة تلك اللحظة المؤلمة. واعتراها إحساس بالارتياح عندما أخذت «بيث» تتحدث إلى «جيل» بوجه عابس عن «أيونا» ملقية عليها سيلا من الأسئلة عن رحلتهم وكيف قضوها. اتكأ «أيان» باحتراس إلى الأمام، وقال لـ «سارة» وعيناه تعكسان عتابًا خفيفًا:

– لو عرفت أنك راغبة في الذهاب إلى «أيونا» لسرّني أن أصطحبك. في الحقيقة سأذهب إلى «أيونا» في الأسبوع المقبل من أجل زيارة مريض. هل تحبين أن تأتي معي؟

– آه، آسفة...

www.rewity.com

حدقت «سارة» إليه مترددة. لم يستطع أي شيء منذ عودتهم أن ينتزع من ذهنها سحر «أيونا»، ولكنها - وهي تسترجع ما حدث أجبرت نفسها على التركيز في الكاتدرائية بدلا من شاطئ البحر، إنها لن تطيق العودة إلى «أيونا»، ليس الآن على الأقل. ولكن كيف تستطيع أن ترفض؟ فقد اكتشفت، على الرغم من قصر مدة تعارفهما، أن «أيان» قادر على إبداء الكثير من العناد والمشاكسة إذا ما رغب. سارع «هيو» إلى القول بحزم بينما كانت لا تزال تفكر:

- إن «سارة» فتاة عاملة يا «أيان». لا أظن أنني أستطيع الاستغناء عنها. ضغط العمل ليس كما هو عليه هنا. اليوم، كان حالة استثنائية. لقد أردت أن أرى «جون فينلي»، وظننت أن التغيير قد يفيد «جيل».

- وأنا أريدها أن تخصص يومًا من أجلي. تدخلت «جيل» قائلة قبل أن يجد «أيان» فرصة للاعتراض:

- أرغب في أن نذهب معًا إلى «أوبان»؛ لأنني أريد أن أشتري ثوبًا للحفلة، فليس عندي فستان واحد مناسب.تململ «هيو» بغيظ بجانبها، وقال:

- لماذا، بحق السماء - لم تجلبي فستانًا معك يا «جيل»؟ كان يجب أن تعرفي أنك قد تحتاجين إليه. ابتسمت «جيل» ابتسامة عذبة لأخيها، ورمقته بعينين واسعتين بريئتين.

- كان السبب هو عمليتي، يا عزيزي «هيو»، لقد منعني المرض من التفكير في الحفلات والرقص، ولهذا أرجو ألا تبخل عليَّ بـ «سارة». أنا واثقة بأنك تستطيع الإستغناء عنها لعدة ساعات. ألا توافق يا «أيان»؟ وأدارت وجهها المتوسل إلى الطبيب. هز «أيان» رأسه بالإيجاب متحالفًا معها، وقد عاد إليه مزاجه اللطيف وقال:

- على كل حال، سأرافق «سارة» إلى الحفلة الراقصة. لا تستطيع أن تجبرها على العمل خلال الحفلة يا صديقي العجوز. قهقه الجميع، أما «سارة» فقد وجدت من الصعوبة حتى أن تبتسم. وتحولت عيناها رغمًا عنها إلى «هيو»، ولاحظت بخوف فجائي عصبي أن فمه كان مضمومًا بشدة. وومضت عيناه وهو ينظر إلى الرجل الجالس قبالته. ولكنه قال بإهمال دون أن تبدو عليه أمارات الغضب:

- أقول في صالحك إنك رجل لا يضيّع الوقت. إلا إذا... أضاف بلهجة معسولة:

- إلا إذا كنت جسورًا بعض الشيء. تحركت «سارة» على كرسيها في قلق، وأصابعها الملفوفة حول كأسها مشدودة من التوتر. وأدار «هيو» رأسه فقابلت عيناها نظرته، وأدركت أنه عليها أن تقول شيئًا، ولكنها لم تدر كيف تجيب، فهزت كتفيها بحركة عاجزة وقالت:

- لقد اتخذت قراري صباح البارحة فقط. اعترفت بتعاسة وهي تنظر في اتجاه «بيث»، وأردفت قائلة:

- لقد سألتني الآنسة «أسكويث» أن أحضر الحفلة قبل يومين، ولم أعتقد أنك ستمانع. قال «أيان» ضاحكًا ووجهه اللطيف يشرق بالابتسام:

- يبدو أن «هيو» يتخيل أني سأهرب معك. وبدا من الواضح أنه لم يكن على علم بالتيارات الخفية وراء الكلمات. وتمهلت نظراته بحماس على وجه «سارة» المورد، وقال:

- لم تتح لي الفرصة لحضور الحفلة منذ سنوات، بسبب طبيعة عملي، ولكن لن يحول بيني وبين حضورها هذه المرة إلا كارثة أو ما يشابهها. بعد ذلك أخذ الحديث مجرى أكثر طبيعية، لكن «أيان» - قبل أن يغادر القلعة، وبينما كانت «سارة» تستطلع رأيه الأخير بشأن «بيدي» - توسل إليها ثانية بألا تنسى أنها قد وعدت بالذهاب معه إلى الحفلة. واستطرد قائلا:

- ليس لأن الحفلة مهمة يا «سارة». أنت تدركين هذا بالطبع. ولاحت في عينيه اللطيفتين فجأة نظرة حادة، ولكنني لم أقابل فتاة مثلك من قبل، ويخيل إليَّ أنني قد بدأت أقع في حبك.

- آه، من فضلك يا «أيان»... وحدقت إليه مجفلة، وأردفت قائلة:

- لا يمكن أن تكون جادًا، إذ إنك لم تتعرف إليَّ إلا منذ أيام فقط. واعترت «سارة» حالة من الاضطراب التي أفلحت - بالإضافة إلى تعبها - في تمزيق أعصابها. وبدا «أيان» جادًا تمامًا وكأنه يصدق ما يقول. لو أنها لم تكن تعاني الإحساس بوجود رجل آخر لكانت الأمور - دون شك - مختلفة. واجتاحتها موجة من اليأس مشتتة قدرتها على التفكير المنطقي. ولم يسعها إلا أن تحدق إلى وجه «أيان» دون أن تنبس

www.rewity.com

بينت شفة. لكن قبل أن تستطيع قول أي شيء آخر، التقط «أيان» قبعته القديمة مبتسمًا ابتسامة حزينة، وكأنه قد خمن بعض ما كان يجول في نفسها، وقال:

– لا تهتمي يا «سارة»، نامي على الفكرة بهدوء هذه الليلة، ولا تدعيها تزعجك.

ثم ودعها بلمسة رقيقة من يده، وتركها واقفة شاخصة في الفضاء وراءه. لقد كان يومًا حافلا بلا شك!

- 8 -

قررت «جيل» ألا تذهب إلى «أوبان» لشراء فستان جديد، واعترفت لـ «سارة» بأن الفكرة ولّدها في نفسها دافع عنيد لقضاء يوم بأكمله مع «كولن» الذي كان من المنتظر أن يرافقها، ولكنها بعد تفكير عميق قررت أنه ليس هنالك ما يدعو إلى الإقدام على هذه الخطوة الخطيرة. وقالت لـ «سارة»:

– قد يكتشف «هيو» الحقيقة بسهولة. أو قد يصر على القدوم بنفسه خوفًا من أن أتعرض لنكسة، وأنت تعرفين «هيو». أحيانًا يخيل إليّ أن له عينين في مؤخرة رأسه. استجابت «سارة» للملاحظة «جيل» بابتسامة متقلصة. ولم تكن تشعر مطلقًا بالرغبة في الذهاب لشراء ثوب برفقة «جيل». كما أنه لم تكن لديها رغبة حقيقية في ترك «لوخ غويل» حتى ولو ليوم واحد، ولهذا فقد داخلها ارتياح كبير عندما غيرت «جيل» رأيها. تحركت «جيل» متململة عندما لم ترد عليها «سارة»، كانت لا تحب الصمت من أي نوع. وراحت عيناها تتجولان بتفكير فوق وجه «سارة»، وقالت لها:

– سمعت «هيو» يقول لـ «بيث» الليلة الماضية إنه قد يذهب إلى «لندن» ثانية في الأسبوع القادم. قد أذهب معه لقضاء يومين أو ثلاثة إذا قبل باصطحابي. إن «كولن» مشغول جدًا، وعليه أن ينجز بعض المهام المتأخرة. ولاشك في أنه سيغتاظ مني لو أعقته عن العمل، ولكن إذا ما ذهبت مع «هيو» فإن هذا سيعطيه الفرصة لينسى وجودي حتى أعود. أدارت «سارة» رأسها ببطء وحدقت إليها وقد انتزعتها كلماتها من خمولها وقالت:

– إن السيد «فريزر» لم يذكر لي أنه سيذهب إلى «لندن» بينما كنا منهمكين في العمل هذا الصباح.

– لعله لم يفكر في الأمر. فهو مشغول جدًا طوال الوقت بالجري وراء «بيث». لا أعرف لماذا أسمح لنفسي بتحمل كل هذا القلق من أجل إخفاء «كولن» عن الأنظار. إن «هيو» لن يلاحظ ولو جلسنا أنا و «كولن» فوق قمة جبل «بن مور».

– لقد ذكرت قبل لحظة أنه لا يفوته شيء، حتى ولا كلمة.

– هل يجب أن تأخذي كلامي دائمًا على محمل الجد؟ إنما أنا أحاول أن ألمح إلى أن الحب أحيانًا يعمي الناس. يبدو لي أنه من المؤكد تقريبًا أنه سيعلن خطبته في الحفلة.

– تعنين خطبته إلى «بيث»؟ وحاولت «سارة» أن تبتسم، ولكن شفتيها لم تفلحا إلا في الانفراج بألم.

– ومن غيرها؟ لقد راقبتهما جيدًا، وأنا واثقة بأن هناك علامات.

– علامات؟

– إن المرء لا يحتاج إلى رؤية حادة أو قدرة على قراءة المستقبل لكي يرى ما يحدث. لقد وضعت اثنين واثنين معًا: إن «هيو» يفكر في البقاء في «لوخ غويل» كما سبق أن ذكرت لك. لقد اكتشفت أن لديه خطة لابتداء مشروع بتربية الخيول وتوليدها. فقد كان دائمًا مغرمًا بالخيل. أعتقد أنه يفكر أيضًا في بناء بعض الأكواخ والبيوت في ممتلكات القلعة، لأن عددًا من الأكواخ القديمة قد بدأ يتداعى إلى الحد الذي لا يمكن معه ترميمها. ولهذا، إذا ما أخذنا في الاعتبار كل شيء، فلابد أن تكون «بيث» في منتهى السرور الآن.

– منتهى السرور؟ ماذا تعنين بقولك هذا؟ قد تكونين مخطئة. قد يكون «هيو» قرر أن يترك «لوخ غويل» نهائيًا. ويبيع أملاكه هنا بعد أن ينسق أمورها، ثم إن «بيث» قد لا ترغب في العيش هنا أبدًا.

– أعتقد أنك أنت المخطئة. على كل حال، إن الوقت سيحكم بيننا.... استطردت «جيل» قائلة وهي تنقل نظراتها الحادة الساخرة من البركة إلى وجه «سارة»:

– وبالمناسبة لماذا تكثرين من استعمال لقب السيد «فريزر» هذا العصر. البارحة بعد

عودتنا من «أيونا» كنت تستعلمين لقب «هيو» فقط. في الحقيقة لو لم تكن «بيث» في المنظر، ولو كنت فتاة أخرى غير سكرتيرته، لظننت أن «هيو» قد افتتن بك يا«سارة» العزيزة.

– لا تكوني غليظة! أحيانًا، أنا أنادي السيد «فريزر» باسمه «هيو». وقفزت «سارة» على قدميها مرتبكة وقد اشتعل خداها احمرارًا. إن «جيل» لا تحتمل! وتحركت متململة وقد اعتراها دافع فجائي غامر بأن تذهب إلى مكان ما. كان الجلوس في الحديقة ممتعًا، لكنها أحست بأنها لا تستطيع البقاء في مكانها مدة أطول، نهبًا للشكوك إثر ما قالته لها «جيل».

– هل لديك مانع من السماح لي باستعارة سيارتك لمدة ساعة أو ساعتين؟ أحس بالرغبة في أن أذهب للمشي، ربما في اتجاه جبل «بن مور». لقد أمضيت طوال العصر في الكوخ بصحبة «غوين»، ولهذا فأنا أرغب في استنشاق بعض الهواء النقي. أرجوك أن تطلبي من «بيدي» ألا تحتفظ لي بأي طعام. سأتناول عشاء خفيفًا عندما أعود.

– حسنًا يا عزيزتي! ولكنني لا أعرف من سيزعجك لو بقيت هنا، فأنا سآخذ حمامًا طويلا ساخنًا، ثم أصطحب «كاتي» إلى «سالن» لكي تزور خالتها، ولهذا لن أحتاج إليك هذا المساء. ابتسمت «سارة» رغمًا عنها، بسبب اللهجة الملوكية التي ألقت بها «جيل» كلماتها الأخيرة. وأحست بأنها تعرف تمامًا ماذا ستفعل «جيل». ستأتي «كاتي» إلى كوخ الآنسة «بلاك» ثم تذهب لقضاء الأمسية مع «كولن». ولكن «سارة» لم تعلق واكتفت بأن تقول:

– سأراك غدًا إذن. ما كان بإمكان «سارة» أن تجد متعة في هذه اللقاءات السرية، والإثارة الناتجة منها، لأن ذلك كان يعني الاشتراك في خدع «هيو». وارتعشت «سارة» فجأة وهي تسير بعيدًا، فإن الشعور بأنها على علم بالخداع الذي تمارسه «جيل» كان يلازمها دائمًا، وكانت تدرك أن أعصابها المشدودة إلى حد لا يطاق على وشك التمزق. وقد استطاعت في الماضي أن تتحمل، ولكن هذه الأيام الأخيرة كانت أصعب من أن تطاق. فالآن، على الرغم من أن «هيو» كان يبدو وكأنه غير شاعر بوجودها فإن إحساسها هي بوجوده تفاقم، وكذلك إحساسها بالثورة الداخلية العنيفة التي يستطيع أن يسببها لها. إن معظم ما حدث بينهما كان نتيجة

لأخطائها، فإن عليها ألا تلوم إلا نفسها إذا راح الحديث عن احتمال إعلان خطبته يسبب لها الألم. فالرجال عادة لا يعتبرون ضمة أو ضمتين أمرًا جديًا. ولكن «سارة» حنت إلى الشعور بذراعيه تطوقانها ثانية، ولو كان مدفوعًا بنزعة عدائية. هتفت «جيل» وهي تهبط السلالم حاملة سترتها على ذراعها:

– لا تهتمي بالعودة بسرعة أستطيع أن استعمل «اللاندروفر» إذا ما دعت الحاجة.

لماذا لم يخطر لها هي شخصيًا أن تستعمل «اللاندروفر»؟ فكرت في ذلك وهي تسوق السيارة في الطريق المحاذي للشاطئ. كان المنظر جميلا جدًا، وكذلك الجو.

أبطأت «سارة» من سرعة السيارة، وأخذت تفتش عن مكان تقف فيه. وكانت الغيوم المتجمعة من ناحية الغرب تغير ألوان الخليج باستمرار من الرمادي الفاتح إلى باقة من الألوان الزرقاء تفوق بهاء، وتألقًا ألوان البحر الأبيض المتوسط الذي شاهدته خلال عطلاتها في السنين الأخيرة. أوقفت «سارة» السيارة، وتمهلت لحظة قبل أن تخرج منها. خالج أحاسيس «سارة» بعض الانتعاش، مما جعل كآبتها تنحسر وهي في طريقها في اتجاه البرية الوعرة. ووجدت جدولا فراحت تراقبه يسيل فوق الأحجار في مهده الصخري، ثم انحنت وغرفت بعض المياه الباردة في يدها، ورفعتها إلى شفتيها الجافتين، ثم خلعت السترة، وجثت على نتوء صخري فوق شاطئ الجدول، وأخذت في يدها مجموعة من الحصى. وكتبت اسمها بعناية على الأرض، مجمعة الأحجار الصغيرة وقد علا وجهها العبوس لشدة استغراقها.

عندما كانت طفلة كانت أمها تلعب معها أحيانًا على طرف الجدول الصغير قرب بيتهم في «ويلز». وكانتا تتسابقان أحيانًا في كتابة اسميهما بالحصى لتريا من تنتهي أولا، وسهل الأمر أن عدد حروف اسم والدتها كانت تماثل عدد حروف اسمها. وأحست، وهي تستعرض ذكرياتها الآن، بأن معرفة سر فوزها الدائم بهذا اللعبة ليس من العسير تخمينه الآن، لكن أن تربح في أية لعبة مهما كانت بسيطة كان انتصارًا كبيرًا للطفلة «سارة» حينئذٍ، التي لم تتجاوز ربيعها الخامس.

أفلتت تنهيدة من بين شفتي «سارة» وهي تمضي في طريقها، متتبعة مياه الجدول المتلألئة، حتى جذب انتباهها منظر غزال صغير يقف على حافة الصخور. فاقتربت منه باحتراس، ولكن الغزال راقب تقدمها بعصبية وحذر، ثم رفع رأسه وقفز هاربًا.

شردت «سارة» دون هدي، نصف حالمة تحت أشعة الشمس الدافئة. واستسلمت للصمت والهواء العابق برائحة الصنوبر حتى كادت تصل إلى حالة من السكينة المخدرة. وحادت عن الجدول، ثم ذهبت لتجلس على حافة إفريز صخري غارق في الظلال.وكانت قد أفلحت في صعود جزء من جبل «بن مور» المعروف بسهولة التسلق، ولكن ليس دون خريطة وبوصلة، فهما ضروريتان. ولم تكن «سارة» تعتزم أن تتسلق الجبل، وما أرادت إلا أن تتجول لكي تجهد نفسها جسديًا من أجل التخلص من أفكارها. وعندما جلست مسندة ظهرها إلى الصخرة الدافئة، أحست بأنها قد أفلحت في تحقيق مرامها.

حلّق صقر في الفضاء وراقبته «سارة» حتى أطبقت جفونها الثقيلة. ولم يكن هناك سوى الصقر والشمس والريح الهامسة، فغرقت في نوم عميق. لم تتذكر «سارة» بعد ذلك اللحظة التي استسلمت فيها للنوم، ولا ما الذي أيقظها. إلا إذا كان جسدها يحتوي على نوع من جهاز للإنذار ظل متيقظًا في أثناء نومها. ولما فتحت عينيها لم تعرف أين هي. واعتراها الفزع وكأنها وقعت فجأة في قلب كابوس معلق، ولم تستطع أن تعثر على أي أثر يدلها على مكان وجودها؛ إذ أحاط بها حجاب من الضباب الرمادي حاجبًا كل شيء. وما كان الأمر ليختلف لو أنها وجدت نفسها فجأة في عالم آخر، أو في منتصف الطريق بين كوكبين. قط لم تر من قبل مثل هذا البياض الذي يشبه القطن، أو هذا الهواء السميك الذي لاح لعينيها الفزعتين جامدًا، لا يمكن النفاذ خلاله.

بعد لحظات خيل إليها أنها كانت دهرًا، تحركت ببطء وحذر، خائفة من أن تهشم هذا الصمت الرهيب... هذا الصمت الذي لم تعرف له مثيلا من قبل على الرغم من أنها كانت قد قرأت قصيدة عنه في الماضي تتحدث عن جزر «الهيبريديز» وصمت البحار. وتساءلت «سارة» – بابتسامة ملتوية – عمّا إذا كان الشاعر قد عانى مثل تجربتها هذه. أفلحت روح الفكاهة التي خالجتها للحظة في تشتيت بعض مخاوفها، وراحت تمشي متعثرة. وأحست بتقلص في إحدى قدميها وهي تنظر إلى ساعتها مما جعلها تجفل من الألم. كانت الساعة الثامنة تقريبًا. لقد نامت ساعة! ولما خف الألم في قدمها عاد إليها الفزع، وراح ذهنها يجيش بالقصص المأساوية عن

ناس ضاعوا في الجبال، إذ إن والدها كان عضوًا في إحدى فرق الإنقاذ. وعرفت من تجاربه أن رجال الإنقاذ لا يصلون أحيانًا في الوقت المناسب. حاولت «سارة» بيأس أن تتذكر بعض الإرشادات. يجب عليها أن تبقى متيقظة. هذا هو أهم شيء! ثم إنه عليها ألا تقدم على محاولة حمقاء قد تؤدي بها إلى الوقوع في هوة سحيقة قبل أن تصل المعونة، ولهذا جلست متكورة على نفسها. ولكن جلوسها ساكنة جعل ذهنها يعود إلى سلسلة من الأفكار المتشائمة. إن المساعدة إذا ما وصلت ستصل متجسدة في شخص «هيو فريزر» دون شك! فهو الشخص الوحيد الذي يحتمل أن يعرف بوجودها هنا. ستذكر له «جيل» بالطبع أين ذهبت، وعندما تتأخر في العودة... وشعرت «سارة» بأن تخيل ردود فعله المحتملة قد أخذ يغرق ذهنها في هوات صقيعية لا قرار لها. لاشك في أنها قد تصرفت بحماقة، ولكنه لن يفسر الأمر كذلك، فقد علمتها التجربة أن غضبه لا يمكن التنبؤ بأبعاده. واقشعر جسمها؛ إذ خمنت ما يمكن أن يقوله إذا ما وجدها على هذه الحالة، وراحت تبتهل متمنية أن ينقشع الضباب؛ لكي تستطيع العثور على الطريق والعودة قبل أن يتفاقم الوضع. بعد نصف ساعة تقريبًا كان ينادي عليها، ولكنها وهي جاثية قرب الصخور خالتها أيامًا. وهكذا بدت عندما عثر عليها «هيو».

جاثية متكورة تحت الصخور العالية، ترتعش وترتجف. ولم تسمعه حتى وقف أمامها يكاد يدوسها بقدميه. قال برصانة، وهي تنظر إلى أعلى لتحدق إلى عينيه ووجهها شاحب شاخص، وعيناها تفيضان بخليط عجيب من الخوف والامتنان:

– لاشك في أنك ولدت تحت كوكب محظوظ! التصقت السترة الرطبة بجسدها النحيل، وراح قلبها يمور بسيل من العواطف؛ إذ استراحت عيناه على وجهها الأعزل. سألته:

– كيف وجدتني؟ لم أصرخ.

– أما أنا فقد صرخت، ولو أنك كنت تصغين وأجبت لوجدتك قبل الآن، مما كان سيجعل مهمتي أسهل. هزت «سارة» رأسها هزة بكماء، وأخيرًا تمتمت بصوت مرتعش:

– آسفة، لم أسمعك. كانت يداها قد أُطبقتا بشدة وعنف حتى بدا معصماها بلون

البياض. وأحست من انحناءة رأسه وتجهمه أنه كان في حالة نفسية تنذر بالخطر. كان واقفًا، مهيمنًا فوقها، دون أن يفصح عن شيء. ولكنه ما لبث أن قال ووجهه خال من التعبير:

– لقد وجدت اسمك قرب الجدول، وكذلك اسم أمك، فقد دعتها صديقتك، عندما تحدثت عنها في «لندن» باسمها: «أيما»، وهذا أتاح لي أن أتبع الأثر الصحيح، ولكنني كنت على وشك الرجوع عندما عثرت عليك فجأة. لقد كان من الجنون أن آتي بمفردي كل هذه المسافة.

– كل هذه المسافة؟

– نعم لقد تجولت عدة كيلو مترات. لم يبد لها هذا ممكنًا، ولكنها لم تجرؤ على الاعتراض. وجثا على الأرض بجانبها وأمال رأسه في اتجاهها وقال:

– ألم تدركي خطر الشرود وحيدة في مكان كهذا دون أية احتياطات. حتى ولا معطف حقيقي؟ لو لم أجدك لتجمدت من البرد قبل بزوغ الصباح بهذه الثياب الهفهافة. وتنقلت عيناه فوق جسمها وثيابها الرقيقة بجرأة، فارتجفت كريشة في مهب الريح، وتناهى إليها صوته يتأرجح بين الغضب والاهتمام:

– لم يكن في الأمر ما يستدعي هذا، أليس كذلك؟ وكاد هو يسمع النفس الحاد الذي سحبته في الفضاء المشحون حوله عندما قالت:

– هل تظن أنني فعلت هذا عن عمد؟

– ربما، بعض الناس يجدون متعة في عمليات إنقاذهم.

– لا أستطيع أن أثبت لك شيئًا. ليس بوسعي أن أقدم لك أي برهان إلا كلمتي.

طاف نوع من الاستهزاء بفمه الحازم وقال معلقًا:

– إن أي واحد منا قد يتعرض لسوء الظن.

– لم يخطر لي أنني سأفقد طريقي.

– ماذا كنت تتوقعين؟ أخذت «سارة» تصارع للوقوف على قدميها المرتعشتين محاولة الابتعاد عنه. ولكن يده هبطت ضاغطة على كتفها بقوة كانت كافية لتلزمها مكانها.

– من الأفضل أن تبقيْ هنا في مكانك. لا أعرف ماذا تريدين، ولكني لا أنوي

المخاطرة بعنقي مرتين. فقد نسلك دربًا خاطئًا.وكما قلت من قبل، إنني مجنون بلا شك للجرأة على القدوم إلى هنا بمفردي. سرت في جلد «سارة» مئات الرعشات وهي تحاول أن تتخلص منْ قبضته القاسية. وآلمتها التكشيرة الهازئة التي انفرج عنها فمه إلى حد كبير.فجابهته بنظرة طويلة متوسلة، إذ جثا بجانبها على الأرض مقرفصًا بصوت حذائه على الأرض الصخرية الوعرة. وبدا وكأنه قد لان قليلاً. وراحت عيناه تتفحصان مكانهما بنظرات سريعة مقيِّمة، وقال:

– سننتظر هنا بعض الوقت. قد ينقشع الضباب. إن الرياح قد بدأت تهب، والتنبؤات الجوية حسنة. وإذا ما حالفنا الحظ فإن الضباب سينحسر خلال فترة نصف ساعة. إننا على مسافة بعيدة عن السفح، ولكننا لسنا قريبين كثيرًا من القمة.

حدقت «سارة» إلى «هيو» باضطراب كبير وقد ارتسمت الحيرة على وجهها، وقالت:

– ألن يقلقوا في «لوخ غويل»؟ استند «هيو» بظهره إلى الصخرة، فاردًا كتفيه، محاولاً أن يجد بقعة مريحة. وقال وهو يطلق سراحها بحركة لامبالية:

– لقد طلبت منهم أن يعطوني مهلة حتى العاشرة. إذا ما حالفنا الحظ فقد نصل قبل هذا الموعد، فالساعة الآن لم تتجاوز الثامنة إلا قليلاً، وإذا لم نستطع العودة فإننا سنعتبر محظوظين أيضًا لو لقينا بعض المساعدة. قالت متسرعة، متهورة:

– إنني لأتساءل لماذا لا تلقي بي في قعر هاوية ما. ابتسم «هيو» ابتسامته الهازئة وعيناه تستقران على خديها المضرجين وقال:

– أؤكد لك أنني لا أهجر مسؤولياتي بهذه السرعة حتى ولو وجدت هوة سحيقة.

تجنبت «سارة» عينيه، والتفتت لا تلوي على شيء، وراحت تحدق إلى العتمة المتكاثفة. وسألت فجأة:

– هل تناولت عشاءك؟ أجاب ببطء:

– في المطبخ. أخشى أنني لست من فصيلة الأبطال الذين يهرعون إلى تسلق أعالي الجبال وبطونهم خالية حتى ولو من أجل فتاة جذابة مثلك.

– آسفة!

– اشربي هذه. لاشك في أنك تشعرين بالبرد. أخذت «سارة» الزجاجة منه غير راغبة، وأمسكت بها بين يديها الباردتين.

– اشربيها! أطاعت «سارة» ورفعت الزجاجة إلى شفتيها وشرقت قليلا عندما أحست بالدفء يسري في حنجرتها العارية. ثم أخرج «هيو» ترمسًا من الجيب الآخر وسكب منه بعض القهوة الساخنة وقال:

– هذه من «بيدي». لقد استطعت أن ألتهم بعض الطعام بينما كانت تعدها. كان للقهوة مفعول السحر وسرت الحرارة في جسم «سارة» طاردة البرودة ورافعة من روحها المعنوية على الرغم من أن الضباب كان مهيمنًا. وسيطرت على الرعشة في صوتها وقالت برقة:

– لا أريد أن تظن أنني ناكرة للجميل.

– وفري عليك هذا بحق السماء، حدقت «سارة» إليه، ووجهها ينبض بالحيرة، وأدهشها التغيير السريع الذي اعترى مزاجه. تمتمت بشيء من الحدة:

– آسفة! وعندما لم تسمع منه جوابًا عقدت ذراعيها حول جسمها وتكومت على نفسها. أحست بأن وجهها كان قذرًا، أما قميصها فكان متجعدًا، ولاحظت أنها قد فقدت أحد أزرارها،ولكنها لم تبال. وضايقها شعرها، إذ إنها كانت قد أضاعت شريطها مما جعله يتهدل حول كتفيها، ويتطاير في الهواء حول فمها، وحاولت أن تدفع به إلى الوراء وقد نفد صبرها. ثم قالت:

– عندما أجد بعض الوقت سأقص شعري، لأن شكله قصيرًا سيبدو لطيفًا، ويساعدني على ترتيبه بسهولة. حطت عينا «هيو» فوق رأسها المحني، وقال بصوت فيه تهديد رقيق:

– إياك أن تفعلي ذلك! دعي شعرك وشأنه. إنه يعجبني هكذا.

– لا يهم. لم تبق لي إلا عدة أيام هنا. وسرت في جسدها رعشة قوية مؤلمة، فاعتصرت جسمها بين ذراعيها لكي لا يلاحظ. أخطأ «هيو» فهم ما عنته، فتبدل مزاجه على الفور، وقال:

– أما زلت تشعرين بالبرد؟ وأمسك بذراعها جارًا إياها حتى لصقت به، وقال وقد بدا مشدودًا:

– قد نضطر إلى البقاء هنا مدة، والبرد كالشيطان المريد في هذه الأماكن. شرقت «سارة» بأنفاسها، وحاولت أن تتخلص منه قائلة:

– دعني أذهب! فهزها هزة خفيفة وقال:

– إنني لا أمزح أو أبحث عن سبب لكي أحيطك بذراعي. لا أريدك أن تفقدي الوعي. هذا هو كل مرادي. واشتدت قبضة ذراعيه حولها. وسألها:

– هل تشعرين بالدفء الآن؟ قالت ووجهها يتأجج تحت وطأة صراحته الهازئة، وغمرتها موجة من الكراهية:

– لا أشعر بالبرد.

– لماذا ترتعشين إذن؟ ومد أصابعه الفولاذية إلى أصابعها يتفحص حرارتها وقال:

– إن ثيابك غير مناسبة بالمرة.

– لقد أحضرت سترة معي، وكانت الشمس حارة.

– أما الآن فهي ليست كذلك، وأما بالنسبة إلى هذه السترة فهي غير كافية على الإطلاق. وقبل أن تستطيع الاعتراض خلع معطفه الكبير، ولفه حولها بحيث أحاط بهما معًا. فوجدت نفسها تلتصق بصدره الدافئ بحكم الضرورة. أحست «سارة» بما يشبه الحمى، وبشعور غامر بالإثارة على الرغم منها، فأغمضت عينيها وقد قررت ألا تدعه يحزر ما بها. وغزاها إحساس عميق بالشوق نبع من حيث لا تدري، مخدرًا وعيها حتى خالجها الخوف من أن تتكلم أو تتحرك. مرت الدقائق ببطء ثم سأل «هيو»:

– هل تشعرين بتحسن؟ كانت «سارة» تحلم. ولكنه عندما تكلم نظرت إليه بسرعة لتجد أنه كان يحدق إليها بغرابة. فأدارت رأسها بسرعة ماسكة أنفاسها. وراح قلبها يضرب بشدة، وأحست بأن الحقيقة الوحيدة هي هذا الرجل الذي كان يرنو إليها بقلق مستتر.

– سألتك سؤالا!

– آسفة! طبعًا أشعر بتحسن. لا حاجة بي إلى معطفك. فارتفع أحد حاجبيه بحركة ساخرة، ونظر إليها هازئًا:

– هذا مثال لنكران المرأة لجميل الرجل. ورفع يده، فظنت «سارة» أنه كان على

وشك استرجاع معطفه. ولكن – عوضًا عن ذلك – أمال رأسها إلى الوراء بقوة، وأزاح بأصابعه شعرها الثقيل عن عينيها غير عابئ بالعقد. ثم رفعه عن عنقها بمهارة متعمدة، سارحًا بنظراته فوق وجهها الرقيق، متمهلا بعينيه فوق البقع المتسخة على خديها، وفوق أهدابها الذهبية الأطراف.

– «هيو». سمعت «سارة» اسمه على شفتيها يتصاعد مع تنهيدة خفيفة، دون أن تشعر بأنها قد نطقت به.واعتراها شوق عارم، وبدأت تختلط في أعماقها مشاعر حلوة، ولكنه لم يتحرك من مكانه. وتابعت يده فقط التجول فوق وجهها، مسمرة إياها في مكانها، مثيرة عواطف في نفسها لم تكن تعرف أنها تملكها. حثها على المتابعة برقة، بصوت خافت امتزج بالريح التي بدأت تهب:

– ماذا كنت تقولين...؟

– لا شيء... ودهمها الاضطراب، وأطبقت جفونها الثقيلة. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لحماية نفسها ضد مقدرته على قراءتها كالكتاب. وصبغت الحمرة وجنتيها، وخشيت أن يلمح لونها حتى في النور المتلاشي. بعد لحظة صمت، تمهلت خلالها أصابعه بتردد على وجنتها المحمرتين، قال ببطء:

– لقد بدأت تشعرين ثانية يا «سارة»، وكنت قد قررت أن تعيشي في عالم مجدب لا مكان للعاطفة فيه مدة طويلة، ولكن هذا العالم قد بدأ يختفي الآن. عادت «سارة» إلى وعيها تحت تأثير لهجة «هيو» المتأججة، ولكنها لم تجرؤ على التحرك، وتصلب جسمها. كانت خائفة أن يحزّر الكثير، فإن عالمها المجدب الخالي من العواطف قد تعرض لغزو هذا الرجل الذي هو ملك إنسانة أخرى. هل يتوقع منها أن تشعر بالامتنان لأنه أفلح في إيقاظ عواطف راح يراقبها بنوع من الموضوعية الطيبة؟ وأحست بالغضب المفاجئ يملأ عينيها بالدموع اللاذعة، وشعرت بدفئه يتسرب إليها، فاختلجت متشنجة. ولكنها، حتى عندما حاولت أن تبعده عنها ثانية، أحست بذراعيه تضيقان حولها، وتشدان جسدها بحركة رقيقة. وفجأة رفع رأسه وكأنه قد أحس بالخطر وراح يتفحص السماء. هتف وقد سرحت نظراته فوق رأسها. ولاح يقظًا يتنسم الأجواء:

– الغيوم! إنها ترتفع تحت تأثير الرياح الهابة. يحسن بنا أن نسرع. وهب على

قدميه جارًا «سارة» معه، مركزًا انتباهه في الجو. وبدا رأسه الداكن الصلف وكأنه قد عكس لون السماء والعتمة. وأخذت الريح تهب عابثة بثيابها، مالئة الليل ضجيجًا، ممزقة الصمت المخيف الذي كان سائدًا من قبل. وكان الضباب الآن قد ارتفع إلى قمة الجبل بينما لاحت الأرض أمامها واضحة، ولكنها عندما رفعت وجنتيها الحارتين إلى الريح الباردة، أحست برذاذ المطر وبنذير أمطار ستهطل عما قريب. رد «هيو»، وهو يتفرس في السماء ليستدير إليها خالعًا معطفه:

– يحسن بنا أن نسرع. ثم زرر المعطف حولها، مسكتًا محاولاتها الضعيفة للاعتراض بنظرة حادة. والتقط الترمس بيد وأمسك ذراعها بالأخرى. ولم يسمح التعبير الصارم المرتسم على وجهه بأية معارضة؛ إذ شدها بقوة لتجابهه.

– علينا أن نسير مسافة لا بأس بها، وقد تعود الغيوم فتتجمع في أية لحظة بسبب الجو المتقلب هذه الليلة، ولهذا أسرعي بالمشي.

نعم... هذا حسن. قد لا يحالفنا الحظ مرة ثانية إذا ما تمهلنا. ولاح وجهه عابسًا متجهمًا وهو يلقي نظرة سريعة على وجهها. كان «هيو» على حق كما أدركت «سارة» بعد برهة، إذ لم تمض عليهما نصف ساعة إلا وأحاطت بهما ثانية أسوار الضباب الرمادي وهما لا يزالان على بعد مئة متر تقريبًا من الطريق. ودفعها أمامه بقسوة، رافضًا أن يسمح لها بالتوقف حتى وصلا إلى السيارتين. وأدركت «سارة» لاهثة الأنفاس، أنه ما كان بوسعها أن تقوم بهذه الرحلة بمفردها. فقد بدا وكأنهما سارا عدة كيلومترات، إلا أن هذا لم يقترب بهما من هدفهما كثيرًا قال:

– أنا أعرف هذه المنطقة جيدًا. عندما كنت صبيًا تسلقت قمة «بن مور». بدت خطوط فمه مشدودة من التعب والتوتر. وقال لها وقد توقفت للحظة في العتمة، متأهبة، وكأنها على وشك الطيران:

– أريدك أن تعديني يا «سارة» بألا ترجعي إلى هنا ثانية بمفردك. فتحت «سارة» باب السيارة وهرعت إلى داخلها محاولة أن تتخلص من النبرة الديكتاتورية الحازمة في صوته، وشعرت بأنه لم يكن يتوسل أو يتظاهر بمشاركة وجدانية لم يحس بها. فكل ما يريده هو ألا تتصرف بهذه الطريقة الحمقاء مرة أخرى. راحت تبحث عن مفتاح المحرك على غير هدى. قالت بغصة في حلقها، محاولة أن تتجنب النظر

www.rewity.com

إليه:

– أنت ديكتاتور. واعتراها نوع من الشعور بالذنب؛ لأنها وجدت أن جانبًا من نفسها قد رفض أن يهادنه، ولو أنها كانت شخصًا آخر لاندفعت بشعور من الواجب بالثناء عليه وإغراقه بالشكر. وغمرت الثورة كيانها بأجمعه، ضد القدر الذي سمح لها بأن تقع في حب رجل لا تعني شيئًا بالنسبة إليه. نظرت «سارة» إلى وجه «هيو»، وأحست بأعصابها تنكمش خوفًا. كان هنالك شيء يشبه الغضب في عينيه، وكأن ملاحظتها المقتضبة قد جرحته، ولكنه ابتسم ابتسامته الساخرة المعهودة كما لو كان يبتسم لملاحظة أبدتها طفلة جريئة. حثها على الاسترسال بإرادته الفولاذية، ويده على الباب المفتوح تمنعها من التحرك بالسيارة، وصوته مشحون بالتحدي:

– كنت تقولين...؟

– آسفة. قالت «سارة» ذلك وهي تطلق ضحكة رنانة مقتضبة، وقد صممت على مجابهة الموقف. إن الانتهاء إلى مثل هذه النغمة الناشزة لهو خير ألف مرة من أن يخمن حقيقة مشاعرها. ولو أنها تبعت جانب الحذر المطلق لاستطاعت أن تجنب نفسها مرحلة الإذلال النهائي، وأجبرت عيناها على مقابلة نظرته النافذة وقالت برعونة متعمدة:

– إنني ممتنة لك جدًا، كما سبق أن ذكرت لك، ولكن إذا كان التكرار يسعدك فأنا أكرر شكري لك، يا سيد «فريزر»، وأعدك بأنني سأسلك سلوكًا حسنًا في المستقبل.

– مما يعني كل شيء، أو لا شيء. أهنئك يا آنسة «دينتون». انحنى لأداء التحية للحضور! وصفق باب السيارة بصرخة نصف مكتومة، فقفزت تحت وطأة عنف احتقاره؛ إذ حط بثقله على المقعد بعيدًا عنها، وأشار إليها بالتحرك قائلا:

– كل ما أسأله منك هو أن تتجنبي طريقي في المستقبل. ظنت «سارة» وهي تعبس متحيرة، ضاغطة على مكبس البنزين، أنه من الغريب أن يقول رجل مثل هذه الكلمات لسكرتيرته. بعد رجوعهما إلى القلعة قالت «جيل» في صباح اليوم التالي:

– لا أعرف لماذا غضب «هيو» عندما اكتشف أنني لم أكن هنا عندما رجعتما الليلة

الماضية. لقد حاولت أن أشرح له أنني كنت متيقنة بأنه سيجدك، ولكنه رفض الاصغاء إليَّ مما جعلني أقرر أنه إنما أراد أن يثير ضجة كبيرة حول لا شيء، خصوصًا أن الشخص المعني لم يكن إلا أنت. لقد كان غاضبًا بشأن موضوع آخر... موضوع خروجك مثلا في ذلك الوقت المتأخر، كما أظن.

– ما أحمق مثل هذا التصرف! أنا لم أعد طفلة. بغض النظر عن هذا، إذا توخينا الكلام بشكل عام، كان من المحتمل أن تتعرض حياة إنسان أو اثنين للخطر. إن أي شخص قد يتعرض للمتاعب. وكان من المفروض أن تقومي بطلب المساعدة إذا لم نعد. دفعت «جيل» رأسها إلى الوراء وقالت دون أن يبدو عليها التأثر:

– إنك أسوأ من «هيو». مازلت أصر على أنه لم يكن هناك داع للغضب الذي أظهره. كانت الساعة العاشرة تقريبًا فقط. كما أن «كاتي» كانت تعرف أين تجدني.

– يبدو أن «كاتي» تعرف الكثير. أعتقد أنها عرفت بوجود «كولن» هنا قبل أن أعرف أنا بزمن طويل. هزت «جيل» كتفيها، ولكنها بدت خجلة بعض الشيء، إذ قالت:

– لقد عرفت «كاتي» طوال حياتي منذ أن بدأت أتذكر الناس والأشياء، ولهذا فإنه من الطبيعي أن تخلص لي دون الآخرين. أستطيع أن أعتمد عليها.

– حسنًا. أنت تعتمدين عليها. ولكن يجب عليك أن تتذكري أنني لن أستطيع أن أفعل المحال. لاشك في أن «هيو» سيجد الحقيقة يومًا ما. وإذا ما أردت الصراحة، فإنني سأتنفس الصعداء عندما يفعل. ولو كنت مكانك لركزت كل جهودي في محاولة إيجاد تفسير جيد. ألقت «جيل» عليها نظرة عابسة، ثم قفزت على قدميها وشعرها المجعّد يتناثر وقالت:

– بحق السماء، لا تبدئي بإلقاء المحاضرات عليَّ ثانية. لقد سمعت منها ما يكفيني طوال حياتي. لماذا يعترض «هيو» على زواجي بـ «كولن» إذا كان هو قد اعتزم على الزواج بامرأة سيئة مثل «بيث»؟ إن أحدًا لا يهتم بي مطلقًا! داخل «سارة» شعور يشبه الغثيان. وراحت أذناها تطنان طنينًا مؤلمًا، وسمعت نفسها تجيب بصوت واهن:

– إن بعض الأشخاص حاولوا أن يساعدوك... أجابت «جيل» بغموض.

www.rewity.com

– كل شخص يختار طريقته! ولكن دعيني أقول لك إنني لا أبالي باكتشاف «هيو» للحقيقة. ثم إنه قد يجد صدمة في انتظاره في وقت أقرب مما تتصورين. والتفتت «جيل» لترفع معطفًا صوفيًا أزرق عن الكرسي الذي كانت تجلس فوقه في غرفة «سارة»، غير عابئة بالتعبير المرتسم على وجهها الشاحب. وقالت بصوت ما يزال فيه أثر للضجر، وهي تتحرك باتجاه الباب:

– هل ستأتين أم لا؟ فتبعتها «سارة» كارهة بعد أن التقطت معطفها هي أيضًا. كانت «جيل» تعاني أحد أمزجتها الطفولية الانتقامية. ولهذا لم تكن بالرفيقة الودود هذا اليوم. وتمنت «سارة» لو أنها رفضت اقتراحها بأن تذهبا معًا لتصففا شعرهما عند المزيّن. وأحست بأن الوقت قد فات لتغيير رأيها الآن دون أن تثير شكوك «جيل» المغرمة بتوجيه الأسئلة المربكة، والتي تملك موهبة على انتزاع الأجوبة المهمة. وتنهدت «سارة» وهي تهبط السلالم وقد طاف بذهنها أن «جيل» تستطيع أن تتخذ من موهبتها مهنة. قابلتا «هيو» في الردهة. وكانت «سارة» قد أمضت الصباح كله في المكتبة، محاولة أن تنفذ بعناية سلسلة من التعليمات التي تركها لها «هيو» مكتوبة بخط يده ووضعها بجانب الآلة الكاتبة. وباستثناء عدة دقائق أطل خلالها ليوقع بعض الرسائل المهمة، كانت هذه هي المرة الأولى التي استطاعت أن تتحدث فيها إليه هذا اليوم. رفع «هيو» حاجبيه متسائلا، وهو يقف جانبًا من أجل أن يدعهما تمران. فترددت «سارة»، وتورد وجهها تحت وطأة نظراته الفاحصة. وقالت:

– هل تتذكر يا سيد «فريزر»... أنك سمحت لي بالذهاب لتصفيف شعري هذا العصر؟ ووقفت غير واثقة بينما سارعت «جيل» إلى العبور خلال الباب المفتوح. فتمهلت نظراته على رأسها الذهبي بتعمد، وبدت ساخرة بعض الشيء. وقال:

– نعم. إنني أتذكر الآن يا آنسة «دينتون». أظن أن بعض العناية بمظهرك مفيد لك بعد ليلة البارحة، على الرغم من أن شعرك يبدو لي جميلا على الدوام. اعترى «سارة» شعور أحمق لا تفسير له سوى أن «هيو» كان يغازلها. ولولا الوميض الخفيف الساخر في قرارة عينيه لصدقت بأن خيالها لم يخترع هذه الفكرة. ولكن كلماته الأخيرة التي تناهت إليها مصقولة ملساء، أقنعتها بأنها كانت غبية لتسمح بمثل هذه الخواطر:

– إن المزيّن الذي ستذهبين إليه ماهر جدًا، فـ «بيث» تبدو دائمًا كنجمة سينمائية بعد أن تزور صالونه. كانت «جيل» قد قادت السيارة وتوقفت بها أمام المدخل. وراحت تنتظر «سارة» بصبر نافد، ضاغطة على بوق السيارة. وتحت وطأة هذا الصوت تحطم شلل «سارة» التي كانت تقف متجمدة في مكانها. فنظرت إلى «هيو» نظرة شاخصة، ثم تمتمت تستأذن بالذهاب، مرددة عدة كلمات غير مفهومة. ودارت على عقبيها، ثم فرّت هاربة.

– 9 –

عندما جلست «سارة» – بعد عدة ساعات من اليوم نفسه – تنتظر «أيان» ليأخذها إلى الحفلة شعرت بيأس متفاقم، ولم تكن راغبة في الخروج قط. ولما وصل «أيان» أخيرًا، لم يفلح الإعجاب الصريح الذي ارتسم في عينيه في أن يخفف من كآبتها. كيف ستستطيع أن تتحمل الموقف فيما لو أعلن «هيو» خطبته إلى «بيث»، كما خمنت «جيل» أنه سيفعل. وطردت «سارة» الفكرة المؤلمة من ذهنها، وجلست في السيارة بجانب «أيان».

كان «هيو» قد سبقهما بصحبة «جيل» وأحد الجيران. وبقيت «سارة» في غرفتها عن عمد حتى سمعتهما يغادران المنزل، وقد قررت ألا تعطيه الفرصة لإدراك حقيقة مشاعرها، أو إبداء ملاحظة قد تطيح بالبقية الباقية من تمالكها لنفسها. أخذت «سارة» نفسًا عميقًا، وأجبرت نفسها على التخلي عن التفكير بمشاكلها عندما تناهى إليها صوت «أيان» يعتذر بقلق بسبب تأخره. فقالت:

– لا يهم. أنا أعرف كل ما يتعلق بهذه الأمور، فإن مرضاك يجب أن تكون لهم الأولوية بغض النظر عن كل ما يحدث. قال بابتسامة ملتوية:

– أظن ذلك. من حسن الحظ أن الحادث كان بسيطًا، على الرغم من أنه جعلني أعطيه أهمية أكثر مما يستحق عند وقوعه. هل تعرفين ما أعني؟ هزت «سارة» رأسها مبتسمة وهي تنظر إليه. كانت المسافة إلى بيت «بيث» قرب خليج «كارسينغ» بعيدة قليلا. ولكن «سارة» لم تهتم؛ فقد وجدت في رفقة «أيان» صحبة طيبة، وهذا أعطاها

www.rewity.com

الفرصة لاستعادة توازنها. وكان نور النهار قد بدأ يتلاشى عندما وصلا إلى البيت الكبير المربع المحاط بالأشجار، ولم يبد منعزلا أو كئيبًا كـ «لوخ غويل». ولاحت أراضيه – المحمية من تأثير الرياح – غنية بألوان زهور الرودوندرن وزهور الأسيجة التي كانت على وشك التفتح.

– إنه مكان قديم وجميل. همس «أيان» بصوت خافت، وهو يأخذ ذراع «سارة» عند أسفل الدرج الخشبي الحلزوني الذي هبطته بعد أن وضعت شالها في الأعلى:

– يبدو أن كل سكان الجزيرة هنا. عند مدخل قاعة الرقص قدمها «أيان» إلى السيدة «أسكويث» والدة «بيث» الأرملة، وإلى السير «دونالد إرفين» عم «بيث» من «جلاسكو»، الذي راح يساعد على الرسميات. واعتقدت «سارة»– وهي تصافح السيدة الصغيرة الحجم الغنية بمشاعر الأمومة – أن «بيث» لا تشبه والدتها مطلقًا، إذ إن «بيث» لا تملك إلا القليل من دفء والدتها وعذوبتها. بعد قليل تحركا، وقدمها «أيان» إلى عدد كبير من المدعوين. ولاحظت «سارة» وجود حشد كبير. وكان معظم الرجال يرتدون الملابس التقليدية للسهرة في مناطق «الهايلاند» بينما معظم النساء يرتدين التنانير الشعبية الطويلة. وراحت فرقة موسيقية صغيرة تعزف فوق منصة مرتفعة قليلا في قاعة الرقص، وبدا عليهم السرور واضحًا.وسرت عدوى هذا الجو المرح إلى «سارة»، فوجدت نفسها بعد عدة دقائق ترقص الفالس بسعادة بين ذراعي «أيان»، وقد أخذت بعض مخاوفها السابقة تتلاشى. وبينما كانا يرقصان شدها «أيان» إليه وهمس في أذنها، وعيناه على شعرها الذهبي المنساب في موجات راحت تتطاير متجاوبة مع خطوات رقصتها السريعة:

– إنك جميلة يا «سارة»!

أدركت «سارة» من النبرة العميقة في صوته أنه قد يسعى يومًا ما – كما كان قد ألمح إليها – إلى نشدان ما هو أبعد من الصداقة. وأحست أنه من الأرحم أن تحاول إيجاد طريقة لتحذره موحية إليه بأن الصداقة هي كل ما تستطيع تقديمه له. ولكنها كانت شديدة الاستغراق في البحث بنظراتها عن «هيو»،من فوق كتفه، حتى أنها بصعوبة سمعت ما كان يقوله لها. وضاعت معظم كلماته في الفضاء فوق رأسها. ولاح لـ «أيان» أنه قد حزَّر أخيرًا أن أفكارها لم تكن معه، ولو لم يعرف أين كانت

بالضبط، فقال:

– إذا كنت تبحثين عن أصحابنا من «لوخ غويل» فلا داعي إلى أن تقلقي. لا شك في أنهم هنا في مكان ما يتمتعون بالحفلة والرقص. أجابت وهي تشعر ببعض الخجل من نفسها:

– في الحقيقة كنت أفكر في «جيل». لا لأن ما قالته كان بعيدًا جدًّا عن الحقيقة، بل لأن «جيل» ومشكلتها كانتا لا تفارقان ذهنها. قال «أيان»:

– أظن أني لمحتها قبل قليل في لحظة دخولنا. وكانت ترقص. أعتقد أنها في صحة جيدة الآن، فقد مضت مدة لا بأس بها على عمليتها. ابتسمت «سارة» وهي تلتفت إلى «أيان» ثانية. وراحت تنظر إليه بينما كان يقودها في الرقص، وتمنت لو تنسى «هيو»، فإن «أيان» هو الذي اصطحبها هذه الأمسية، ومن حقه عليها أن تبدو مرحة. لم تر «جيل» في أي مكان. وأملت «سارة» ألا تكون غاضبة من «هيو»... من المؤسف أنها لن تستطيع أن تسأل «كولن» أن يأتي معها، وهذه حقيقة يبدو سلوكها السابق في ضوئها غبيًّا. فلو أنها كانت شجاعة، وحاولت أن تتكلم مع أخيها في الموضوع مرة ثانية، لكان في وسع «كولن» أن يأتي معها ويستمتع بالحفلة. عزفت الأوركسترا النغمات الأخيرة من رقصة الفالس. وانساب «أيان» و «سارة» بين ذراعيه فوق أرض الصالة، وعيناه تتلألآن. قال مقهقهًا:

– سأحاول أن أجد بعض المرطبات قبل أن يتيقظ الآخرون للفكرة نفسها. إن المرء يحاج إلى أن يحتفظ بقواه من أجل مجابهة هذا النوع من الرقص. فكرت «سارة» في أنه كان هناك عدد كبير من الناس. وراح «أيان» يحاول أن يشق طريقه بين الجموع بصعوبة بالغة. سألت «سارة» وقد أفلحت في العثور على مكان هادئ، وعلى كأس من الشراب البارد:

– من أين أتوا جميعهم؟

– قد تتعجبين! إن عددًا كبيرًا منهم لم يكونوا بين المدعوين على الأكثر. وهذا لا يعني أنه يمكن أن نعتبرهم متطفلين. فهم في العادة أصدقاء للأصدقاء إذا أدركت ما أعني. أجابت «سارة» بهزة من رأسها:

– نعم، أفهم. وظنت أنه يمكن اعتبارها هي شخصيًّا من بين هذه الفئة، إذا ما

توخى الإنسان الدقة. وحدقت إلى ما حولها ترتشف شرابها.وراحت تستمع بتراخ إلى «أيان» وهو يشير إلى عدد من الأشخاص المرموقين الذين أتوا خصوصًا لحضور الحفلة. لم تر «جيل» بعد، وفجأة توترت أعصابها؛ إذ رأت «بيث» ترقص بين ذراعي الرجل المعجب بها. بدت «بيث» طويلة جذابة بشعرها الأسود ووجهها المطلي بأناقة. وكانت حركاتها رشيقة.ووقعت عيناها على «سارة» التي تراجعت مجفلة تحت وطأة النظرة العدائية الباردة التي ارتسمت في أعماقها. ولكنها اعتقدت بعد لحظة أنها لابد أن تكون قد أخطأت. إلا أن «بيث» لم تبدُ وكأنها تفيض بمثل هذه السعادة التي لابد أن تشعر بها فتاة على وشك أن تعلن خطبتها. ولكن «أيان» لم يتح لها إلا وقتًا قصيرًا للتأمل. وبعد العشاء كانت قد بدأت تشعر بمزيد من السرور والارتياح عندما ظهر «هيو» فجأة إلى جانبها. بدا أنيقًا جدًّا ولافتًا للنظر، كما يمكن أن يبدو الرجل الطويل فقط في ثياب السهرة.وعلى الرغم من دوافعها الأخرى،فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من لذة تأمله بإمعان، وكانت عيناه تلمعان كالفضة في وجهه الداكن الأسمر. قال لهما:

– هذه الرقصة لي كما أظن. وانساب بها بعيدًا قبل أن يجد «أيان» الفرصة للاعتراض. وأمسك بها بعيدًا عنه قليلا لكي يستطيع أن يرى وجهها. وقال لها:

– أخبريني، هل تتأملين الناس دائمًا بهذه الطريقة من قمة الرأس إلى أخمص القدمين؟

– آسفة! هل أطلت التحديق؟ لقد كنت أتساءل أين كنت؟ خرجت الكلمات الأخيرة من بين شفتي «سارة» قبل أن تستطيع إيقافها. فتوردت قليلا، ولاح الاحمرار واضحًا تحت جلدها الأملس الشفاف وقالت:

– لقد كنت أتأمل بدلتك بإعجاب. في الحقيقة كانت «جيل» هي التي أردت أن أراها.

– في هذه الحالة من الأفضل أن تتوقفي عن البحث. لاشك في أنها هنا في مكان ما. ولكن من المستحيل أن تجدي حزمة قش في هذه الزحمة فكيف بالقشة؟

– كل ما أردته هو أن أتبادل معها بعض الكلمات.

– ألا يمكن أن تستعيضي بي عنها؟ من فضلك لا تفسدي أمسيتي بتوجيه مثل هذه

النظرات المتعالية. إنه شيء توصلت إلى إتقانه تمامًا، خصوصًا خلال الأيام الأخيرة. وحدق إلى وجهها بإمعان، وعيناه السوداوان تطفحان بالأسئلة؛ إذ انحدرتا فوق رأسها المحني ورموشها الثقيلة. وكان ثوبها من الحرير «الجورجيت»، الأبيض اللون، له كمان واسعان مضمومان عند الرسغين، وتكمله تنورة فضفاضة، وكان صدر الفستان ضيقًا التصق بجسدها، كاشفًا عن عنقها وكتفيها.وبدت «سارة» فيه جميلة جدًا. أحست بحواسها تتخدر تحت وطأة نظراته العميقة. وشعرت بالضعف فكادت تتعثر؛ إذ وجدت نفسها تغرق في بحر من اليأس. وضاقت ذراعاه حولها للحظة، وشدها إليه؛ ولم يصغ إلى الاعتذار القصير الذي تفوهت به ولا التفسير الذي صاحبه.

لزمت «سارة» الصمت مشيحة بوجهها، وأخذ النبض يضرب بشدة في أسفل عنقها وغامت عيناها، ولم تشعر قط بمثل هذا الشعور من قبل. وكرهت «هيو» لأنه كان السبب. شهق «هيو» نفسًا مسموعًا وعيناه تنتقلان فوق وجهها:

– دعينا نخرج من هنا. كل هؤلاء الناس لا أعرف من أين جمعتهم «بيث».اعترضت «سارة» بوهن، وهي تشعر بـ «هيو» يقودها عبر باب جانبي بحزم:

– هذا من أجل غاية جيدة. ثم عبرا ردهة مظلمة باتجاه خلفية المنزل. ولم تعرف أين كانا ذاهبين. علق «هيو» بجفاء، وهو يفتح بابًا خارجيًّا انتهيا منه إلى الهواء النقي العليل:

– أشك في أن يستطيع الكثيرون منا التحمل. وجدت «سارة» نفسها تمشي مسرعة عبر ممر الحديقة، ثم عبر قوس بُني في جدار آجري قديم يقود إلى خميلة من أشجار الصنوبر وبعض الأعشاب القصيرة المتشابكة، بعد ذلك هبطا بعض الدرجات الحجرية غير المنتظمة، ووصلا إلى كوة قرب ما بدا لـ «سارة» في الظلام بركة تكاد تغطيها الأعشاب النامية.وقرب البركة رأت مقعدًا خشبيًّا قويًّا صقله تعاقب المواسم والأجواء. حدقت «سارة» بفضول إلى زوايا الحديقة التي بدت واضحة في ضوء القمر. وكادت أن تنسى وجود «هيو» للحظة، حتى قال بهدوء:

– لن يجدنا أحد هنا. وتمهل. وأخذت الرياح تخلّف فوق وجهه ظلالا كلما هبت

خلال أغصان الأشجار القريبة مما أعطاه منظر قرصان متغطرس متهور. وأخذ قلب «سارة»، الذي كانت ضرباته قد هدأت نسبيًا، ينبض من جديد بشدة عندما نظرت إليه. وشعّت ابتسامته برقة عندما نظرت إليه كومضة بيضاء في العتمة، ولكنها دهشت عندما قال لها:

– كان أخو «بيث» صديقي، وكان معروفًا في عالم سباق السيارات. لن تستطيعي تذكره بالطبع، لقد قتل قبل عدة سنوات. وكانت هذه البقعة هي بقعته المفضلة، كما كان يدعوها. كنا نأتي إلى هنا أحيانًا عندما كنا صغارًا للهرب والاختباء من «بيث». لا أحد يأتي إلى هنا الآن كما أعتقد.

– آسفة. إنني أفهم. ووقفت أمامه في ثوبها الأبيض الطويل. وأردفت قائلة:

– ألا تؤمن بالأشباح؟

– لا، فيما عدا الشبح المنتصب أمامي الآن. وكانت الابتسامة ترف على شفتيه عندما لمس أحد قرطيها الذي راح يهتز. وهو ليس بالتأكيد شبح «بن» الذي كان يتمتع بروح الفكاهة والمرح. سمعت «سارة» وراءها صوت انسياب المياه إلى البركة المهملة تحت الأعشاب النامية، وكان الصوت الوحيد حولها عندما توقف «هيو» عن الكلام. وعلى الرغم من شعورها بعدم الارتياح، سارت بعيدًا عن «هيو» إلى حافة البركة، ونظرت إلى أعماقها المظلمة. وأحست بالدموع تلسع عينيها. قال «هيو» مقتربًا منها، ومتابعًا اتجاه نظراتها دون أن يلاحظ الدموع في عينيها:

– لقد بنى «بن» هذه البركة بنفسه، كان يحب العمل في الحدائق، مثل بناء الجدران وشق الدروب وغير ذلك. ولم أستطع قط أن أعرف كيف كان يوفق بين ولعه بالحدائق وتعلقه برياضة سباق السيارات. قالت «سارة»:

– إن حبه للحدائق ما كان ليقتله. اعتراها الخجل قليلا للنبرة الجريئة في صوتها، ولكنها ما كانت ترغب في أن تدع العواطف تتسرب إلى نفسها ولو قليلا. وبدت لها اللهجة العاطفية في صوت «هيو» سلاحًا آخر يوجه ضد تحصيناتها المضعضعة. إذا لم تتوخ جانب الحيطة فإن البقية الباقية قد تتداعى، مخلفة إياها تحت رحمته تمامًا. وفجأة تمنت «سارة» بيأس لو كانت أكبر سنًا أو أكثر خبرة. إن «هيو» يثيرها

ويحيرها، وهو يبدو قادرًا على قراءة حالتها النفسية، وأحيانًا يبذل جهده لكي يروّح عنها، ولكنها لا تعرف كيف تتعامل معه مطلقًا. لقد اعتاد أن يرمقها بطريقة توحي بالاستمتاع والتسلية، وهو يملك القدرة على اقتحام قلبها الأعزل بقسوة. وراحت أصابع «سارة» تبحث بلا وعي عن شيء تتمسك به، فلمست أوراق زهرة من زهرات «الليلك» الرقيقة، واستدارت بحركة آلية، ودفنت رأسها بين الزهيرات الباهتة العطرة.

– «سارة»! جاءت ضحكة «هيو» رقيقة، هازئة قليلا، ونفذت إلى أعماق قلبها. ورفعها بين ذراعيه، وحملها إلى المقعد ثم وضعها هناك وجلس بجانبها، ولكنه احتفظ بإحدى ذراعيه حولها. سكنت بلا حراك، واعتراها ما يشبه الغيبوبة. ومد «هيو» يده الأخرى إلى ذقنها، ورفع وجهها إليه مراقبًا العرق الذي راح ينتفض في صدغها.

– أنت تعرفين لماذا أردت أن نأتي إلى هنا، أليس كذلك؟ لا من أجل أن أكلمك عن «بيث» أو «بن» أو «جيل»، بل لكي أعبر لك عن الحب، كما أردتني أن أفعل عندما كنا فوق جبل «بن مور» البارحة، لقد شعرت بذلك. ارتجفت «سارة» دون أن تستطيع السيطرة على رعشاتها وقد صدمتها هذه المفاتحة الصريحة. قالت وهي تغص، وقد غمرتها المذلة:

– لا أريدك أن تشعر بأنك مدين لي بأي شيء. واشتعل وجهها خجلا وهي تحاول أن تنتزع نفسها بعيدًا عنه دون جدوى. كيف دفعتها الأقدار إلى الوقوع في حب رجل بمثل هذه القسوة، رجل لا يتورع عن تعييرها بضعفها ورهافة حسها، ولكنها لم تستطع الإفلات بهذه السهولة. إن القسوة التي عرفتها فيه من قبل لا تزال هنا، تسخر بها وتؤلمها. لم يحاول أن يتظاهر الآن، ولم يكن في موقفه أي من التحفظ والسيطرة على النفس اللذين أظهرهما في الليلة الماضية. أحس «هيو» بارتجافها فرفع رأسها، ولكنها دفنته بسرعة في كتفيه، فأجبرها على رفعه ثانية. ولاحظ اليأس المرتسم على وجهها واضطرابها الفائق، وتناهى إليها صوته يقول:

– غدًا، يا «سارة»، يجب علينا أنا وأنت أن نتحدث. لعله ما كان يجب أن آتي

بك إلى هنا هذه الأمسية. ولكن هذا الشيء الذي بيننا هو أمر لا يستطيع الإنسان أن يقاومه مدة طويلة. وأبرز ضوء القمر معالم وجهها الجميل الصافي، وبدا يافعًا أعزل، وقد استدارت عيناها تحت وطأة عنف مشاعرها.

– غدًا! قالتها بصوت خافت، لا يكاد يسمع، وأنفاسها تتصاعد مضطربة لافحة عنقه. إنها لا تريد أن تفكر في الغد. لا يوجد إلا هذه الليلة وهذا الرجل. فالآن لم تعد تملك ذرة من الكبرياء. إنها لا تريد إلا أن يحبها «هيو» كما تحبه. الكلمات ليست كافية، غير مهمة.

كان قربها، ولكنه استعاد تمالكه لنفسه. وتصاعد صوته أكثر ثباتًا، وقد عادت إليه نبرته الفولاذية:

– يا حبيبتي... لقد أتيت مع «ماكنزي»، ولهذا يجب أن أعيدك إليه قبل أن يشرع في البحث عنك. ستقولين له إنك لا ترغبين في الخروج معه ثانية. إن غدًا لهو يوم آخر! هل كان يعتذر أم يتوسل إلى مشاعرها الأسمى؟ ورمت برأسها إلى الوراء بعنف والشكوك تدميها.

– وماذا بشأن «بيث»؟ لم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال، وهي تحدق إليه خلال الظلام. واستطردت تقول:

– لا يوجد شيء بيني وبين «أيان»، ولكن أنت و «بيث»... قالت «جيل» إنك قد تعلن خطبتك إليها هذه الأمسية. راح رأسها يدور وغزاها شعور حاد بالعذاب. إنها على استعداد لأن تدفع أي ثمن مقابل استرجاع هذه الكلمات التي أفلتت منها مندفعة رغمًا عنها. ما كان يجب أن تذكر «بيث»، ولكن النزوة التي دفعتها إلى الكلام كانت أقوى منها. شعرت «سارة» بجسد «هيو» يتصلب للحظة، ولكن ليس غضبًا. ولم تستطع أن تتبين ملامحه؛ لأنه كان يقف عكس القمر الذي كسته غمامة. ولم تلمح إلا بريقًا خفيفًا في عينيه عندما قال برصانة.

– إن «جيل» تتحدث كثيرًا، وإن هذه كانت عادتها دائمًا، وهي بارعة في الوصول إلى النتائج الخاطئة. واستدار فجأة وأمسك بوجهها بين يديه قائلا:

– لا تضيفي شيئًا آخر يا «سارة». سنعود الآن. وكما قلت لك قبل قليل، إن الغد

لهو يوم آخر. كانت الأوركسترا تعزف النغمات الأخيرة لإحدى الرقصات عندما دخلا قاعة الرقص. وصدمت حواس «سارة» الأنوار المتلألئة وروح المرح السائدة في القاعة، وكأنها نغمات ناشزة، وأحست بالثقل الجاثم على قلبها يتفاقم. ولم يساعد وجه «هيو» المجهد على تشتيت هذه المشاعر. وداخلها الشعور بأنها كانت تحلم هذه الساعة الأخيرة، وأن شيئًا لم يحدث في الحقيقة.

ثم بدت الدقائق التالية وكأنها قد نجحت في تحويل الأمسية إلى كابوس مخيف. فقد ظهرت «جيل» أمامها فجأة وراحت ترقص باتجاههما بين ذراعي «كولن»، وذلك في اللحظة التي داهمتهما فيها «بيث» مصممة غاضبة. اعترى «سارة» ما يشبه الإغماء، شعور جديد مروّع، وهي ترى «بيث» تضع ذراعها حول ذراع «هيو» وكأنها تملكه، مبتسمة له ابتسامة مضيئة وقالت له:

– لقد بحثت عنك في كل مكان يا حبيبي. ذكر لي البعض أنك كنت تتناول مشروبًا، ولكنني لم أجدك، ثم سألت «جيل» عنك ولكنها كانت مشغولة جدًا بالتمتع بصحبة صديقها الفنان من «لندن»، مما جعلها غير قادرة على الانتباه لأي شخص آخر. أنا أغفر لها بالطبع، فقد بدت غارقة في الحب. ووقعت ضحكة «بيث» الرنانة كالصقيع على رأس «سارة». تبعت ذلك لحظة صمت. وأخذ اللون يتسرب من خدي «سارة»، تاركًا إياها تبدو شاحبة وخائفة، ولم تضطر إلى النظر إلى وجه «هيو» لترى العيوس يتجمع فوق وجهه، وذلك عندما لوحت «جيل» لهم بجرأة، ثم اختفت هي و «كولن» في زحمة الموجودين. تابعت «بيث» الابتسام، ممسكة بذراع «هيو»، وعيناها تدرسان مظهر «سارة» المشعث قليلا بنظرة باردة حقود. وبدا واضحا أنها استخلصت نتائجها الخاصة ولم يعجبها ما رأت. وأدركت «سارة» ذلك عندما تمتمت «بيث» بسلاسة:

– لقد رأيتك أنت و «جيل» تدخلان كوخ الفنان البارحة يا «سارة»، ولكنني كنت مستعجلة جدًا فلم أتوقف. كنت على وشك سؤال «جيل» أن تصطحبه معها اليوم، ولكن يا لحسن الحظ! كانت من النباهة بحيث توقعت الدعوة. كانت «سارة» تعرف أن بعض النساء قادرات على التصرف بذكاء شيطاني عندما يتعرضن

للإثارة، وكانت تعرف أيضًا أن «بيث» كانت تعلم بوجود «كولن» وببعض الخلافات والمناقشات بشأنه. ومن المحتمل أن «جيل» قد سدت الثغرات في معلوماتها، إلى الحد الذي جعلها تفضي إليها بدور «سارة» في الموضوع. وكل ما تحتاجه «بيث» الآن هو تشويه بعض الحقائق، مستعملة المعلومات من أجل الوصول إلى غرضها.

زحفت البرودة إلى جلد «سارة»، ومعها شعور بالحتمية، فإن الشيء الذي خشيته أكثر من غيره قد حدث أخيرًا. إن «هيو» يعرف الآن دورها في محاولة خداعه.

وبدا الاحتقار الذي يشعر به تجاهها واضحًا على وجهه، وتناهى إليها صوته يقول باقتضاب من خلال ضباب العذاب الذي اكتنفها:

– اسمحي لـ «سارة» ولي يا «بيث» بإنهاء هذه الرقصة فقط. قبل أن تستطيع «سارة» الاعتراض جرها بعيدًا عن عيني «بيث» المشمئزتين إلى حلقة الرقص. ولكنها لم تشعر بالامتنان له في قلبها. فلا شك في أن الاستجواب سيبدأ الآن. بدأت التعاسة تتجمع في نفس «سارة»؛ إذ أخذ خوفها يتفاقم، وتعثرت قدماها على الأرض المصقولة، فشدها «هيو» بسرعة إلى أعلى، محيطًا إياها بذراعيه الشديدتين وقال بصوت خافت قاس:

– حاولي على الأقل ألا تفقدي قدميك وقد فقدت كرامتك. همست وهي تحاول أن تسيطر على نفسها:

– من فضلك يا «هيو». ولكنه قاطعها بصوت متحجر:

– لا تقولي إنك تملكين تفسيرًا، وإنك لا تعرفين عمّا كانت «بيث» تتحدث، لأنني لا أريد أن أسمع تفسيرًا. حدقت «سارة» إليه بعينين وجلتين واسعتين، مميلة رأسها إلى الوراء لكي ترى وجهه. لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من هذه اللحظة، إن «هيو» إنسان غريب! لا صلة له بالرجل الذي احتواها بين ذراعيه بحب عميق في الحديقة. وشملتها عيناه بنظرات كالسياط، وقد لاح النفور في كل خلجة من خلجات وجهه. ولكنها واصلت قائلة:

– من فضلك يا «هيو»... يجب أن تصغي إليّ، من أجل «جيل» على الأقل. ألا نستطيع أن نذهب إلى مكان ما لكي نتحدث؟ رفض «هيو» توسلاتها على الفور كما

توقعت أن يفعل بل قال:

– هذا المكان يصلح للكلام كأي مكان آخر، ولو أنني وجدت نفسي معك بمفردنا لوقعت في خطر استعمال العنف الجسدي، أو أتحت لك الفرصة ثانية لكي تتلاعبي بي كما تشائين، وهو شيء يبدو أنك قد تمتعت به جدًا في الماضي.

من ذا الذي قال إن الكوابيس لا تستمر؟ هذا الكابوس يمكن أن يستمر العمر كله! وحاولت «سارة»، تحت عنف صدمتها أن تنتزع نفسها بعيدًا عنه، ولكنه أمسك بها كالكماشة، وأحاطت أصابعه بخصرها الرقيق كالفولاذ. ووجدت أنها إذا ما أرادت أن تتجنب إثارة الانتباه، فمن الأفضل لها أن تتبعه حيث يريد. وبدا من غير المنطقي أنه على الرغم من تهكمه كانت تتآكلها الرغبة الملحة في أن تقنعه بأنها لم تتعمد أن تخدعه، وأنها تصرفت كما فعلت مدفوعة بثقتها بأن «كولن براون» قد تعرض للظلم في الحكم عليه، ثم إنه بوجود أخت «كولن» في الكوخ معهما طوال الوقت بدا من الحكمة إتاحة الفرصة لـ «جيل» و «كولن» لمعرفة حقيقة مشاعرهما دون التعرض للمعارضة وتأثيراتها السلبية.

– على الأقل، دعني أقول لك إنني شخصيًا أعتقد أن «كولن براون» شاب جيد يمارس مهنة جيدة. وهو يرغب صادقًا في التعرف إليك.

– ما ألطف هذا! لا أحد يستطيع الادعاء بأنك لم تزنيه وتقيّميه جيدًا، ولكن بحق السماء وفري عليّ التفصيلات.

– إنني أكرهك! قال منفجرًا بلهجة يفعمها عنف مستكن:

– الشعور متبادل. وومض بريق الخطر في عينيه وهو يستوعب شحوبها الشديد. لم يكن هنالك من مخبأ، وأحست بمصابيح الثريات المطلة من سقف الصالة المزين تلسع وجهها بنورها المتألق، ولاح «هيو» تجسيدًا للقاتل، القاتل المجرد العاري.

– إني أعرف كل شيء عن عزيزنا السيد «براون». هذا يعني. استطرد مصححًا.

– إنني أعرف الآن. وبناء على معلوماتي أجدني أتفق معك في الرأي في أنه لا غبار عليه، ولكن ليس هذا هو الموضوع المطروح، وأنت تعرفين ذلك. فلقد تعمدت أن تخدعيني، وأنا لا أهتم أبدًا بالأسباب المخففة، لأنني طلبت منك أن تفعلي شيئًا

ووافقت، ولكنك لجأت من وراء ظهري إلى العمل ضدي طوال الوقت. قابلت عينا «سارة» الكبيرتان المحملقتان عينيه بتوسل بينما راح الألم والاستياء يصطرعان في نفسها.

– إنني لا أرى الأمر كما تراه يا «هيو». لقد ظننت أنني كنت أتصرف من أجل خير الجميع. ثم إنني قد وضعت كل مشاعري الخاصة بشأن دوري في الموضوع في المكان الثاني؛ لأن اهتمامي الرئيسي كان منصبًا على مصلحة «جيل».

– ما ألطف هذه الخطبة الصغيرة يا «سارة»! هل كنت تتوقعين التصفيق والثناء؟ بدلا من أن تكثري من الاحتجاج، لماذا لا تعترفين بأنك كنت قد قررت أن تتصرفي كما تشائين منذ البداية؟ مثل طفل أفسده التدليع. حسنًا، إنني أرى الآن والفضل لـ «بيث»، وأنا أعرف تمامًا حقيقة معدنك.

– كيف تجرؤ...؟ واندفعت الدماء الحارة إلى خديها، وتحولت إلى عاصفة من الغضب. وانتهت الرقصة بمرافقة لحن صاخب من الأوركسترا. فتوقفا يحدقان كل منهما إلى وجه الآخر، غير عابئين بالناس حولهما. وتصلب ظهر «سارة» من شدة الغضب الذي خنق دموعها في مهدها. ورمت برأسها إلى الوراء متحدية بقولها:

– ألا تظن، أنه قد يكون هناك تفسير مختلف؟ لقد اكتشفت أنك كنت مخطئًا فيما يتعلق بـ «كولن براون»، ولكن لم تفكر في أن تأتي لتصارح من يعنيهم الأمر بحقيقة ما اكتشفت. كيف استطاعت مثل هذه المعلومات أن تنزلق من ذاكرتك العجيبة! ولو أنك فعلت، لكنت أنا و «جيل» لك من الشاكرين. ثم استدارت؛ إذ لم تعد تملك السيطرة على كلماتها، ودون أن تنتظر أي جواب جرت مبتعدة. ولم تكن من المغرمات بالمشاجرات، وقد لاحظت أنها و «هيو» قد أخذا يجذبان انتباه الموجودين. وسارعت «سارة» إلى مغادرة قاعة الرقص، وتنفست الصعداء عندما عثرت على «أيان» في طريقها. كان يمشي في الردهة، وبدا واضحًا أنه كان يبحث عنها. وشعرت بوخزة من الشعور بالذنب عندما أشرق وجهه فرحًا برؤيتها. هل هي في حقيقتها إنسانة مخادعة كما تشعر الآن؟ ربما، ولكنها وجدت من الصعوبة أن تسيطر على العواطف التي كانت تعتمل في نفسها، فقالت له:

– من فضلك يا «أيان»، عندي صداع عنيف. هل تتفضل بإيصالي إلى البيت؟ عبس «أيان» وهو يحدق إلى وجهها بإمعان، بعينين قلقتين، وقد تيقظت حاسته الطبية.

– ألم تتعرضي لحادث أو لشيء من هذا القبيل يا «سارة»؟

– لا في الحقيقة إلا إذا كان باستطاعتي أن أصف نقاشًا بالحادث إن الرقص يوشك على التوقف يا «أيان»، آمل ألا يزعجك أن نغادر الآن.

– طبعًا لا. في الحقيقة كنت على وشك أن أسألك شخصيًّا أن تدعينا نذهب الآن. فبعد نصف ساعة سيبدأ صف طويل من السيارات بالتجمع لمسافة كيلومتر تقريبًا، مما سيجعلنا غير قادرين على التحرك. إذا استطعت العثور على معطفك فستجديننني في السيارة خارج البوابة. كانت «سارة» تشعر ببعض الخجل عندما فكرت في «أيان» بعد عدة ساعات، ولم تدرك – إلا بعد أن أوصلها وتركها إنه لم يقل إلا القليل، وكأنه قد خمن الاتجاه الحقيقي لعواطفها، وساق بها إلى «لوخ غويل» دون أن يبدي ولو ملاحظة واحدة غير لطيفة، على الرغم من أنها شعرت بأنه كان يودُّ لو يعرف موضوع الخلاف مع «هيو». لا شك في أنه سيعرف في القريب العاجل... بعد أن تكون قد ذهبت. كان رأسها يؤلمها، على الرغم من الحبوب التي أصر «أيان» على أن تأخذها. ولكنها حاولت أن تتجاهل صداعها، وقفزت من فراشها. لقد نجحت في الحصول على قسط من النوم على الأقل، مع أنه كان نومًا متقطعًا مضطربًا. كان الذي أيقظ «سارة» هو صوت السيارة في الساحة أمام القلعة. وتذكرت أن «هيو» كان قد رتب الخروج لقضاء هذا اليوم مع «جون فينلي». مما سيدفعه إلى مغادرة القلعة مبكرًا. من الواضح أنه لن يدع خلافًا مع سكرتيرته يفسد متعته.

وصلت إلى النافذة في اللحظة التي اختفى فيها «هيو»، ولم تلمح منه إلا رأسه الداكن قبل أن يسوق بعيدًا. لما استدارت بسرعة وقعت عيناها على فستان حفلة الليلة الماضية ملقى على الأرض. ففي الساعات الأولى من هذا الصباح، عندما نزعته، لم تبال بما يحدث له. فاتجهت بسرعة إلى خزانة الثياب، وفتحت بابها ثم أنزلت حقيبتها ووضعت فيها ثيابها. يجب أن تترك «لوخ غويل» في الحال. لن يكون بامكانها أن تبقى وتواجه «هيو» مرة ثانية، وخاصة بعد الذي حدث ليلة البارحة.

فلاشك في أن احتقاره لها سيكون واضحًا إلى الحد الذي يثير الارتباك بينهما. هذا فيما عدا مشكلة حبها له الذي لن تستطيع أن تخفيه. ثم إن عملها هنا قد انتهى تقريبًا، ولن يجد «هيو» صعوبة في إتمامه بنفسه، أو ربما تتبرع «بيث» بتقديم كل المساعدة التي يحتاجها. انتهت «سارة» من حزم ملابسها وسارعت إلى وضع خططها. ستتكلم بالهاتف لتطلب سيارة أجرة من «سالن»، ثم تأخذ المركب من «كريغنيور». ولم تكن تعرف موعد مغادرته للجزيرة، ولكن سائق سيارة الأجرة سيخبرها، لأن سكان الجزيرة يعرفون مثل هذه الأشياء في العادة. ومن «أوبان» ستأخذ القطار إلى «جلاسكو» ثم إلى «لندن»، وإذا حالفها الحظ فسوف تصل إلى منزلها في المساء. بعد ساعتين كانت تجلس على الرصيف في «كريغنيور». كان الوقت الحادية عشرة فقط. وقال لها سائق سيارة الأجرة إن المركب سيصل قبل الساعة الثانية عشرة، ولهذا لن تنتظر طويلا. كان أهل البيت في «لوخ غويل» في الفراش عندما غادرت. وكانت قد كتبت رسالة صغيرة لـ «هيو» تركتها له في المكتبة. وقالت لـ «بيدي» باقتضاب إنها قد استُدعيت للعودة إلى «لندن» في الحال. ولم تكن واثقة بما إذا كانت «بيدي» قد صدقتها أم لا، ولكنها وعدت بأن تخبر الآخرين عندما يهبطون من غرفهم. لاشك في أن «هيو» سيفكر في عذر مناسب عندما يعود. أما الآن فقد جلست على صندوق مقلوب لتخزين السمك، كما فعلت عندما قدمت قبل عدة أسابيع. ولكن بدلا من أن تنظر باتجاه البر راحت تنظر نحو البحر، لأنها هذه المرة كانت تنتظر المركب وليس رجلا ذا لسان حاد وعينين أكثر حدة، رجلا كتب عليها أن تحبه. كان الصباح جميلا رطبًا ومنعشًا، ولا غيوم إلا ما تجمع منها فوق الأفق، فأغلقت «سارة» عينيها بتصميم ضد سحر المنظر. عندما تذهب بعيدًا عن الجزيرة ستشعر بالتحسن دون شك، ولكنها الآن يجب أن تحتفظ بذهنها جامدًا كأبي الهول. يجب ألا تفكر. وفجأة فتحت عينيها المغرورقتين بالدموع، وقلبها يخفق بشدة، وشعرت بالضعف يسري في قدميها، فقد حادت السيارة «اللاندروفر» عن الطريق الشمالي، وسارعت في اتجاه الرصيف ثم توقفت قربه بضغطة شديدة على الفرامل، وقفز منها رجل طويل داكن الشعر... آه، لا. وقفزت يد «سارة» إلى

عنقها، ليس للمرة الثانية، ودون أن تعير انتباهًا لوهن رجليها، سارعت إلى الوقوف متعثرة فوق قدميها، غير مصدقة ما رأته عيناها.

ولكن «هيو» لم يتوقف للسؤال هذه المرة. ودون أن يتكلم أو ينظر إليها كما يجب، التقط متاعها بقسوته المعهودة، وألقى به كيفما كان في مؤخرة السيارة. قال أخيرًا، وهو يحيد بالسيارة عن الرصيف:

– أين تظنين أنك ذاهبة؟ لاحظت أنه كان في منتهى الغضب، ولكن لم يكن هنالك ما تستطيع أن تفعله؛ لأن صوتها بدا وكأن الشلل أصابه. وأخيرًا استطاعت أن تقول بصوت ضعيف:

– هل وجدت الرسالة التي تركتها لك؟ قال بعنف وهو يغير السرعة قرب المنعطف:

– نعم. لقد تسلّمتها. ورأيت «جيل» أيضًا. ولكن هذا ليس هو المهم. إن «جيل» لا تملك ذرة من التعقل، ولكنني توقعت منك أن تكوني أكثر حكمة. لم يفت «سارة» تهكمه الشديد، فاستدارت بسرعة لتنظر من النافذة، والدموع توشك أن تقفز من عينيها:

– لقد ظننت أنك كنت ذاهبًا لقضاء اليوم بطوله بصحبة صديقك. أطبق «هيو» فكيه بشدة وقال بإيجاز:

– ولهذا قررت أن تهربي وتذهبي إلى «جين» في «لندن». تبعت ذلك لحظة صمت طويلة. وشعرت «سارة» بالعرق يكسو كفيها، فكورت أصابعها حولهما بشدة. وتابعت «اللاندروفر» طريقها، وضاق الشارع. وفجأة قاد «هيو» السيارة إلى طريق فرعي وتوقف. فوجدت «سارة» نفسها في مكان تحيط به أشجار الصنوبر، المكان نفسه الذي وقفا فيه في السابق، في أول يوم لها على الجزيرة. أوقف «هيو» المحرك، واستدار إليها على الفور، ولاحظ تعبيرها الوجل. قال بحدة ودون شفقة:

– الآن سنتكلم أنا وأنت.

– حسنًا، افعل ما تشاء إذا كنت تظن أن هذا سيشكل فرقًا ما. أجبرت نفسها على قول ذلك بلا اكتراث. وانطلقت يده إلى كتفها، وأمسك بها ضاغطًا، موجعًا إياها

عن قصد. وقال:

– أصغي إليّ. ولمعت عيناه بسخرية. ودفعت نبرة صوته بالدماء الحارة إلى وجنتيها. وظل يحدق إلى عينيها حتى لم تعد تحتمل نظراته، فأطبقت جفونها، وهمست:

– لقد قلت إنك رأيت «جيل». قال باقتضاب:

– نعم. وقد فسرت الكثير، كل ما لجأت إليه كي تجبرك على الموافقة على خططها من أجل أن تخفي صديقها. لا يسعدني أن أقول إنه قد ثار بها الغضب عندما ذكرت لها أنه لم يكن هناك داع إلى ذلك. فسارعت «سارة» إلى القول عندما توقف لحظة متأملا:

– لقد ذكرت شيئًا عن «كولن» في الحفلة، شيئًا عن كونه مناسبًا. وضع «هيو» أصبعه تحت ذقنها، وأجبرها على النظر إليه. لقد قبض رجال الشرطة على «كولن براون» عندما قاموا بمهاجمة ناد كبير من أجل ضبط المخدرات. لا أظن أن «جيل» قد فكرت في إطلاعك على هذه الحقيقة! هزت «سارة» رأسها مجفلة، واستمر قائلا:

– لقد أطلق سراحه لحسن الحظ، إذ ثبتت براءته. ولكن قبل أن يحدث هذا تسلّمت والدة «جيل» أخبارًا سيئة من «أمريكا». قبل أن تتزوج من والدي كان قد مضى على ترملها خمس سنوات. ولو أن المعلومات التي تسلّمتها كانت صحيحة، لكان معنى هذا أن زوجها الأول لا يزال على قيد الحياة. مما يعني – بدوره من الناحية الفنية – أن زواجها من والدي لم يكن قانونيًا. كل هذا حدث بعد موت والدي بقليل مما جعل المرأة المسكينة تكاد تفقد عقلها. ولكن ما لبثت أن تبينت أنه كان هنالك خطأ في الموضوع ناشئ عن عدم اكتشاف هوية الميت الحقيقية. بالاختصار، كانت قد فقدت زوجها الأول في حادث طائرة في «المكسيك»، ووقعت أوراقه بين يدي شخص آخر. وبعد كل هذه المدة يشاء سوء الحظ أن يلقى هذا الرجل أيضًا حتفه في حادث فتقع أوراق زوجها في أيدي الشرطة وتكون هي الأوراق الوحيدة التي أمكنهم التعرف من خلالها إلى هويته، ولهذا اتصلوا بها في «لندن». حاولت «سارة» مستاءة أن تجد تعليلا وقالت:

– أما كان بالإمكان أن تذهب «جيل» معها... أو أنت؟

– لقد رفضت أن تصغي إلى مثل هذا الاقتراح. إن أختها في «بالتيمور» معها الآن بالطبع، ولكنها لم تشأ أن تعرف «جيل» شيئًا عن الموضوع، خصوصًا الآن، بعد أن زالت الحاجة.

– ولهذا فقد طلبتْ منك أن تعتني بـ «جيل» وتراقبها في أثناء غيابها. وما كدت أصل إلى هنا حتى أمرتني بالتعاون معك. بدا فمه الساخر حنونًا:

– تذكري يا «سارة» أنني لم أكن معتادًا الأمور والمشاكل العائلية. لعلي قد تصرفت بمبالغة، باذلاً الجهد لبناء خط دفاعي ثقيل ضد عينين زرقاوين جميلتين. حاولت «سارة» أن تحتفظ بشيء من حضور الذهن من أجل أن تتجاهل ضربات قلبها.

– مساء البارحة، ذكرت أن «كولن» شخص لا بأس به، ولكنك لم تشر إلى هذه الحقيقة من قبل. كشّر «هيو» ولوى وجهه وقال:

– لأنني لم أعتقد أن هذا كان ضروريًا. لقد ظننت أن «جيل» نسيته، أو لعلك تستطعين أن تعللي سبب حالتي النفسية. ألحت «سارة»:

– ولكن متى اكتشفت الحقيقة؟

– عندما ذهبت إلى «لندن» وقابلت «جيمس كار». كان قد تعهد بأن يبحث لي عن الحقيقة. وقد قابلت أيضًا «جين مارلي»، وتكلمنا معًا. عبث النسيم المتسرب من نافذة السيارة بشعر «سارة»، ولكنها رفضت أن تدفع ذهنها إلى الشرود وقالت:

– ليلة البارحة كنت غاضبًا جدًا.

– طبعًا يا حبيبتي. وجاء صوته مرحًا مفعمًا بالسخرية. يجب أن تتذكري أنني لم أكن أعرف أن السيد «براون» كان على ظهر الجزيرة. ناهيك عن كونه يقطن هنا في كوخ استأجره. وعندما تبرعت «بيث» بالهمس بالمعلومات في أذني اسودّت الدنيا في عينيّ. ولم يكن وجود «كولن» هنا هو الذي هزني، بل علمك بوجوده. حدقت «سارة» إليه بعينين واسعتين تحف بهما الظلال، ثم تحركت شفتاها الرقيقتان وقالت بندم:

– آسفة يا «هيو». أرجو أن تصدقني. قال ضامًا إياها بشدة:

– يا حبيبتي. أنا الذي يجب أن يعتذر لا أنت. كل ما أستطيع أن أقوله إن

الحب يجعل الإنسان حساسًا وأعمى. لقد أردت ليلة البارحة أن أتوسل إليك لكي تتزوجيني. والله وحده يعلم بأنني لم أدع شيئًا في طريقي من قبل. ولم يحل بيني وبين سؤالك إلا مزيج غريب من الأسباب المتصلة بيني وبين «أيان ماكنزي». لقد أردت أن يكون المكان مناسبًا والجو مناسبًا، لأنني لم أسأل فتاة من قبلك أن تتزوجني. وأنا في العادة لا أدع مجالا لحقد «بيث» وحبها للانتقام أن يؤثرا فيّ.

– أنت لا تحبها إذن؟ انحنى «هيو» وقال:

– ليس هناك شيء البتة بين «بيث» وبيني يا حبيبتي. كل ما في الأمر أنها تظن أنها تميل إليّ أكثر من غيري من الرجال. ابتسمت «سارة» بعذوبة، ولكنها لم تناقش؛ إذ إن «بيث أسكويث» لم تعد مهمة على الإطلاق. وضمها إليه مرة ثانية. قال بصوت سريع خافت:

– أحبك. وكان نواح الريح هو الصوت الوحيد للحظة، حتي رفع رأسه وتمعن في وجهها المحمر الرقيق. ردّد بانفعال:

– أحبك يا حبيبتي. ولكن هل أنت على استعداد للزواج بي والعيش هنا في «لوخ غويل»؟ إنني أنوي أن أدير أملاكي هنا بنفسي، وأراقب أعمالي في «لندن» من لوخ غويل». رفعت «سارة» إلى «هيو» عينين تتألق فيهما النجوم، وحدقت إليه وفمها يرتعش تحت وطأة العواطف العارمة التي جاشت فيها، وقال لها:

– سأرعاك يا «سارة». سأحاول أن أعوضك عن كل شيء. تناهى إلى «سارة» تغريد طائر، وكان الهواء عابقًا بروائح الصيف في الجزيرة، وسمعت في صوت «هيو» حنانًا لم تستطع أن تنكره. ردت بصوت يكاد لا يكون مسموعًا:

– يا حبيبي، إنني أحبك إلى الدرجة التي لا يهمني عندها أين أعيش، ولكن «لوخ غويل» مكان مثاليّ، «لوخ غويل» وأنا وأنت.

لقد جاءت إلى هذه الجزيرة قبل مدة قصيرة بقلب مجروح حزين، أما الآن فقد راح قلبها يخفق متناغمًا مع خفقات قلب الرجل الذي كان يضمها بحنان، ولم يعد قلبها يرجع إلا أصوات البحر، وفاضت به الموسيقى.

تمت بعون الله